بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الثالث

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم

الأنفال ٨ / ٢٤

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق

الجزء الثالث

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

درجات الرسل وأحوال الناس في اتباعهم

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَلكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (٢٥٣)﴾

الإعراب :

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا﴾ : تلك : مبتدأ ، والرسل : صفة له أو عطف بيان ، وفضلنا : جمله فعلية في موضع رفع خبر المبتدأ ولم يقل : ذلك ، وقال : تلك ، مراعاة لتأنيث لفظ الجماعة ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾ من : اسم موصول يفتقر إلى صلة وعائد ، فصلته : ﴿كَلَّمَ اللهُ﴾ والعائد محذوف تقديره : كلمه الله ، وهو وصلته : في موضع رفع مبتدأ ، وخبره : منهم.

البلاغة :

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ أشار بالبعيد لعلو مرتبتهم في الكمال وسمو درجتهم.

﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾ يسمى في البلاغة : التقسيم ، وهو تفصيل ذلك التفضيل.

ويوجد طباق بين قوله : ﴿آمَنَ﴾ و ﴿كَفَرَ﴾.

كرر جملة ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ﴾ في الآية ، ويسمى ذلك إطنابا ، لتأكيد المقصود.

المفردات اللغوية :

﴿فَضَّلْنا﴾ بتخصيصه بمنقبة ليست لغيره ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾ كموسى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ أي محمدا ﷺ ﴿دَرَجاتٍ﴾ على غيره بعموم الدعوة ، وأنه رحمة للعالمين ، وختم النبوة ، وتفضيل أمته على سائر الأمم ، والمعجزات المتكاثرة والخصائص العديدة ﴿الْبَيِّناتِ﴾ الآيات الواضحات الدالات على رسالته ﴿وَأَيَّدْناهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جبريل يسير معه حيث سار. ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ﴾ مشيئة إلجاء وقسر. ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي الأمم التي أتت بعد الرسل ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ﴾

ثبت على إيمانه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ كالنصارى بعد المسيح واليهود بعد موسى ، والكفر : ضد الإيمان ، وهو أيضا جحود النعمة ، وهو ضد الشكر ﴿وَلكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ﴾ من توفيق من شاء وخذلان من شاء.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصة طالوت وجالوت وداود ، وأعقبها بقوله : ﴿تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ليقيم الدليل بمعرفة تلك القصص على أن محمدا ﷺ من المرسلين الذين أوحي إليهم الوحي المبين لأحوال الماضين.

ذكر تعالى هنا أن الرسل درجات ، ميّز الله بعضهم على بعض ، بمزايا ومناقب ليست لغيره ، وأن أحوال الناس عموما في اتباع الرسل : إما مؤمنون وإما كفار ، وإما مسالمون وإما متقاتلون ، لحكمة ربانية مردها إلى قضاء الله وقدره.

التفسير والبيان :

هؤلاء الرسل المشار إليهم في الآية السابقة : ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ على مراتب في الكمال ، وقد فضل الله بعضهم على بعض بتخصيصه بمآثر أو خصائص أو مفاخر جليلة ليست لغيره ، مع استوائهم جميعا في اختيارهم لتبليغ الرسالة الإلهية وهداية الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وجاءت عبارة التفضيل في آية أخرى هي : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ ، وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ٥٥] وهنا : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾.

من هؤلاء الرسل : من فضله الله بأنه كلمه مشافهة من غير واسطة وهو موسى عليه‌السلام : ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾ [النساء ٤ / ١٦٤] ، ﴿وَلَمَّا جاءَ

مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف ٧ / ١٤٣] ، فسمي «كليم الله».

ومنهم من رفعه الله على غيره درجات ومراتب في الفضل والشرف ، والمراد به محمد ﷺ ، كما رواه الطبري عن مجاهد ، ويؤيده السياق أيضا.

وتفضيله بأوجه ذكرناها ، وبأوجه أخرى منها رؤيته الأنبياء في السموات ليلة الإسراء والمعراج بحسب تفاوت منازلهم عند الله ﷻ ، ومنها سمو أخلاقه الشريفة ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم ٦٨ / ٤] ، ومنها تأييده بالقرآن الخالد إلى يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ [الحجر ١٥ / ٩] وقال في فضل القرآن : ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء ١٧ / ٩] ومنها تفضيل أمته : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [آل عمران ٣ / ١١٠] وجعل أمته وسطا بين الأمم عدولا وشهداء على الأمم : ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة ٢ / ١٤٣].

ولو لم يؤت من المعجزات والخصائص إلا القرآن وحده ، لكفى به فضلا على سائر الأنبياء ، لأنه المعجزة الباقية أبد الدهر ، روى البخاري أنه ﷺ قال : «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». وروى مسلم والترمذي عن أبي هريرة أنه ﷺ قال : «فضّلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون».

وآتى الله عيسى بن مريم عليه‌السلام البينات : وهي الآيات الواضحات التي يتبين بها الحق من الباطل ، كتكليمه في المهد ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه

والأبرص بإذن الله ومشيئته ، وتأييده بروح القدس : جبريل عليه السلام ، ردا على اليهود الذين أنكروا نبوته والطعن به ، وحفظا له من أذاهم ، وتبيانا لحقيقته أنه بشر مؤيد من عند الله بالآيات الواضحات ، لا إله ، كما زعمت النصارى في عيسى ، فكان الناس في شأنه بين مفرّط ومفرط.

ولو شاء الله ما اقتتلت الأمم التي جاءت بعد الرسل ، من بعد ما جاءهم الرسل بالبينات والمعجزات الدالة على الحق الموجبة لاتباعهم ، ولو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل وقبول الحق من ربهم ، وإنما ترك لهم حرية التفكير والنظر والإدراك بالعقل الذي أودعه فيهم ، ليختاروا طريق الخير والسعادة بأنفسهم ، ولكنهم لم يفكروا تفكيرا سليما واختلفوا اختلافا بينا كبيرا في قبول الدين ، فمنهم من آمن بما جاء به الرسل ، ومنهم من كفر برسالاتهم ، وقد اختلف اليهود في دينهم واقتتلوا ، وكذلك النصارى اختلفوا وانقسموا ، وتعددت الفرق والانقسامات في كل من اليهودية والنصرانية ، واتهم كل فريق الآخر بالخروج عن أصل الدين ، ووجد هذا الاختلاف أيضا بين المسلمين ، حيث عصفت بهم الأهواء ، وفرقتهم المصالح ، واحتدم القتال فيما بينهم.

ولو شاء الله - بالرغم من اختلاف ميولهم ونزعاتهم وأهوائهم - ما اقتتلوا على ما يختلفون فيه ، ولكن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وكل ذلك من قضاء الله وقدره ، فصارت ردود الفعل متفاوتة ، إما بخصومة الكلام والطعن والنقد والسب ، وإما بالاحتكام إلى حد السيف وإراقة الدماء. وقد كرر تعالى قوله : ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ للتأكيد.

والله قادر على كل شيء ، فإن أراد التوفيق لبعض عباده آمن به وأطاعه ، وإن أراد الخذلان لبعض آخر كفر به وعصاه ، فالخذلان والعصمة من فعل الله وإرادته.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على التفضيل بين الأنبياء في زيادة الأحوال والخصوصيات والكرامات والألطاف الإلهية والمعجزات المتباينات. أما النبوة في نفسها فلا تتفاضل ، فكلهم في النبوة والتبليغ ووحدة الهدف والغاية سواء ، وإنما تتفاضل بأمور أخر زائدة عليها ، ولذلك منهم رسل وأولو عزم ، ومنهم من اتخذ خليل الله ، ومنهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات. والرسل أفضل من الأنبياء ، فمن أرسل بشرع وأمر بتبليغه أفضل ممن لم يؤمر بالتبليغ ، وأولو العزم من الرسل وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام أفضل من بقية الرسل. ومحمد ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين على الإطلاق ، لأن رسالته عامة للناس جميعا ، وللإنس والجن أيضا ، قال تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ ٣٤ / ٢٨] ولأن رسالته توجهت بالقرآن المجيد الذي هو شرع الله الدائم والذي ختمت به الشرائع ، والمتكفل بحفظه إلى يوم القيامة ، ولغير ذلك من الأسباب التي ذكرناها سابقا ، لذا قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٧] فعمّ ثم خص وبدأ بمحمد ﷺ ، وقال النبي ﷺ . فيما رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة . : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة». وأما قوله عليه‌السلام : «لا تخيروني على موسى» أو «لا يقل أحد أنا خير من يونس بن متى» فهو على معنى التواضع.

وهذا القول ينطبق على الصحابة رضوان الله عليهم ، اشتركوا في الصحبة ، ثم تباينوا في الفضائل بما منحهم الله من المواهب والخصائص ، فهم متفاضلون بالمآثر ، مع أن الكل شملتهم الصحبة والعدالة والثناء عليهم ، ويشير القرآن إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [الفتح ٤٨ / ٢٩] وقوله : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها﴾ [الفتح ٤٨ / ٢٦] وقوله : ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ ..﴾ [الحديد ٥٧ / ١٠] وقوله : ﴿لَقَدْ

﴿رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح ٤٨ / ١٨] فعمّ وخص ، ونفى عنهم الشين والنقص ، ووعد كلا منهم الحسنى.

وأما النزاع والاقتتال بين الناس بعد الرسل فكله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى ، ولو شاء خلاف ذلك لكان ، ولكنه المستأثر بسرّ الحكمة في ذلك الفعل لما يريد.

الأمر بالإنفاق في سبيل الخير

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)﴾

الإعراب :

﴿لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ﴾ قرئ بالرفع بالابتداء ، أو على أن يجعل : ﴿لا﴾ بمعنى ليس ، و ﴿فِيهِ﴾ الخبر ، وقرئ بالبناء على الفتح ، لأنه معه بمنزلة «خمسة عشر».

البلاغة :

﴿وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ مبتدأ محصور في خبره أي قصر صفة على موصوف ، وقد أكدت بالجملة الاسمية وبضمير الفصل ، أي : ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ وهو كافر و ﴿هُمُ﴾ : مبتدأ ثان ، و ﴿الظَّالِمُونَ﴾ خبر الثاني ، أو أن : ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ، و ﴿الظَّالِمُونَ﴾ : خبر. وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال : الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل : والظالمون هم الكافرون. أي يصبح كل ظالم كافرا ، وما أكثر الظلم بين الناس.

المفردات اللغوية :

﴿يَوْمٌ﴾ المراد به هنا يوم الحساب ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ﴾ البيع في الأصل : الكسب بأي نوع من أنواع المبادلة أو المعاوضة ، والمراد به هنا : لا فداء ، فيتدارك المقصّر تقصيره. ﴿وَلا خُلَّةٌ﴾ أي

ولا صداقة ولا مودة تنفع ﴿وَلا شَفاعَةٌ﴾ بغير إذنه يوم القيامة ﴿وَالْكافِرُونَ﴾ بالله أو بما فرض عليهم ، والمراد به في رأي الحسن البصري : تاركو الزكاة ، لأن الأمر بالإنفاق هو الإنفاق الواجب ، لاتصال الوعيد به وهو أن تاركي الزكاة هم الظالمون ، كما قال الزمخشري. والظالمون : هم الذين جحدوا أمر الله أو أنفقوا المال في غير محله المشروع.

المناسبة :

حثت الآيات السابقة على الجهاد بالنفس ، وهذه الآية حث على الجهاد بالمال وإنفاقه في سبيل الخير ، ليدخر الناس ثواب ذلك عند ربهم ، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا.

التفسير والبيان :

يأمر الله المؤمنين الذين اتصفوا بصفة الإيمان الصادق بالإنفاق في سبيل الله ، وذلك يشمل ـ في رأي ابن جريج وسعيد بن جبير ـ الزكاة المفروضة والتطوع أو المستحبة ، قال ابن عطية : وهذا صحيح ، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال ، وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين يترجح منه أن هذا الندب إنما هو في سبيل الله ، ويقوي ذلك في آخر الآية قوله : ﴿وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال.

وقوله : ﴿مِمَّا رَزَقْناكُمْ﴾ يؤكد الحث على الإنفاق ، لأنه يدل على أنه لا يطلب إلا بعض ما رزقه الله لعباده.

ويتأكد الأمر أيضا بأنه سيأتي يوم يندم فيه الإنسان ولا يفيده الندم ، وهو يوم الجزاء والحساب والثواب والعقاب الذي لا ينفع فيه البديل أو الفداء ، ولا الصداقة أو المودة ، ولا الشفاعة أو الوساطة أو النسب ، يوم تختلف فيه مقاييس الآخرة عن مقاييس الدنيا ، وذلك مثل آية أخرى هي : ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ، وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ ، وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ ، وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة ٢ / ٤٨].

والكافرون وهم كل من كفر بالله أو التاركون للزكاة هم الذين ظلموا أنفسهم ، أي فإنهم يقاتلون بالنفس والمال ، وإن المنفقين وضعوا المال في غير موضعه ، وقد سماهم الله كافرين تهديدا وتغليظا ، كما قال : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ٩٧] وإشعارا بأن ترك الزكاة من صفات الكفار ، كما قال تعالى : ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ [فصلت ٤١ / ٦ ـ ٧] قال عطاء بن دينار : والحمد لله الذي قال : ﴿وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل : «والظالمون هم الكافرون».

فقه الحياة أو الأحكام :

تأمر الآية بإنفاق المال في وجوه الخير ، سواء أكان بطريق الزكاة المفروضة أم بالصدقات والتطوعات المندوبة ، فلكل ثوابه العظيم يوم الآخرة ، وفيه تحقيق التضامن والتكافل بين أبناء الأمة الواحدة ، بل إنه السبيل الواجب للحفاظ على عزة الأمة ومكانتها وهيبتها واسترداد حقوقها المغتصبة ، وصون كرامتها وحرماتها وديارها ، فمن يقصر في ذلك وهو من الأغنياء القادرين على الإنفاق ، كان سببا في تدمير أمته وإذلالها ، إذ لا بقاء ولا حياة ولا سعادة للأغنياء أنفسهم إذا فتك الثالوث المخيف (وهو المرض والفقر والجهل) في بقية أفراد الأمة. قال ابن عطية : وظاهر هذه الآية : أنها مراد بها جميع وجوه البر من سبيل خير وصلة رحم ، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال ، وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين ، يترجح منه أن هذا الندب إنما هو في سبيل الله ، ويقوي ذلك قوله في آخر الآية : ﴿وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال[١].

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٢٧٥ ، طبعة الرياض.

آية الكرسي

﴿اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾

الإعراب :

﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ : ﴿اللهُ﴾ مبتدأ أول ، و ﴿لا﴾ : نافية للجنس ، و ﴿إِلهَ﴾ : اسمها ، وخبرها محذوف تقديره : لا إله معبود إلا هو ، والجملة مبتدأ ثان ، و ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل مرفوع على البدل من موضع : ﴿لا إِلهَ﴾ ، ويجوز رفعه خبرا لكلمة : ﴿لا﴾. و ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ : مرفوعان إما صفة لله تعالى ، أو بدل من ﴿هُوَ﴾ أو على تقدير مبتدأ. هذا عند ابن الأنباري ، والأصح عند العكبري وغيره أن ﴿اللهُ﴾ مبتدأ ، وجملة ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبره ، وليس بمبتدإ ثان.

البلاغة :

في الآية حسن افتتاح بأجل أسماء الله تعالى ، وفيها تكرار اسمه ظاهرا ومضمرا في ثمانية عشر موضعا ، وفيها إطناب بتكرير الصفات ، وقطع الجمل حيث لم يصلها بحرف العطف ، لأنها كلها في حكم البيان ، وطباق في ﴿ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾. هذا ما قاله أبو حيان في البحر المحيط (٢ / ٢٨١) وعدّ أحمد رحمه‌الله سبعة عشر موضعا فيها اسم الله تعالى ظاهرا وخفيا ، فالظاهر ستة عشر وهي : الله ، هو ، الحي ، القيوم ، ضمير لا تأخذه ، وضمير له ، وضمير عنده ، وضمير إلا بإذنه ، وضمير يعلم ، وضمير علمه ، وضمير شاء ، وضمير كرسيه ، وضمير : ولا يؤده ، وهو العلي ، العظيم. وأما الخفي : فالضمير الذي اشتمل عليه مصدر : حفظهما ، فإنه مصدر مضاف إلى المفعول ، ولا بد له من فاعل وهو الله (حاشية الكشاف : ١ / ٢٩٢).

المفردات اللغوية :

﴿اللَّهُ﴾ هو المعبود بحق ، والعبادة : استعباد الروح وإخضاعها لسلطة غيبية لا تحيط بها علما ، ولا تدرك حقيقتها ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق في الوجود سوى الله ﴿الْحَيُّ﴾ : الدائم البقاء أو ذو الحياة ، والحياة صفة لله تعالى تستلزم اتصافه بالعلم والإرادة والقدرة ﴿الْقَيُّومُ﴾ دائم القيام أو القائم بتدبير خلقه في آجالهم وأعمالهم وأرزاقهم ، وحفظهم ورعايتهم ، كما قال تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ [الرعد ١٣ / ٣٣]. ﴿لا تَأْخُذُهُ﴾ الأخذ : الغلبة والاستيلاء ﴿سِنَةٌ﴾ نعاس وهو فتور قبل النوم. والنوم : حال تعرض للحي ، بها تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس والشعور. ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ علمه الإلهي بدليل قوله تعالى : ﴿رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر ٤٠ / ٧] ولأن أصل الكرسي : العلم ، ومنه يقال للعلماء : كراسي ، للاعتماد عليهم ، وقيل : المراد بها عظمته ولا كرسي ثمة ولا قعود ولا قاعد ، كقوله تعالى : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر ٣٩ / ٦٧] ، وقيل : ملكه ، وقال الحسن البصري : الكرسي هو العرش. قال ابن كثير في تفسيره (١ / ٣١٠) : والصحيح أن الكرسي غير العرش ، والعرش أكبر منه ، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار.

﴿وَلا يَؤُدُهُ﴾ : ولا يثقله ولا يشق عليه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ، بل ذلك سهل عليه يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على جميع الأشياء ، وهو الغني الحميد ، الفعال لما يريد ، وهو القاهر لكل شيء ، العلي العظيم لا إله غيره ولا رب سواه. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ العلي : المتعالي عن الأشباه والأنداد وهو فوق خلقه بالقهر ، والعظيم : هو الكبير الذي لا شيء أعظم منه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ مثل قوله : وهو ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ﴾.

فضل آية الكرسي : آية الكرسي سيدة آي القرآن وأعظم آية ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله ، وفيها اسم الله الأعظم ، قال أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبي أمامة مرفوعا إلى النبي ﷺ قال : «اسم الله الأعظم الذي إذ دعي به أجاب في ثلاث : سورة البقرة ، وآل عمران ، وطه» قال هشام بن عمار خطيب دمشق : أما البقرة فقوله: ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفي آل عمران : ﴿الم. اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفي طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾.

ووردت أحاديث كثيرة أخرى في فضلها ، منها «سيد الكلام : القرآن ، وسيد القرآن : البقرة ، وسيد البقرة : آية الكرسي» ، ومنها «من قرأ آية الكرسي دبر

كل صلاة ، كان الذي يتولى قبض روحه ذو الجلال والإكرام ، وكان كمن قاتل مع أنبياء الله حتى يستشهد» ومنها : «من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي ، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» (١). وعن علي رضي الله عنه قال : «سمعت نبيكم ﷺ يقول ، وهو على أعواد المنبر : «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة ، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ، ولا يواظب عليها إلا صدّيق أو عابد ، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه ، آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره ، والأبيات حوله».

وقال ابن كثير : هذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة ، متعلقة بالذات الإلهية ، وفيها تمجيد الواحد الأحد (٢).

المناسبة :

ذكر تعالى في الآيات السابقة أن العمل الصالح الفردي هو أساس النجاة ، فلا ينفع المال والشفاعة والصداقة والمودة ، وأن الرسل صلوات الله عليهم ـ وإن تفاوتوا في الفضل ـ إلا أن دعوتهم واحدة ورسالتهم واحدة ودينهم واحد قائم على دعوة التوحيد وصون الفضائل والأخلاق وعبودية الله تعالى ، ثم جاءت آية الكرسي لتقرر أصل التوحيد وأساس العبادة ، ولتحصر الاتجاه بأي عمل نحو الله تعالى ، وليستشعر العبد عظمة الله وسلطانه ، ويطيع أوامره ، ويذعن لأحكامه.

التفسير والبيان :

الله هو المتفرد بالألوهية لجميع الخلائق ، فلا معبود بحق في الوجود إلا هو ، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الواجب الوجود ، ذو الملك والملكوت ، الحي الباقي الدائم الذي لا يموت ، القائم بذاته على تدبير خلقه ، كقوله : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٥] ، الذي لا يشبه أحد من خلقه في الذات ولا في الصفات ، ولا في الأفعال ، كما قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى ٤٢ / ١١].

---

(١) رواه النسائي وابن حبان في صحيحة عن أبي أمامة.

(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٠٨

لا يعتريه نوم ولا يغلبه نعاس ؛ لأنه قائم بتدبير أمور خلقه آناء الليل وأطراف النهار. وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها ، مقررة لمعنى الحياة والقيومية الدائمة الكاملة ، جاء في الصحيح عن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : «إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل ، وعمل الليل قبل عمل النهار ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

وجميع ما في السموات وما في الأرض عبيده وفي ملكه ، خاضعون لمشيئته ، وتحت قهره وسلطانه ، كقوله تعالى : ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً ، لَقَدْ أَحْصاهُمْ ، وَعَدَّهُمْ عَدًّا ، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً﴾ [مريم ١٩ / ٩٣ ـ ٩٥]. وهذه الجملة مؤكدة أيضا لقيوميته وتفرده بالألوهية.

ومن عظمة الله وجلاله وكبريائه أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة ، كقوله تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى﴾ [النجم ٥٣ / ٢٦] وقوله : ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٨] وقوله : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود ١١ / ١٠٥] وفي حديث الشفاعة : «آتي تحت العرش ، فأخر ساجدا ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقال : ارفع رأسك ، وقل تسمع ، واشفع تشفّع ، قال : فيحد لي حدا ، فأدخلهم الجنة». وهذا دليل على انفراد الله بالملك والسلطان.

والله محيط علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ويعلم أمور الدنيا وأمور الآخرة ، كقوله إخبارا عن الملائكة : ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا ، وَما بَيْنَ ذلِكَ ، وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم ١٩ / ٦٤] قال

الخضر لموسى عليه السلام حين نقر العصفور في البحر : «ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر».

ولا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل ، وأطلعه عليه ، ومن تلك الأشياء : الشفاعة ، فهي متوقفة على إذنه تعالى ، وإذنه لا يعلم إلا بوحي منه.

والله تعالى واسع الملك والقدرة ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، يحيط علمه بجميع ما في السموات والأرض ، ويعلم صغار الأمور وكبارها ، دقيقها وعظيمها ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا شأن عن شأن ، ولا يشق عليه أمر.

وقد أورد الزمخشري أربعة أوجه في تفسير قوله ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾[١] :

أحدها ـ أن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته وسعته ، وما هو إلا تصوير لعظمته ، وتخييل فقط ، ولا كرسي ثمة ، ولا قعود ولا قاعد ، كقوله : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر ٣٩ / ٦٧] من غير تصوّر قبضة ، وطي ، ويمين ، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه وتمثيل حسي ، ألا ترى إلى قوله : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

والثاني ـ وسع علمه : وسمي العلم كرسيا تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم.

والثالث ـ وسع ملكه : تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك.

والرابع ـ ما روي أنه خلق كرسيا هو بين يدي العرش ، دونه السموات والأرض ، وهو إلى العرش كأصغر شيء. وعلى كل حال أرى أنه يجب الإيمان

---

(١) الكشاف : ١ / ٢٩١ ـ ٢٩٢.

بوجود العرش والكرسي ، كما ورد في القرآن ، ولا يجوز إنكار وجودهما ؛ إذ في قدرة الله متسع لكل شيء. ولا يثقله تعالى حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما ، بل ذلك سهل عليه ، يسير لديه.

وهو المتعالي عن الأنداد والأشباه ، وأعظم من كل شيء ، لا تحيط به العقول والمدارك ، ولا يعرف حقيقته إلا هو سبحانه وتعالى. وهذا كقوله : ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ﴾ والمقصود بالعلو : علو القدر والمنزلة ، لا علو المكان ؛ لأن الله منزّه عن التحيّز في المكان. وفسر بعضهم العلي : بأنه القاهر الغالب للأشياء.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآية تملأ القلب مهابة من الله وعظمته وجلاله وكماله ، فهي تدل على أن الله تعالى متفرد بالألوهية والسلطان والقدرة ، قائم على تدبير الكائنات في كل لحظة ، لا يغفل عن شيء من أمور خلقه ، وهو مالك كل شيء في السموات والأرض ، لا يجرأ أحد على شفاعة بأحد إلا بإذنه ، ويعلم كل شيء في الوجود ، ويحيط علمه بكل الأمور وأوضاع الخلائق دقيقها وعظيمها ، ويظل بالرغم من التدبير للخلائق والعلم المحيط بالأشياء هو العلي الشأن ، القاهر الذي لا يغلب ، العظيم الملك والقدرة على كل شيء سواه ، فلا موضع للغرور ، ولا محل لعظمة أمام عظمة الله تعالى.

منع الإكراه على الدين والله هو الهادي إلى الإيمان

﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لا انْفِصامَ لَها وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى

النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٥٧)﴾

الإعراب :

﴿لَا انْفِصامَ لَها﴾ : هذه الجملة في موضع نصب على الحال من ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى﴾ التي هي ﴿لا إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾.

﴿أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ أولياء : مبتدأ ، والطاغوت خبره ، وبما أن خبر المبتدأ يكون على وفق المبتدأ ، فيجب أن يكون الطاغوت جمعا ؛ لأن أولياء جمع ، والطاغوت : تصلح للواحد والجمع. وأصل طاغوت : طغيوت ، إلا أنهم قلبوا الياء التي هي لام إلى موضع العين ، فصار طيغوتا ، ثم قلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فصار طاغوتا.

البلاغة :

﴿اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى﴾ : استعارة تمثيلية ، حيث شبه المتمسك بدين الإسلام بالمتمسك بالحبل المحكم. وعدم الانفصام ترشيح.

﴿مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ استعارة تصريحية ، حيث شبه الكفر بالظلمات ، والإيمان بالنور.

المفردات اللغوية :

﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ لا جبر ولا إلجاء على الدخول في الدين ، والدين هنا : المعتقد والملة بقرينة قوله : ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ﴾ أي ظهر بالآيات البينات الواضحات أن الإيمان رشد ، والكفر غي ، والرشد والرشاد : الهدى وكل خير ، وضده الغي أي الضلال في الاعتقاد أو الرأي. أما الجهل فهو كالغي إلا أنه في الأفعال لا في الاعتقاد.

﴿بِالطَّاغُوتِ﴾ الشيطان أو الأصنام ، مأخوذ من الطغيان : وهو مجاوزة الحد في الشيء. ويجوز تذكيره وتأنيثه وإفراده وجمعه ، ويتحدد المراد بحسب المعنى.

﴿اسْتَمْسَكَ﴾ تمسك ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى﴾ بالعقد المحكم. والعروة : من الدلو والكوز ونحوهما : المقبض الذي يمسك به من يأخذهما. والوثقى : مؤنث الأوثق : وهو الحبل الوثيق المحكم. ويجوز أن يراد بالعروة الوثقى : الشجر الملتف ﴿لَا انْفِصامَ لَها﴾ لا انقطاع لها.

﴿اللهُ وَلِيُّ﴾ الولي : الناصر والمعين ، أي أن الله يتولى أمور المؤمنين بالرعاية والعناية والهداية ﴿مِنَ الظُّلُماتِ﴾ الكفر والضلالات ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الإيمان.

وأفرد النور وجمع الظلمات ؛ لأن الحق واحد لا يتعدد ، وأما أنواع الضلال والكفر فكثيرة ، كما قال ابن كثير.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٥٦):

أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال : نزلت : ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ في رجل من الأنصار من بني سالم يقال له : الحصين (١) ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلما ، فقال للنبي ﷺ : ألا أستكرههما ، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله الآية. وفي رواية : أنه حاول إكراههما ، فاختصموا إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله : أيدخل بعضي النار ، وأنا أنظر؟ فنزلت ، فخلاهما.

وروى أبو داود والنسائي وابن حبان عن ابن عباس قال : كانت المرأة من نساء الأنصار تكون مقلاة (٢) ، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده ، فلما أجليت بنو النضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾.

نزول الآية (٢٥٧):

أخرج ابن جرير الطبري عن عبدة بن أبي لبابة في قوله : ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال : هم الذين كانوا آمنوا بعيسى فلما جاءهم محمد ﷺ آمنوا به وأنزلت فيهم هذه الآية.

---

(١) وفي قول السدي : يقال له أبو الحصين.

(٢) المقلاة : هي المرأة التي لا يعيش لها ولد.

المناسبة :

حددت آية الكرسي ما يتصف به الله عَزَّجَلَّ من تفرد بالألوهية والملك والسلطان في السموات والأرض ، والحياة ، والقيام بأمر الخلائق دون عناء ولا مشقة ، وإحاطة العلم بكل شيء ، فلا يصح بعدئذ أن يكون هناك إكراه على الدخول في الدين ؛ لأن الفطرة ، والمشاهدات الكونية ، والفكر السليم تهدي إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته والاقتناع بالإسلام دينا ومنهج حياة.

التفسير والبيان :

لا تكرهوا أحدا على الدخول في الإسلام ، فإن دلائل صحته لا تحتاج بعدها إلى إكراه ، ولأن الإيمان يقوم على الاقتناع والحجة والبرهان ، فلا يفيد فيه الإلجاء أو القسر أو الإلزام والإكراه ، كقوله تعالى : ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس ١٠ / ٩٩].

وقد بان طريق الحق من الباطل ، وعرف سبيل الرشد والفلاح ، وظهر الغي والضلال ، وأن الإسلام هو منهج الرشد ، وغيره طريق الضلال ، فمن شاء فليؤمن به ومن شاء فليكفر.

وهذه الآية أوضح دليل على بطلان زعم أن الإسلام قام بالسيف ، فلم يكن المسلمون قبل الهجرة قادرين على مجابهة الكفار أو إكراههم ، وبعد أن تقووا في المدينة وعلى مدى القرون الماضية لم يكرهوا أحدا على الإسلام ، كما يفعل أتباع الملل الأخرى كالنصارى ، وقد نزلت هذه الآية في بداية السنة الرابعة من الهجرة ، حيث كان المسلمون أعزاء وأقوياء.

ولم يلجأ المسلمون إلى الحرب أو الجهاد إلا لرد العدوان ، والتمكين من حرية التدين ، ومنع تعسف السلطة الظالمة الحاكمة من استعمال المسلمين حقهم في الدعوة

إلى الله ، ونشر الإسلام في أنحاء الأرض ، بدليل قبول المعاهدات والصلح على دفع الجزية وتخيير العدو بين ذلك وبين الاحتكام إلى القتال.

ومن هداه الله للإسلام ، وشرح صدره ونور بصيرته ، دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره ، بسبب عدم استخدامه وسائل النظر والمعرفة الصحيحة ، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورا.

وبناء عليه ، من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله ، وكفر بعبادة أي مخلوق من الناس أو الجن أو الشيطان أو الكواكب أو الأوثان والأصنام ، وعبد الله وحده وشهد أن لا إله إلا هو ، فقد تمسك بالحق ، وثبت على الهدى ، واستقام على الطريق المستقيم ، وكان مثله مثل الممسك بعروة حبل محكم مأمون الانقطاع ، أي أن الله تعالى شبه من استمسك من الدين بأقوى سبب بمن استمسك بالعروة القوية التي لا تنفصم ، فصارت محكمة مبرمة قوية ، لا يحلّ ربطها القوي الشديد. والعروة الوثقى فسرت بعبارات ترجع إلى معنى واحد : وهي الإيمان ، أو الإسلام ، أو لا إله إلا الله.

والله يرصد بدقة أقوال الناس وأفعالهم وتصوراتهم وأفكارهم ، فهو سميع لقول من يدعي الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، عليم بما يضمره قلبه من تصديق أو تكذيب ؛ لأن الإيمان : ما نطق به اللسان واعتقده القلب ، والله سميع عليم بكل شيء ظاهر وباطن ، يعلم حقائق الأشياء والأقوال والمعتقدات والأفعال. قال القرطبي : ولما كان الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده القلب حسن في الصفات : ﴿سَمِيعٌ﴾ من أجل النطق ، ﴿عَلِيمٌ﴾ من أجل المعتقد.

والله يتولى أمور المؤمنين بالرعاية والعناية والهداية لأرشد الأمور ، وهو يخرجهم بهداية الحواس والعقل والدين من ظلمات الشك والشبهة ، والجهل

والضلالة ، والكفر والانحراف ، إلى نور العلم والمعرفة واليقين والإيمان الصحيح ، كما قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا ، فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٢٠١] قال مجاهد وعبدة بن أبي لبابة : نزلت في قوم آمنوا بعيسى ، فلما جاء محمد ﷺ كفروا به ، فذلك إخراجهم من النور إلى الظلمات [١].

وأما الكافرون بالله ورسوله فلا سلطان على نفوسهم إلا لمعبوداتهم الباطلة التي تقودهم إلى الضلال ، فإن لاح لهم نور الحق والإيمان ، بادر الشيطان وما يلقيه من وساوس إلى إطفاء هذا النور ، وإبقاء الكفار في ظلمات الشك والضلال ، والكفر والعصيان ، أو النفاق والتردد.

وكان جزاؤهم الحق المنتظر هو الخلود في النار والملازمة لها بسبب بعدهم عن الهدى ، وتماديهم في الضلال ، وعدم استنارة قلوبهم بنور الحق.

وبما أن الحق واحد وحّد الله تعالى لفظ النور ، وجمع الظلمات ؛ لأن الكفر أجناس مختلفة كثيرة ، وكلها باطلة ، كما قال : ﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ، فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ١٥٣] وقال تعالى : ﴿وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام ٦ / ١] ونحو ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتشعبه.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآية قاعدة من قواعد الإسلام الكبرى ، وركن عظيم من أركان سياسته ومنهجه ، فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه ، ولا يسمح لأحد أن يكره أحدا من أهله على الخروج منه.

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٢٨٣

وهذا يكون إذا كنا أصحاب قوة ومنعة نحمي بها ديننا وأنفسنا ممن يحاول فتنتنا في ديننا ، ويكون الجهاد ضد السلطة الباغية أمرا اضطراريا لتأمين حرية الدعوة ، وأمن الفتنة ، وتترك قضية التدين أو اعتناق الإسلام في المجال الفردي أو الجماعي أو الشعبي للمجادلة بالتي هي أحسن ، وللإقناع بالحجة والبرهان.

وأما ادعاء كون هذه الآية منسوخة بآية ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ [التوبة ٩ / ٧٣] كما روي عن ابن مسعود ، فهو يتنافى مع كون هذه الآية نزلت في السنة الثالثة أو الرابعة من الهجرة ، بعد تشريع الجهاد والإذن بالقتال ، ويتناقض مع سبب بالنزول كما بينا ، فضلا عن الاختلاف في النسخ على ستة أقوال أوردها القرطبي [١].

فقال الشعبي وقتادة والحسن البصري والضحاك : ليست بمنسوخة ، وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة ، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية ، والذين يكرهون : أهل الأوثان من العرب ، فلا يقبل منهم إلا الإسلام ، فهم الذين نزل فيهم : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ وحجتهم : ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه ، قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمي أيتها العجوز تسلمي ، إن الله بعث محمدا بالحق ، فقالت : أنا عجوز كبيرة والموت إلي قريب! فقال عمر : اللهم اشهد ، وتلا : ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾.

وضعّف ابن العربي القول بنسخ الآية ، وقال : ﴿لا إِكْراهَ﴾ عموم في نفي إكراه الباطل ، فأما الإكراه بحق فإنه من الدين ، ورأى أن قتل الكافر في الحرب قتل على الدين [٢] ، لقوله ﷺ في الحديث المتواتر الذي رواه الأئمة عن أبي هريرة : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله» وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾

---

(١) تفسير القرطبي : ٣ / ٢٨٠

(٢) أحكام القرآن : ١ / ٢٣٣

[البقرة ٢ / ١٩٣] لكن فاته أن المراد بالناس بإجماع العلماء هم مشركو العرب. وهذا راجع لسبب خاص بالعرب ؛ لأنهم حملة رسالة الإسلام ، وبلادهم منطلق الإسلام ، فجاز إكراههم بحق لهذين السببين.

ودلت آية ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ على ظهور أدلة الرشد والإيمان وتميز الدين الحق عن الغي والضلال والجهالة ، وأن الإسلام هو دين الحق ، وأن أنواع الكفر كلها باطلة.

ودلت آية ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على أن من آمن من الناس ، فالله متولي أموره ، يخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، ومن كفر بعد وجود النبي ﷺ ، الداعي المرسل ، فشيطانه مغويه ، كأنه أخرجه من الإيمان ، إذ هو معه. ودلت أيضا على أن الحكم على الكفار بالدخول في النار ، لكفرهم هو عدل منه تعالى ، ولا يسأل عما يفعل.

وهذه الآية بمثابة الدليل على منع الإكراه في الدين ؛ لأن الولاية على العقول والقلوب هي لله تعالى وحده ، والهداية إلى الإيمان تكون بتوفيق الله تعالى من شاء ، وإعداده للنظر في الآيات والخروج من الشبهات ، بما ينقدح لنظره من نور الدليل ، لا بالإجبار والإكراه.

والخلاصة : أن المؤمن لا ولي له ولا سلطان لأحد على اعتقاده إلا الله تعالى ، وتكوين الإيمان يكون باستعمال الهدايات التي وهبها الله للإنسان وهي الحواس والعقل والدين.

أما الكفار فلا سلطان على نفوسهم إلا لتلك المعبودات الباطلة المؤدية إلى الطغيان ، فهي التي تقوده إلى إخلاء قلبه من الإيمان ، والانصراف إلى التمتع بالشهوات الحسية أو المعنوية كالسلطة أو الجاه ، والاسترسال في الفواحش والمنكرات أو الظلم والطغيان. وعرف ابن القيم الطاغوت : بأنه ما تجاوز به

العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، وقال : الطواغيت كثيرة ، ورؤوسهم خمسة : إبليس لعنه الله ، من عبد وهو راض ، من دعا الناس إلى عبادة نفسه ، من ادعى شيئا من علم الغيب ، من حكم بغير ما أنزل الله.

قصة النّمروذ الملك

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾

الإعراب :

﴿رَبِّهِ﴾ الهاء تعود على الذي وهو نمروذ ﴿آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ في موضع نصب لأنه مفعول لأجله ، وتقديره : لأن آتاه الله ، فحذف اللام فاتصل الفعل به. والهاء في ﴿آتاهُ﴾ فيها وجهان : إما أن تكون عائدة على إبراهيم ، أي : أن آتى الله إبراهيم النبوة ، وإما أن تعود على ﴿الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ﴾ وهو نمروذ الذي خاصم إبراهيم لأن آتاه الله الملك. ﴿إِذْ قالَ﴾ إذ : ظرف زمان والعامل فيه ﴿تَرَ﴾. والياء في ﴿رَبِّيَ﴾ يجوز فيها التحريك والإسكان ، فمن حركها شبهها بالكاف في ﴿رَأَيْتَكَ﴾ ، ومن سكّنها استثقل الحركة عليها ، لأن الحركات تستثقل على حرف العلة.

البلاغة :

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام للتعجب ، والرؤية قلبية.

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ عبر بالمضارع لأنه يفيد التجدد والاستمرار. وصيغة ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ تفيد القصر لورود المبتدأ والخبر معرفتين ، أي أنه تعالى وحده هو الذي يحيي ويميت. ويوجد طباق بين يحيي ويميت أو بين المشرق والمغرب.

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ يشعر التعبير بأن العلة وسبب الحيرة هو كفره ، ولو قال : فبهت الكافر لما أدى ذلك المعنى.

المفردات اللغوية :

﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ الاستفهام للتعجب والإنكار ﴿حَاجَ﴾ جادل ﴿أَنْ آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ أي حمله بطره بنعمة الله على ذلك وهو نمروذ.

﴿فَبُهِتَ﴾ تحير ودهش ، وفي الحديث : «إن اليهود قوم بهت» ، ﴿الظَّالِمِينَ﴾ المعرضين عن قبول الهداية بالنظر فيما يؤدي إلى الحق.

المناسبة :

لما ذكر الله تعالى فيما سبق أن الله ولي الذين آمنوا ، وأن الطاغوت ولي الكافرين ، أعقبه بذكر نموذج للإيمان ونموذج للطغيان ، ليبين تلك القضية ويشهد على صدقها وصحتها ، وهو أن إبراهيم وفقه الله للأدلة التي تدحض الشبهات ، وأن الملك عمي عن نور الحق ، فكانت حججه متهافتة ساقطة ، تتردد في ظلمات الشكوك والأوهام ، فصارت هذه القصة مثلا للمؤمن والكافر اللذين تقدم ذكرهما (١).

التفسير والبيان :

ألم تعلم قصة النمروذ الملك الذي تجبر وادعى الربوبية وهو النّمروذ بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح عليه‌السلام ملك زمانه ، وعارض إبراهيم في ربوبية الله (٢).

والذي حمله على المجادلة : هو الملك وما يعقبه من كبر وبطر وغرور ، وهو ملك بابل ، وقيل : إنه ملك زمانه ، ملك الدنيا بأجمعها ، قال مجاهد : وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان وكافران : فالمؤمنان : سليمان بن داود

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٢٨٦

(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٣١٣

وذو القرنين ، والكافران : نمروذ وبختنصّر [١]. فالنمروذ الملك لم يشكر النعمة ، بل أبطرته ، وجعلته يطغى ، مع أن النعمة مدعاة الشكر ، فجعل ما كان سببا في الطاعة سببا في المعصية.

وهو في رأي ابن عباس ومجاهد وجماعة آخرين : صاحب النار والبعوضة ، فهو الذي أضرم النار لإحراق إبراهيم عليه‌السلام ، وكان إهلاكه لما قصد المحاربة مع الله تعالى : بأن فتح الله تعالى عليه بابا من البعوض ، وبعثها على عسكره ، فأكلت لحومهم ، وشربت دماءهم ، ودخلت واحدة منها في دماغه ، فأكلته حتى صارت مثل الفأرة ، فكان أعز الناس عنده بعد ذلك من يضرب دماغه بمطرقة عتيدة لذلك ، فبقي في البلاء أربعين يوما [٢].

وكان قوم الملك يعبدون ملوكهم مع آلهتهم ، فأحب الملك أن يرجع إبراهيم عن نحلته الجديدة المخالفة لنحلة قومه ، وان يعبده وآلهته.

وهذه قصة المجادلة [٣] :

حينما كسّر إبراهيم عليه‌السلام الأصنام التي تعبد من دون الله ، وسفّه عقول عابديها ، سأله نمروذ عن ربه الذي يدعو إلى عبادته ، فأجابه : ربي الذي يحيي ويميت فهو مصدر الحياة وسبب الممات ، أي ينشئ الحياة والموت ، فأنكر الملك الطاغية الذي كان أول من تجبر وقال : أنا أحيي بعض البشر بالعفو عمن حكم عليه بالإعدام ، وأميت البعض الآخر بالقتل وتنفيذ الحكم المقرر عليه ، وأحضر رجلين عفا عن أحدهما ، وقتل الآخر ، وأخذ أربعة نفر فأدخلهم بيتا وتركهم بدون طعام وشراب ، ثم أطعم اثنين فحييا ، وترك اثنين فماتا.

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣١٣

(٢) تفسير القرطبي : ٣ / ٢٨٤

(٣) قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار : ص ٨١

وهـذا أول السـقوط والضـعف في حجـة النمـروذ ، لأن المـراد في قـول إبـراهيم : إنشـاء الحيـاة وتكوينهـا بعـد العـدم ، وإزالـة الحيـاة القائمـة لجميـع الكائنـات الحيـة مـن نبـات وحيـوان وغيرهما ، لا مجرد التسبب في بقاء الحياة ، وإعدامها لفئة من الناس حكم عليهم بالإعدام ، فجواب النمروذ بمعنى أنه يكون سببا في الإحياء والإماتة.

ولما رأى إبراهيم مغالطة الطاغية وتجاهله المقصود من معنى الإحياء والإماتة ، انتقل إلى حجـة أخـرى لا مجـال فيهـا للمكـابرة أو المغالطـة ، فقـال : إن ربي الـذي يمـنح الحيـاة ويسلبها بقدرته وإرادته المطلقة هو الذي يطلع الشمس من المشرق ، فإن كنت تدعي الربوبية ، فغيّر نظام طلوع الشمس وغروبها ، وائت بها من جهة المغرب.

فلـم يجد مـن تـولى كـبره جـوابا ، ودهـش وتحير ، وأعجزتـه الحجـة ، وأفحمـه إبـراهيم ، وغلبه وأسكته ، وقطع حجته ، ولم يمكنه ، أن يقول : آنا الآتي بها من المشرق ، لأن الواقع يكذبه.

والله لا يهدي الظالمين أنفسهم المعرضين عن قبول هداية الله إلى طريق الخير والفلاح أبدا ، بل يطمس الله على قلوبهم وبصائرهم ، ويفضح شأنهم في أحلك أوقات الشدة والأزمة أمام الملأ من الناس. وهذا يدل على أن عدم الهداية ليس للطائعين ، وإنما للظالمين ، والمراد : هداية خاصة ، أو ظالمون مخصوصون [١].

وقد ذكر السّدّي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار ، ولم يكن اجتمع بالملك ، إلا في ذلك اليوم ، فجرت بينهما هذه المناظرة ، وكان ذلك نصرا لخليـل الله إبـراهيم بعـد نصـر ، وهكـذا تتـوالى الانتصـارات لأوليـاء الله وأصـفيائه ، وتتعاقـب الهزائم لأعداء الله ، وتبدو مواقف الخذلان لهم

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٢٨٩

لكل ناظر عاقل متأمل ، كما قال تعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ ، فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

تدل هذه الآية على جواز تسمية الكافر ملكا إذا آتاه الله الملك والعزّ والرّفعة في الدنيا ، وتدل أيضا على جواز أن ينعم الله على الكافرين في الدنيا ، ثم يحرم منها في الآخرة ، ولا يجد إلا النار. وتدل على إثبات المناظرة وصحة المجادلة في الدين وإقامة الحجة ، وفي القرآن والسنة مواقف كثيرة من هذا الجدال ، كما في قصة نوح عليه‌السلام مثلا : ﴿قالُوا : يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا﴾ [هود ١١ / ٣٢ ـ ٣٥] إلى قوله : ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ ، لأن الجدال في الدّين لا يظهر فيه الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق ودحض حجة الباطل. وجادل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أهل الكتاب ، وباهلهم [١] بعد بيان الحجة. وتجادل أصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم يوم السقيفة وتدافعوا وتناظروا حتى صدر الحق في أهله ، ثم تناظروا أيضا بعد مبايعة أبي بكر في أهل الردة ، إلى غير ذلك مما يكثر إيراده.

وفي قول الله عزوجل : ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران ٣ / ٦٦] دليل على أن الاحتجاج بالعلم مباح شائع لمن تدبر.

وأدب المجادلة محدد مرسوم في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل ١٦ / ١٢٥].

---

(١) المباهلة : الملاعنة ، ومعنى المباهلة : أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء ، فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا.

وذكر الأصوليون في ، هذه الآية : أن إبراهيم عليه السلام ، لما وصف ربه تعالى بالإحياء والإماتة ، قصد إلى الحقيقة ، وأما النمرود فلجأ إلى المجاز وموّه على قومه ، فسلّم له إبراهيم تسليم الجدل ، وانتقل معه إلى أمر لا مجاز فيه ، وعارضة بالشمس ، فبهت الذي كفر.

ويستفاد من الآية أيضا أن الله تعالى لا يشبهه شيء من خلقه ، وأن طريق معرفته : ما في الكون من الدلائل القاطعة على توحيده ، لأن أنبياء الله عليهم السلام إنما حاجوا الكفار بمثل ذلك ، ولم يصفوا الله تعالى بصفة توجب التشبيه ، وإنما وصفوه بأفعاله واستدلوا بها وبآثاره عليه.

قصة العزير وحماره

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلى حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾

الإعراب :

﴿أَوْ كَالَّذِي﴾ : الكاف إما زائدة ، وتقديره : أو الذي مر على قرية على عروشها ، وهي خاوية. والذي : في موضع جر ، معطوف على قوله : ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَ﴾ ، وإما للتشبيه ، معطوفا على معنى ما تقدمه من الكلام ، لأن معنى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَ﴾ ، وألم تر كالذي حاج : واحد. ﴿عَلى عُرُوشِها﴾ في موضع نصب ، لأنه بدل من قوله : ﴿عَلى قَرْيَةٍ﴾ ، ويكون

﴿وَهِيَ خاوِيَةٌ﴾ جملة اعتراضية. وفسر قوم : ﴿وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها﴾ أي ساقطة سقوفها ، فلا يكون هناك اعتراض.

﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ : كم : في موضع نصب على الظرفية الزمانية ، وتقديره : كم لبثت يوما.

﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ إما أصله : يتسنّن ، من قوله : ﴿حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ أي متغير ، قلبت النون الثالثة ياء كراهية اجتماع ثلاث نونات ، ثم قلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فصار «يتسنّى» ثم حذفت الألف للجزم ، فصار : يتسن ، وأدخلت عليه هاء السكت ، وإما مأخوذ من «تسنّه وسانهت» تفعل من السنة ، فيكون المعنى : لم يتغير بمرّ السنين ، وأصل سنة : سنهة. ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾ الواو عطف على فعل مقدر ، تقديره : انظر إلى حمارك لتتيقن ما تعجبت منه ، حين قلت : أنى يحيي هذه الله بعد موتها ، ولنجعلك آية للناس.

البلاغة :

﴿بَعْدَ مَوْتِها﴾ أي موت سكان القرية ، مجاز مرسل من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال.

﴿ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً﴾ فيها استعارة الكسوة للحم الذي غطى العظم ، كما يستر الجسد باللباس ، ثم حذف المشبه به وهو الثوب ، وأتى بشيء من لوازمه وهو الكسوة على سبيل الاستعارة المكنية.

المفردات اللغوية :

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ﴾ أي عزير الذي مر على ضيعة هي بيت المقدس ، راكبا ومعه سلة تين وقدح عصير ﴿خاوِيَةٌ﴾ ساقطة ، أو خالية من السكان ، والعروش : السقوف ، لما خربها بختنصر. ﴿أَنَّى يُحْيِي﴾ كيف ، وهو استبعاد منه للإحياء بعد الموت ، والمراد بالإحياء هنا : العمارة بالبناء والسكان ﴿بَعْدَ مَوْتِها﴾ خرابها ﴿فَأَماتَهُ اللهُ﴾ أي جعله فاقدا للحس والحركة والإدراك بدون أن تفارق الروح البدن بتاتا ، كما حدث لأهل الكهف ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أرسله من بعثت الناقة : إذا أطلقتها من مكانها ، وعبر بالبعث دون الإحياء إيذانا بأنه عاد كما كان أولا حيا عاقلا كامل المدارك. ويرى الأطباء أن من الناس من يبقى حيا زمنا طويلا ، لكنه يكون فاقد الحس والشعور ، وهو المسمى لديهم بالسبات : وهو النوم المستغرق ، ومرد كل ذلك إلى قدرة الله بالحفظ مائة سنة أو ثلثمائة سنة أو أكثر أو أقل ، وقال القرطبي : وظاهر هذه الإماتة أنها بإخراج الروح من الجسد. ﴿طَعامِكَ﴾ التين ﴿وَشَرابِكَ﴾ العصير ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير مع طول الزمان ، والهاء إما للسكت من سانيت ، وإما من أصل الكلمة وهي سانهت ﴿وَانْظُرْ إِلى حِمارِكَ﴾ كيف هو ، فرآه ميتا وعظامه باقية ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾ فعلنا ذلك لتعلم ولنجعلك آية على البعث ، أي علامة على قدرة

الله ﴿نُنْشِزُها﴾ نرفعها من الأرض ثم نردها إلى أماكنها من الجسد وقرئ «ننشرها» أي نحييها ﴿ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً﴾ فنظر إليها وقد تركبت وكسيت لحما ، ونفخ في الجسد الروح ، وظهرت عليه علائم الحياة ﴿أَعْلَمُ﴾ علم مشاهدة.

المناسبة :

القصة السابقة لإثبات وجود الله ، وهذه القصّة والتي تليها في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ﴾ لإثبات الحشر والبعث بعد الفناء.

التفسير والبيان :

أرأيت مثل هذا الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، أي ساقطة جدرانها على سقوفها [(١)] ، وهي معطوفة على قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ وهي بمعنى قوله : هل رأيت مثل الذي حاجّ في ربّه. وما هي القرية؟ ومن هو المارّ؟ قيل : إنّه بيت المقدس ، والمارّ : هو عزير بن شرخيا ، وهو القول المشهور ، وقيل : هي دير هرقل على شطّ الدّجلة ، والمارّ : هو أرميا من سبط هارون عليه‌السلام. وقيل : إنه الخضر عليه‌السلام ، وقيل : اسمه حزقيل بن بوار ، وقال مجاهد : هو رجل من بني إسرائيل.

فقال : كيف يعمّر الله هذه القرية بعد خرابها ، والمراد استبعاد عمرانها بالبناء والسّكان ، بعد أن خربت وتفرّق أهلها ، ولكنّه في الوقت نفسه يستعظم قدرة الله تعالى لما رأى شدّة خرابها ، فقوله : اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الأحياء ، واستعظام لقدرة المحيي.

فجعله الله فاقد الحسّ والحركة مائة عام ، مع بقائه حيّا ، ثمّ أطلق فيه

---

(١) قال السّدي : يقول : هي ساقطة على سقفها ، أي سقطت السّقف ، ثم سقطت الحيطان عليها. واختاره الطّبري. وقال غير السّدّي : معناه خاوية من الناس ، والبيوت قائمة ، وخاوية معناها خالية.

الحركة وبعثه بسرعة وسهولة ، كأنّه كان نائما ثم استيقظ ، فوجد القرية قد عمرت بعد سبعين سنة من موته ، وتكامل ساكنوها ، ورجع إليها بنو إسرائيل. فقيل له بواسطة الملك : كم وقتا لبثت؟ وسئل هذا السؤال ليظهر عجزه عن الإحاطة بشؤون الله تعالى. وأكثر المفسّرين على أن ظاهر هذه الإماتة : أنها بإخراج الرّوح من الجسد ، والأظهر أن القائل : هو الله تعالى ، من طريق ملك أو هاتف من السماء يقول له ذلك.

فقال : لبثت يوما أو بعض يوم ، على التّقريب والظنّ والتّخمين ، لأنّه مات أوّل النهار ، ثم بعثه الله في آخر النهار ، فلما رأى الشمس باقية ظنّ أنها شمس ذلك اليوم ، فقوله هذا على ما عنده وفي ظنّه ، فلا يكون كاذبا فيما أخبر به ، ومثله قول أصحاب الكهف : ﴿قالُوا : لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف ١٨ / ١٩] ، وإنّما لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين.

فأجيب : بل لبثت مائة عام ، فانظر لترى دلائل قدرتنا إلى طعامك وشرابك طوال هذه المدّة ، لم يتغيّر ولم يفسد ، مع أنّ العادة جرت بفساد مثله بمضي مدّة قليلة.

وانظر أيضا لترى الدّليل على قدرتنا إلى حمارك كيف نخرت عظامه وتقطّعت أوصاله ، لتتبيّن تطاوّل مرور الزّمان عليه وعليك وأنت راقد أو نائم فعلنا بك ما فعلنا لتعاين ما استبعدته ، ولتتيقّن ما تعجبت منه ، ولنجعلك دليلا على المعاد ، وآية دالّة على تمام قدرتنا على البعث يوم القيامة ، كقوله تعالى : ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٨] ، فقوله : ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ دليل على البعث بعد الموت.

وانظر كيف نرفع عظام حمارك المتناثرة يمينا وشمالا ، فيركب بعضها على بعض ، ونردها إلى أماكنها من الجسد ، ثم نكسوها لحما وعصبا وعروقا وجلدا ،

كما يستر الثوب الجسد ، ثم بعث الله ملكا فنفخ الرّوح في هذا الجسم ، فنهق كله بإذن الله عزّ وجلّ ، وذلك كلّه بمرأى من العزير. فالقادر على هذا الإحياء بعد موت مائة سنة قادر على الإحياء بعد آلاف السنين ، لأن الأفعال الإلهية تشبه بعضها.

فلما تبيّن له هذا كله قال : أنا عالم بهذا ، وقد رأيته عيانا ، وأعلم علما يقينيا أن الله على كل شيء من الأشياء قدير لا يستعصي عليه أمر.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه القصة دليل واضح على إمكان البعث بعد الفناء ، والحشر بعد النشر من القبور ، والدليل الثابت الذي يمكن أن يحتجّ به على البعث في كل زمان ومكان : هو سنته تعالى في تكوين الحيوان وإنشاء لحمه وعظمه ، والإنشاء معناه : التقوية ، والإنشاز معناه : التنمية. وهذه حالة خاصة ، وأما الآية الكبرى العامة وهي كيفية التّكوين الدّالة على قدرة الله على البعث ، فهي قوله تعالى : ﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٢٩] ، وقوله : ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٤].

والرّاجح أن الذي مرّ على القرية كان من الصدّيقين أو الأنبياء ، وقيل : إنه كان من الكافرين ، وهو ضعيف ، لأن الكافر لا يؤيّد بآيات الله. والكلام على الوجه الأوّل الصّحيح مثل لهداية الله تعالى للمؤمنين ، وإخراجهم من الظّلمات إلى النّور ، كما كان شأن إبراهيم مع ذلك الكافر.

والإخبار أو اليمين على الظنّ لا يكون كذبا ، ولا يوجب كفارة اليمين ، وهذا هو المراد عند الحنفية والمالكية والحنابلة (الجمهور) بلغو اليمين الذي عفا الله عنه ، أخذا بقوله تعالى : ﴿قالَ : لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ، وقوله في سورة الكهف : ﴿قالُوا : لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف ١٨ / ١٩] ، ونظيره قول

النّبي ﷺ في قصة ذي اليدين (الخرباق بن عمرو) في حديث متفق عليه عن أبي هريرة : «لم أقصر ولم أنس».

وعلى هذا يجوز أن يقال : إن الأنبياء لا يعصمون عن الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه ، إذا لم يكن عن قصد ، كما لا يعصمون عن السّهو والنسيان.

وجعل عزيز آية للناس : كان في إماتته مدة مائة عام ، ثم إحيائه بعدها.

حبّ الاستطلاع عند إبراهيم عليه‌السلام

﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾

الإعراب :

﴿كَيْفَ تُحْيِ﴾ كيف : في موضع نصب بفعل (يحيي) وهو سؤال عن الحال ، وتقديره : بأي حال تحيي؟ ولا يجوز أن يكون العامل فيه ﴿أَرِنِي﴾ لأن كيف للاستفهام ، والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله.

﴿أَوَلَمْ﴾ دخلت همزة الاستفهام على واو العطف ، ولا يدخل شيء من حروف الاستفهام على حروف العطف إلا الهمزة ؛ لأنها الأصل في حروف الاستفهام.

﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ اللام إما لام «كي» وهي متعلقة بفعل مقدر ، وتقديره : ولكن سألتك ليطمئن قلبي ، أو أرني ليطمئن قلبي ، وإما لام الأمر والدعاء ، كأنه دعا لقلبه بالطمأنينة ، والوجه الأول أوجه.

﴿سَعْياً﴾ مصدر منصوب في موضع الحال ، أي يأتينك ساعيات ، كقولهم : جاء زيد ركضا أي راكضا.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذْ قالَ﴾ واذكر حين قال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى﴾ قال الجمهور : لم يكن إبراهيم عليه‌السلام شاكّا في إحياء الله الموتى قط ، ولا في قدرة الله ، وإنّما طلب المعاينة لكيفية الإحياء ؛ لأن النفوس تحبّ الاطلاع على المجهول ورؤية ما أخبرت به ، ولهذا قال عليه‌السلام : «ليس الخبر كالمعاينة» رواه الطبراني عن أنس.

﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ بقدرتي على الإحياء ، والسؤال والجواب مع علمه تعالى بإيمان إبراهيم لتعليم السامعين. ﴿بَلى﴾ حرف جواب أي آمنت. ﴿وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي سألتك ليسكن قلبي بالمعاينة المضمومة إلى الاستدلال.

﴿فَصُرْهُنَ﴾ أي قطعهنّ ، وقيل : المعنى : أملهنّ إليك أي ضمهنّ واجمعهنّ إليك ، وقوله : ﴿إِلَيْكَ﴾ على تأويل التقطيع ، متعلق بفعل «خذ» أي اجمعهنّ عندك ثم قطّعهن ، واخلط لحمهن وريشهن ، ثم وزّع أجزاءهنّ على مجموعة من الجبال ، ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَ﴾ (نادهنّ) إليك ، ﴿يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾ مسرعات ، طيرانا ومشيّا.

﴿عَزِيزٌ﴾ غالب لا يعجزه شيء. ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه وتدبيره.

التفسير والبيان :

ونفّذ إبراهيم الخطّة ولم يعين الله تعالى الأربعة من أي جنس هي من الطّير ، وقيل عن ابن عباس : أخذ طاووسا ونسرا وغرابا وديكا ، وفعل بهنّ ما ذكر ، وأمسك رؤوسهن عنده ، ودعاهنّ ، فتطايرت الأجزاء إلى بعضها ، حتى تكاملت ، ثم أقبلت إلى رؤوسها.

وقال مجاهد : كانت طاووسا وغرابا وحمامة وديكا [١] ، فذبحهنّ ، ثمّ فعل بهنّ ما فعل ، ثمّ دعاهنّ ، فأتين مسرعات ، وهكذا يحيي الله الموتى بمجرد الأمر الإلهي : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس ٣٦ / ٨٢] ، ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قالَتا : أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ [فصلت ٤١ / ١١].

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٢٩٩

وخلاصة القصّة : كان إبراهيم عليه السلام محبّا للاستطلاع ، فلما أوحى الله تعالى إليه أنه سيحيي الموتى ويحشرهم يوم القيامة ، ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، فأحبّ أن يرى ميتا عاد حيّا ، فسأل الله ذلك ، ليطمئن قلبه ، فأمره الله تعالى أن يأخذ أربعة طيور ، فيذبحها ، ويفرّق أجزاءها على الجبال ، ثم يدعوها إليه ، وحينئذ يرى كيف يعود الميت حيّا ، ففعل ودعا الطيور إليه ، فجاءت صحيحة ، كأنها لم تمت أصلا.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه القصة دليل آخر على إثبات قدرة الله على إحياء الموتى ، مهما تلاشت أجزاؤها ، وتفتت ذراتها ، وتطاول الزمان على موتها. ولم يكن إبراهيم عليه السلام شاكّا في القدرة الإلهية على ذلك ، وإنما ليثبت الاعتقاد بالتجربة الحسيّة أو الخبر والمعاينة ، وهذا يشير إلى أهمية العلم التجريبي ، والاختبارات العملية ، لمعرفة كيفية تركيب الأشياء.

ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشّك ، فإنه كفر ، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث ، وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل ، فقال : ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ [الإسراء ١٧ / ٦٥] ، وقال الشيطان : إلا عبادك منهم المخلصين ، وإذا لم يكن له عليهم سلطنة ، فكيف يشككهم؟!

وإنما سأل إبراهيم عليه السلام أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها ، وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها ، فأراد أن يترقى من علم اليقين إلى علم اليقين ، فقوله : ﴿أَرِنِي كَيْفَ﴾ طلب مشاهدة الكيفية ، وليس اختبار القدرة الإلهية على الإحياء أو الإنشاء.

ثم إنه طلب طمأنينة القلب : وهي أن يسكن فكره في الشيء المعتقد ،

ليتبيّن الفرق بين المعلوم برهانا والمعلوم عيانا.

ولقد ذهبت كلمة إبراهيم مثلا بين الناس عند التصديق بالشيء ، وطلب التأكّد من حصول الفعل ، فيطلب الشخص من غيره ما يؤكد الوعد أو القول أو الفعل قائلا : ﴿وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ مع توافر الثقة والائتمان.

وطلب إبراهيم وجيه ، وبخاصة في عصرنا ، حيث كثرت الشكوك ، وسخر بعض الناس من احتمال بعث الأجساد والأرواح التي مات أصحابها في البرّ والبحر والجوّ ، على مدى مرور آلاف السنين ، وكثرة ملايين البشر من بدء الخليقة إلى يوم القيامة ، فكان هذا الطلب في محله ليخرس الألسنة ، ويطمئن الأفئدة ، ويزيل الشكوك في المعتقدات.

وهو أيضا مثال ثالث لولاية الله تعالى للمؤمنين ، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور ، وهو كالذي قبله من آيات البعث. وكان المثال الأول : وهو محاجّة من آتاه الله الملك لإبراهيم ، للدّلالة على وجود الله ، والمثال الثاني : إماتة العزير مائة عام ، والمثال الثالث : إماتة أربعة من الطيور. والحكمة في ذكر مثال واحد في إثبات الرّبوبيّة ومثالين في إثبات البعث أن منكري البعث أكثر من منكري الألوهيّة.

وأرشد قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ إلى ما ينبغي للإنسان أن يقف عنده ، فلا يتعداه إلى ما ليس من شأنه. وفي هذا الإرشاد لخليل الرحمن تأديب للمؤمنين كافة ، ومنع لهم عن التّفكر في كيفية التّكوين ، وشغل نفوسهم بما استأثر الله تعالى به ، فلا يليق بهم البحث عنه.

والحكمة في اختيار الطير على غيره : أن الطّير أقرب إلى الإنسان ، وأجمع لخواص الحيوان ، ولسهولة إجراء التجربة عليها ، ولأن الطير أكثر نفورا من الإنسان في الغالب ، فإتيانها بمجرد الدعوة أبلغ في المثل.

وأما كون الطيور أربعة فيفوّض فيه أمره إلى الله تعالى ؛ لأن العدد تعبدي غالبا ، وقيل : إنه الموافق لعدد الطبائع أو لعدد الرياح ، وهو ليس بشيء ، كما جاء في تفسير المنار.

ثواب الإنفاق في سبيل الله وآدابه

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (٢٦٤)﴾

الإعراب :

﴿أَنْبَتَتْ﴾ جملة فعلية في موضع جر صفة «لحبة». ﴿فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ﴾ قول : مبتدأ ، ومغفرة : معطوف عليه ، وخير : خبر.

﴿يَتْبَعُها أذىً﴾ جملة فعلية في موضع جر صفة ﴿صَدَقَةٍ﴾.

﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ﴾ الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف وتقديره : إبطالا كالذي.

﴿رِئاءَ النَّاسِ﴾ منصوب : إما لأنه مفعول لأجله ، أو لأنه حال ، أو صفة لمصدر محذوف تقديره ، إنفاقا.

﴿كَمَثَلِ﴾ في موضع رفع لأنه خبر المبتدأ وهو : مثله. وصفوان : إما مفرد أو اسم جنس واحده صفوانة ، مثل درّ ودرّة. وقال ﴿عَلَيْهِ﴾ بالتذكير ؛ لأن اسم الجنس مذكر.

﴿عَلَيْهِ تُرابٌ﴾ جملة اسمية في موضع جر لأنها صفة لصفوان.

البلاغة :

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ تشبيه مرسل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه ، شبه تعالى الصدقة التي تنفق في سبيله بحبة زرعت وباركها الله ، فأصبحت سبعمائة حبّة.

﴿أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ﴾ مجاز عقلي ؛ إذا أسند الإنبات إلى الحبة ، مع أن المنبت هو الله تعالى.

﴿مَنًّا وَلا أَذىً﴾ ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول ؛ لأن الأذى أعمّ من المنّ.

﴿كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ﴾ فيه تشبيه تمثيلي ؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

المفردات اللغوية :

﴿مَثَلُ﴾ صفة نفقات المنفقين في سبيل الله. ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ ما يؤدي إلى مرضاته تعالى. ﴿حَبَّةٍ﴾ واحدة الحبّ الذي يزرع. ﴿واسِعٌ﴾ فضله. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحقّ مضاعفة الثواب.

﴿مَنًّا﴾ المنّ : أن يذكر المحسن إحسانه على المنفق عليه ، ويظهر تفضله عليه ، فيقول : قد أحسنت إليه وجبرت حاله. ﴿أَذىً﴾ الأذى : التّطاول والتّفاخر بالإنفاق ، وذكره إلى من لا يحبّ اطّلاعه عليه ، أو التّبرّم منه.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثواب إنفاقهم. ﴿يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة. ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ كلام حسن وردّ جميل على السائل. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ ستر وتجاوز لإلحاحه في السؤال وغيره.

﴿خَيْرٌ﴾ أنفع وأكثر فائدة. ﴿غَنِيٌّ﴾ عن صدقة العباد. ﴿حَلِيمٌ﴾ بتأخير العقوبة عن المانّ والمؤذي. ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ﴾ أي أجورها كإبطال نفقة المرائي للناس.

﴿رِئاءَ النَّاسِ﴾ مراءة لهم وسمعة ، أي يفعل الخير مباهاة أو لأجل أن يروه فيحمدوه.

﴿صَفْوانٍ﴾ حجر أملس. ﴿وابِلٌ﴾ مطر شديد. ﴿صَلْداً﴾ صلبا أملس ليس عليه تراب أو غبار. ﴿لا يَقْدِرُونَ﴾ استئناف كلام لبيان مثل المنافق المنفق رئاء الناس. وجمع الضمير باعتبار معنى الذي ، والمراد لا يجدون ولا يملكون شيئا. ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ عملوا ، أي لا يجدون له ثوابا في الآخرة ، كما لا يوجد على الصفوان شيء من التراب الذي كان عليه ، لإذهاب المطر له.

سبب النزول :

قال الكلبي : نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ، أما عبد الرحمن بن عوف فإنه جاء إلى النّبي ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة ، فقال : كان عندي ثمانية آلاف درهم ، فأمسكت منها لنفسي ولعيالي أربعة آلاف درهم ، وأربعة آلاف أقرضتها ربي ، فقال له رسول الله ﷺ : «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت».

وأما عثمان رضي الله عنه ، فقال : عليّ جهاز من لا جهاز له في غزوة تبوك ، فجهّز المسلمين بألف بعير بأقتابها وأحلاسها ، وتصدّق برومة ركية كانت له على المسلمين [١] ، فنزلت فيهما هذه الآية.

وقال أبو سعيد الخدري : رأيت رسول الله ﷺ رافعا يده يدعو لعثمان ، ويقول : «يا ربّ ، إن عثمان بن عفان رضيت عنه ، فارض عنه» فما زال رافعا يده حتى طلع الفجر ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ الآية [٢].

---

(١) وفي رواية : ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألف دينار ، فصار رسول الله ﷺ يقلّبها ويقول : «ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم».

(٢) أسباب النزول للنيسابوري : ص ٤٧ ـ ٤٨ ، تفسير القرطبي : ٣ / ٣٠٣

المناسبة :

أثبتت الآيات السابقة أمر البعث ، وأن الناس يبعثون إلى دار يوفون فيها أجورهم بغير حساب ، وذكر هنا فضيلة الإنفاق في سبيل الله ، وسبل الله كثيرة ، مثل نشر العلم ومحاولة القضاء على الجهل والفقر والمرض ، وأعظمها الجهاد لتكون كلمة الله (أي دين الإسلام) هي العليا ، فمن جاهد بعد هذا البرهان على البعث الذي لا يأتي به إلا نبيّ ، فله في جهاده الثواب العظيم.

وقد رغّب القرآن الكريم في مواضع عديدة بالإنفاق ؛ لأنه وسيلة إغناء وتحقيق رفاه للجميع ، وواسطة متعيّنة لصون عزّة الأمة وكرامتها ودحر عدوان المعتدين عليها ، فما بخلت أمة بمالها إلا حاق بها الذّل والاستعباد ، وتكالبت عليها الأمم ، روى البستي في صحيح مسنده عن ابن عمر قال : لما نزلت هذه الآية ، قال رسول الله ﷺ : «ربّ زد أمتي» فنزلت : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ، فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾ قال رسول الله ﷺ : «ربّ زد أمتي» فنزلت : ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾.

التفسير والبيان :

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، فأبان تعالى أن صفة نفقات المنفقين أموالهم في طاعة الله تعالى وابتغاء رضوانه وحسن مثوبته كنشر العلم والجهاد وإعداد السلاح والحج والدفاع عن الوطن والأهل ، كصفة حبة زرعت في أرض خصبة ، فأنبتت سبع سنابل ، في كلّ سنبلة مائة حبة ، وقد ثبت لدى متخصصي الزراعة أن الحبة الواحدة من قمح أو أرز أو ذرة مثلا لا تنبت سنبلة واحدة ، بل أكثر ، قد تصل إلى أربعين أو ست وخمسين أو سبعين ، وأن السنبلة قد تشتمل على أكثر من مائة حبة ، وقد أنبتت فعلا مائة

وسبع حبات. وهذا تصوير لمضاعفة ثواب المنفق.

﴿وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ أي بحسب إخلاصه في عمله ، فيزيده أكثر من ذلك ، والله تعالى لا ينحصر فضله ، ولا يحدّ عطاؤه ، ففضله واسع كثير ، أكثر من خلقه ، عليم بمن يستحق هذه المضاعفة ممن لا يستحقها.

وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة ؛ لأن التحديد والتعداد يظل فيه قصور ، وأما عدم التحديد بحدّ فيشير إلى احتمال النمو والبركة والزيادة. وفيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عَزَّجَلَّ لأصحابها ، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة ، وقد وردت السّنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف.

روى ابن ماجه وابن أبي حاتم الحديث الأول عن علي وأبي الدّرداء ، والثاني عن عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ قال : «من أرسل بنفقة في سبيل الله ، وأقام في بيته ، فله بكل درهم سبعمائة درهم يوم القيامة ، ومن غزا في سبيل الله ، وأنفق في جهة ذلك ، فله بكل درهم سبعمائة درهم» ، ثم تلا هذه الآية : ﴿وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ﴾.

وروى الإمام أحمد عن أبي عبيدة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أنفق نفقة في سبيل الله ، فسبع مائة ، ومن أنفق على نفسه وأهله ، أو عاد مريضا أو ماز أذى ، فالحسنة بعشر أمثالها ، والصوم جنّة ما لم يخرقها ، ومن ابتلاه الله عَزَّجَلَّ ببلاء في جسده ، فهو له حطة» وروى النسائي بعضه في الصوم.

ومن شروط الإنفاق وآدابه لاستحقاق هذا الثواب في الآخرة : ألا يتبعوا ما أنفقوا أو بذلوا منّا على الفقير بأن يحاسبه على ما أعطاه ويظهر تفضّله عليه ، ولا أذى أو ضررا بأن يتطاول عليه ويطلب جزاء عمله. فهؤلاء الباذلون الذين

لا يمتنون ولا يؤذون من أحسنوا إليهم لهم ثواب كامل لا يقدر قدره ، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس ، ولا هم يحزنون حين يحزن الناس البخلاء الذين لا ينفقون شيئا في سبيل الله ، فيندمون ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، فَيَقُولَ : رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، فَأَصَّدَّقَ ، وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون ٦٣ / ١٠].

والكلام الحسن ، والرّد الجميل على السائل وعدم الصدقة ، وستر ما يقع منه من إلحاف في السؤال وغيره ، خير للسائل والمسؤول من صدقة يتبعها أذى وضرر ؛ إذ الصدقة شرعت للأخذ بيد الضعيف ، وتخفيف حدّة الحسد والحقد على الأغنياء ، ولتحصين مال الغني من السرقة والنهب والضياع ؛ والمنّ والأذى يخرجها عن هذه الغاية السامية التي شرعت لها ، والله غني عن صدقة عباده ، فيستطيع أن يرزق الجميع ، حليم لا يعجل بعقوبة المسيء ، كمن يمنّ أو يؤذي ، ولكنها الحكمة البالغة التي مدارها الابتلاء والاختبار ، ومعرفة من يجاهد نفسه الشحيحة ، فيحملها على البذل وتنفيذ التكاليف الإلهية عن رضا وطيب خاطر ، وقد شرع الله الصدقة سبيلا لكسب المودّة ، وجلب المحبّة ، وتأكيد الصلة والتعاطف والتعاون بين الجميع.

ومن أجل استئصال طبيعة المنّ والأذى في نفوس الناس ، أكّد سبحانه ما أخبر به من صفات المستحقين للثواب العظيم وهو عدم إتباع صدقاتهم بالمنّ والأذى ، وأن الأذى من شوائب الصدقة المكروه الذي يسقط الأجر والثواب ، أكّد ذلك بخطاب المؤمنين بصفة الإيمان التي تدعو إلى التقيّد بالأمر الإلهي ، فنهاهم وحرم عليهم المنّ والأذى ؛ لأن صفاء الصدقة وجعلها خالصة لله أدعى لقبولها واستحقاق ثوابها.

ولأن من يتبع صدقته بمنّ أو أذى يشبه حال من ينفق ماله رياء وسمعة ، لأجل أن يحمده الناس ، وليقال عنه : إنه كريم جواد ، ونحو ذلك من مقاصد

الدّنيا الفانية ، لا لابتغاء رضوان الله ، وترقية شؤون الأمة ، وهذا المرائي في الواقع لا يؤمن بالله واليوم الآخر إيمانا صحيحا ، حتى يرجو ثوابا أو يخشى عقابا ، ومثله الذي يمنّ ويؤذي السائل.

وصفة عمل كل من المرائي والذي يمنّ ويؤذي كصفة تراب على حجر أملس ، نزل عليه مطر شديد ، فأزال التراب وترك الحجر أملس لا شيء عليه ، أي أنه لا ثمرة ولا بقاء لعمله ، وإنما يضمحل ويتبدد بالظواهر الطارئة ، ويبقى فارغا لا أثر لعمله ، ولا ينتفع بشيء مما فعل لا في الدّنيا ولا في الآخرة ، أما في الدّنيا فلأنّ المنّان بغيض إلى الناس ، والمرائي مذموم منبوذ لدى المجتمع ، وأما في الآخرة فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا له وابتغي به وجهه ، والرّياء ومثله المنّ والأذى ينافي الإخلاص ، وهو نوع من الشرك بالله إذ هو الشرك الخفي ؛ فإن صاحبه يقصد به غير الله.

والله لا يهدي القوم الكافرين لما فيه خيرهم ورشادهم ما داموا على الكفر ، أو لا يهديهم في أعمالهم وهم على الكفر (١) ، وأما الإيمان فهو الذي يهدي صاحبه إلى الإخلاص والخير وابتغاء وجه الله ، والتأدّب بالإنفاق بما أدّب الله به أهل الإيمان. وهذا يشير إلى أنّ كلّا من الرياء والمنّ من صفات الكافرين لا من صفات المؤمنين.

فقه الحياة أو الأحكام :

١ ـ تضمنت الآية بيان مثال لشرف النفقة في سبيل الله ، والتحريض والحثّ على الإنفاق في سبيل الله ، إما عن طريق حذف مضاف تقديره : مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة ، وإما بطريق آخر : مثل الذين

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٣١٠

ينفقون أموالهم كمثل زارع زرع في الأرض حبة ، فأنبتت الحبة سبع سنابل ، فشبه المتصدّق بالزارع ، وشبّه الصدقة بالبذر ، فيعطيه الله بكل صدقة له سبعمائة حسنة.

٢ ـ وهي تشمل الإنفاق المندوب إليه ، والواجب أيضا ؛ لأن سبل الله كثيرة ، ولا حاجة للقول : بأنها نزلت قبل آية الزكاة ، ثم نسخت بآية الزكاة ؛ لأن الإنفاق في سبيل الله مندوب إليه في كلّ وقت.

٣ ـ وقد ورد القرآن بأن الحسنة في جميع أعمال البر بعشر أمثالها ، واقتضت هذه الآية أن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف ، ثم دلّ قوله تعالى : ﴿وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ على أنه تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمائة ضعف ، بدليل حديث ابن عمر المتقدم في مناسبة الآية.

٤ ـ وفي هذه الآية دليل على أن اتّخاذ الزرع من أعلى الحرف التي يتّخذها الناس ، والمكاسب التي يشتغل بها العمال ، ولذلك ضرب الله به المثل ، فقال : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ﴾. وفي صحيح مسلم عن النّبي ﷺ : «ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير ، أو إنسان ، أو بهيمة ، إلا كان له صدقة» ، وأخرج الترمذي عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «التمسوا الرزق في خبايا الأرض» يعني الزرع. والزراعة من فروض الكفاية ، فيجب على الإمام أن يجبر الناس عليها ، وغرس الأشجار في معناها.

٥ ـ الإنفاق في سبيل الله دون منّ ولا أذى سبب لرضوان الله ، كما رضي الله ورسوله عن عثمان الذي جهز جيش العسرة ، وجاء بألف دينار ووضعها بين يدي رسول الله ﷺ ، فقال : «ما ضرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم ، اللهم لا تنس هذا اليوم لعثمان».

وهذا الرضا الإلهي والثواب العظيم إنما هو لمن لا يتبع إنفاقه منّا ولا أذى ؛

لأن المنّ والأذى مبطلان لثواب الصدقة ، كما أخبر تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى ..﴾ وإنما على المرء أن يريد وجه الله تعالى وثوابه بإنفاقه على المنفق عليه ، ولا يرجو منه شيئا ، قال تعالى : ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ، لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً﴾ [الإنسان ٧٦ / ٩]. ومن طلب بعطائه الجزاء والشكر والثناء ، كان صاحب سمعة ورياء. قال ابن عباس : في قوله تعالى : ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر ٧٤ / ٦] ، أي لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها.

٦ ـ المنّ من الكبائر ، والمنّ : ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها ، مثل أن يقول : قد أحسنت إليك ، ونعشتك ونحوه ، وقال بعضهم : المنّ : التحدّث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه. ودليل كونه من الكبائر : ما ثبت في صحيح مسلم وغيره ، وأنه أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم. وروى النسائي عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجّلة تتشبه بالرجال ، والدّيوث. وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاقّ لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمنّان بما أعطى»[1].

والأذى : السب والتشكي ، وهو أعم من المنّ ؛ لأن المنّ جزء من الأذى ، لكنه نص عليه لكثرة وقوعه.

والمن والأذى هادم للفائدة المقصودة من الصدقة ومبطل لها : وهو تخفيف بؤس المحتاجين ودفع غائلة الفقر عنهم.

٧ ـ جعل الله تعالى ثواب النفقة في سبيله أمورا ثلاثة : ضمن الله له الأجر ،

---

(١) وروى القسم الأخير أيضا ابن مردويه وابن حبان والحاكم في مستدركه.

والأجر الجنة ، ونفى عنه الخوف بعد موته في المستقبل ، وأذهب عنه الحزن أو الألم على ما سلف في الدنيا ؛ لأنه يغتبط بآخرته ، فقال : ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وفيها دلالة لمن فضّل الغنى على الفقر.

٨ ـ القول المعروف خير من صدقة الأذى ، والقول المعروف : هو الدعاء والتأنيس والترجية بما عند الله. وهذا فيه أجر ، ولا أجر فيها ، قال ﷺ فيما أخرجه مسلم : «الكلمة الطيبة صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق» أي يتلقى السائل بالبشر والترحيب ، ويقابله بالطلاقة والتقريب ، ليكون مشكورا إن أعطى ، ومعذورا إن منع ، وهو نظير قوله تعالى : ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها ، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ٢٨].

وأيضا الفعل المؤدي إلى المغفرة خير من صدقة يتبعها أذى. والمغفرة : ستر سوء حالة المحتاج ، أو التجاوز عن السائل إذا ألحّ وأغلظ وجفا.

ودلت آية ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ على مبدأ مهم عام في الشريعة وهو «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح».

٩ ـ لا تقبل الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمنّ أو يؤذي بها ، وعبر الله تعالى عن عدم القبول وحرمان الثواب بالإبطال. والمراد إبطال الصدقة المصحوبة بالمن أو الأذى ، لا غيرها ، فالمن والأذى في صدقة لا يبطل صدقة غيرها ، وإنما يقتصر الأمر على حرمان المرائي والمنان من الانتفاع بصدقته المشتملة على الرياء أو المن.

ودل قوله تعالى : ﴿وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ على تسلية الفقراء ، وتعليق قلوبهم بحبل الرجاء بالله الغني الحليم ، وتهديد الأغنياء وإنذارهم بأن لا يغتروا بحلم الله وإمهاله إياهم.

١٠ ـ كره الإمام مالك لهذه الآية : ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾ أن يعطي الرجل صدقته الواجبة أقاربه ، لئلا يعتاض منهم الحمد والثناء ، ويظهر منّته عليهم ، ويكافئوه عليها ، فلا تخلص

لوجه الله تعالى. واستحب أن يعطيها الأجانب ، وأن يولّي غيره تفريقها إذا لم يكن الإمام عدلا ، لئلا تحبط بالمن والأذى والشكر والثناء والمكافأة بالخدمة من المعطى.

وهذا بخلاف صدقة التطوع السرّية ؛ لأن ثوابها إذا حبط سلم من الوعيد ، وصار في حكم من لم يفعل ، والواجب إذا حبط ثوابه توجه الوعيد عليه ، لكونه في حكم من لم يفعل.

١١ ـ صاحب المن والأذى مثل المرائي المنافق ، عمل كل منهما باطل لا فائدة فيه ، ولا فضل له ، ولا دوام لأثره. وإنما ينمحي بسرعة ، كما تعصف الرياح بالغبار الموجود على الحجارة أو الصخور الصلبة الملساء ، وتعد أفعال المرائي الواجبة أو الخيرية من صلاة وصيام وتطوع كلها باطلة ، لا تجاه قلبه إلى من يرائيه ، لا إلى الله الصمد الذي يستحق العبادة دون سواه.

ويوصف كل من المرائي والمنّان أيضا بأنه لا يؤمن حقا بالله ولا باليوم الآخر ؛ لأن قصده من فعله مدح الناس له ، أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكره الناس أو ليقال : إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية.

ولا يقدر المرائي الكافر والمانّ على الانتفاع بثواب شيء من إنفاقهم وهو كسبهم ، عند حاجتهم إليه ؛ إذ كان لغير الله ، فعبّر عن النفقة بالكسب ؛ لأنهم قصدوا بها الكسب. وفي قوله تعالى : ﴿لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ تعريض بأن كلا من الرياء والمن والأذى من صفات الكافرين ، لا المؤمنين ، فلا ينبغي للمؤمنين الاتصاف بها ، وعليهم تجنبها ؛ لأن الإخلاص لله هو من صفات الإيمان ، قال تعالى : ﴿وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة ٩٨ / ٥].

الإنفاق لمرضاة الله والإنفاق لغير وجه الله

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)﴾

الإعراب :

﴿ابْتِغاءَ﴾ و ﴿وَتَثْبِيتاً﴾ منصوبان على المفعول لأجله. ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ الكاف في موضع رفع خبر مبتدأ وهو قوله : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ﴾. ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ جار ومجرور في موضع جر صفة لجنة ﴿أَصابَها وابِلٌ﴾ جملة فعلية في موضع جر صفة لجنة أو لربوة. ﴿مِنْ نَخِيلٍ﴾ جار ومجرور في موضع رفع وصف لجنة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ إما مرفوع وصف ثان للجنة ، وإما منصوب على الحال من ﴿جَنَّةٌ﴾ لأنها قد وصفت. ﴿لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ في موضع نصب على الحال من ﴿أَحَدُكُمْ﴾. و ﴿وَأَصابَهُ الْكِبَرُ﴾ عطف على قوله : ﴿فِيها﴾. وقال الزمخشري : الواو للحال ، لا للعطف ، ومعناه : أن تكون له جنة ، وقد أصابه الكبر.

البلاغة :

﴿لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ ذكر العام بعد الخاص وهو النخيل والعنب ؛ لأنهما أكرم الشجر وأكثرهما منافع فخصهما بالذكر تغليبا لهما على غيرهما ، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات. ويجوز أن يريد بالثمرات : المنافع التي كانت تحصل له فيها.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ استعارة تمثيلية ، وهي تشبيه حال بحال ، لم يذكر المشبه

ولا أداة التشبيه ، وإنما ذكر المشبه به فقط ، ودلت القرائن على إرادة التشبيه. وهمزة ﴿أَيَوَدُّ﴾ للاستفهام الإنكاري أي ما يود أحد ذلك.

المفردات اللغوية :

﴿وَمَثَلُ﴾ صفة نفقات المنفقين ﴿ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ﴾ أي طلبا لرضوانه ﴿وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ تحقيقا للثواب أو تصديقا ويقينا بثواب الإنفاق من عند أنفسهم ، ومن : ابتدائية ، أي مبتدأ من أنفسهم ، أو تمكين أنفسهم في مرتبة الإيمان والإحسان ، بخلاف المنافقين المترددين في إيمانهم ولا يرجون الثواب ، وقال ابن كثير : أي وهم متحققون ومتثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ، ونظير هذا الحديث المتفق على صحته : «من صام رمضان إيمانا واحتسابا» أي يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ بستان ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ مكان مرتفع من الأرض ﴿وابِلٌ﴾ مطر غزير ﴿فَآتَتْ﴾ أعطت ﴿أُكُلَها﴾ ثمرها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مثلي ما يثمر غيرها ﴿فَطَلٌّ﴾ مطر خفيف يصيبها ويكفيها لارتفاعها ، والمعنى : تثمر وتزكو ، كثر المطر أم قل ، فكذلك نفقات من ذكر ، تزكو عند الله ، كثرت أم قلت ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم به.

﴿أَيَوَدُّ﴾ أيحب ، والهمزة للاستفهام الإنكاري والنفي ، أي ما يود أحد ذلك.

﴿وَأَعْنابٍ﴾ ثمر الكرم ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ﴾ أولاد صغار لا يقدرون على شيء.

﴿إِعْصارٌ﴾ ريح شديدة ، تستدير في الأرض بشدة ، ثم ترتفع إلى الجو حاملة الغبار ، كهيئة العمود وهي الزوبعة ﴿نارٌ﴾ سموم شديدة ، المراد : ريح فيها برد شديد وسموم يحرق الشجر (١) ﴿كَذلِكَ﴾ كما بين ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتعتبروا. وهذا تمثيل لنفقة المرائي والمانّ ، في ذهابها وعدم نفعها ، مع أن أحوج ما يكون لثوابها في الآخرة.

التفسير والبيان :

صفة نفقات المنفقين أموالهم طلبا لرضوان الله ومغفرته ، وهم متحققون ومتثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ، أو تثبيتا لأنفسهم على الإيمان

---

(١) قال الحسن البصري : الإعصار : ريح فيها برد شديد. وقال ابن عباس : ريح فيها سموم شديدة ، وكذا قال السدي : الإعصار : الريح والنار السموم ، قال ابن عطية : ويكون ذلك في شدة الحر ، ويكون في شدة البرد ، وكل ذلك من فيح جهنم ونفسها.

واليقين [١] بترويض أنفسهم على إنفاق المال الذي هو شقيق الروح ، وبذل أشق شيء على النفس من سائر العبادات ومن الإيمان ، صفة نفقاتهم الكثيرة والقليلة كبستان جيد التربة ، ملتف الشجر ، خصب النبات ، وهو بمكان مرتفع متمتع بالشمس والهواء ، ينزل عليه المطر الغزير ، فيثمر ضعفي غلته ، وإذا نزل عليه مطر خفيف أثمر أيضا لجودة تربته وكرم منبته ، وحسن موقعه.

وإنما وصف البستان بكونه في ربوة : مكان مرتفع ، فلأن الشجر في الربوة أزكى وأحسن ثمرا. وإنما قال من أنفسهم أي مبتدأ منها دون عامل خارجي ليدل على أن إنفاقه نابع من ذاته ويقينه ، وقناعته بجدوى فعله ، ومجاهدته بخل النفس ، كما قال تعالى : ﴿وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنفال ٨ / ٧٢].

والمعنى في هذا التشبيه : أن المنفق لله وفي سبيله ويقصد تثبيت نفسه على بذل المال وفعل الخير أو التأكد من نيل الثواب يجود بقدر سعته ، فإن أصابه خير كثير أنفق كثيرا ، وإن أصابه قليل أنفق بقدر طاقته ، فخيره دائم وبره لا ينقطع ، فهو محسن في كلا الحالين ، ويجد ثمرة بذله على كل حال ، فهو كالأرض الجيدة التربة الخصبة النبات تثمر مطلقا وتغل الخير ، ونتاجها وفير دائما ، سواء أصابها مطر كثير أو قليل.

---

(١) قال ابن عباس : معناه : تصديقا ويقينا ، وقال قتادة : معناه : احتسابا من أنفسهم ، وقال الشعبي والسدي وغيرهما : معناه : وتيقنا ، أي أن نفوسهم لها بصائر ، فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تعالى تثبيتا. قال القرطبي : وهذه الأقوال الثلاث أصوب من قول غيرهم. والخلاصة : أن لهذه الكلمة معنيين : إما التيقن من ثواب الله ، وإما تثبيت النفس على الإيمان ومجاهدتها من أجل البذل في سبيل الله ، أي تزكية النفس وتطهيرها من مرض البخل وحب المال ، والمعنى الثاني أولى ؛ لأنه قال : من أنفسهم ، ولم يقل : لأنفسهم ، قال أبو حيان : (في البحر المحيط : ٢ / ٣١١) معناه أن من بذل ماله لوجه الله ، فقد ثبت بعض نفسه ، ومن بذل ماله وروحه معا فهو الذي ثبتها كلها.

والله لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده ، ويجازي كلا من المخلص والمرائي بما يستحق.

هذا هو المثال الأول لمن ينفق ماله ابتغاء وجه الرحمن وطلب رضوانه ، والمثال الثاني لمن ينفق على عكس الأول في سبيل الشيطان والهوى أو لغير وجه الله. وبدأه تعالى بالإنكار والنفي ؛ لأن شأن المؤمن المخلص ألا يقصد ذلك ، فهو مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة لا يبتغي وجه الله ، فإذا كان يوم القيامة ، وجدها محبطة مبددة متلاشية ، فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من أبهى الجنات وأجمعها للثمار ، فبلغ الكبر ، وله أولاد ضعاف ، والجنة معاشهم ومنتعشهم ، فهلكت بالصاعقة.

قال البخاري عند تفسير هذه الآية : قال عمر بن الخطاب يوما لأصحاب النبي ﷺ : فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ : ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ...﴾ قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر وقال : قولوا : نعلم أو لا نعلم ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يا ابن أخي ، قل ، ولا تحقر نفسك ، فقال : ضربت مثلا بعمل ، قال عمر : أي عمل؟ قال : لرجل غني يعمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان ، فعمل بالمعاصي ، حتى أغرق أعماله[١].

وقال الحسن البصري : هذا مثل ، قلّ والله من يعقله من الناس : شيخ كبير ، ضعف جسمه ، وكثر صبيانه ، أفقر ما كان إلى جنته ، فجاءها الإعصار فأحرقها ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله ، إذا انقطعت عنه الدنيا [٢].

وتوضيح هذا المثل : أتحب أيها المنفق لغير الله أن تكون لك جنة فيها

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣١٩

(٢) تفسير الكشاف : ١ / ٢٩٩

النخيل والأعناب ومختلف الأثمار ، وتجري فيها الأنهار ، فتسقيها ، وقد علقت الآمال عليها ، ورجوت أن تنتفع بها مع صغارك ، وأنت في حال الكبر لا تقدر على الكسب ، وهم لا يقدرون على شأنك وشأنهم ، ولا مورد لك غير هذه الجنة ، ثم أصابتها ريح السّموم (١) اللافحة بحرها أو بردها القارس ، فأحرقتها وأبادت ثمرها.

هذا حالك إذ أنفقت مالك رياء ، أو بالمن والأذى ، لن تجد له أية فائدة في يوم القيامة ، ولن تجد لعملك غير الحسرة والندامة ، وأنت في ذلك اليوم الرهيب في أشد الحاجة إلى نتيجة عملك ، وثواب ما بذلت ؛ لأن إعصار الرياء ، والمنّ والأذى بدّد كل ما فعلته من خير في الظاهر ، وهو شر في الحقيقة والباطن.

ومثل هذا البيان الجلي الواضح يبين الله لكم الآيات ودلائل الشريعة وأسرارها وغاياتها وفوائدها لتتفكروا فيها ، وتتعظوا بما اشتملت عليه من الأمثال والمعاني والعبر ، وتنزلوها على المراد بها ، فتقصدوا بنفقاتكم أن تكون خالصة لوجه الله تعالى ، دون أن يصاحبها رياء أو منّ وأذى ، كما قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ ، وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٤٣]. فقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي في العواقب ، فتضعون نفقاتكم في مرضاة الله مع الإخلاص وقصد تثبيت النفس على فعل الخير المحض.

فقه الحياة أو الأحكام :

في الآيتين مثلان واضحان يوجبان التأمل والتفكر والمقارنة ، ولا شك بأن كل مؤمن عاقل يختار الموقف الأول ، فيجعل نفقته خالصة لوجه الله ، لأنها هي التي تفيده وتحقق له الثواب يوم القيامة ، ولا يغتر العاقل بمظاهر الدنيا الفانية وسمعتها وشهرتها الزائلة ؛ لأن كلام الناس في كل حال مؤذ ومضر ، فإن راءى

---

(١) السموم : الريح الحارة ، وتؤنث ، وجمعها سمائم.

بعمله ذمّوه وحسدوه ومقتوه ، وقد يتهمونه بالتهور والطيش إن كانت نفقته كثيرة ، وإن مدحوه فلا قيمة ولا غناء لمديحهم ؛ لأن ما عند الله خير وأبقى أو أنفع وأخلد.

والله تعالى بكرمه وفضله ينمي نفقات المخلصين ويكافئهم بالمزيد ، كالبستان الذي يثمر ضعفي ثمرته ، تقريبا لأذهاننا ، أخرج مسلم ومالك وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : «لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه ، فيربّيها كما يربّي أحدكم فلوه (١) ، أو فصيله ، حتى تكون مثل الجبل أو أعظم».

وأما المنفق لغير وجه الله فيتلاشى فضل عمله سراعا في الدنيا ، ولا يجد له ثمرة في الآخرة. روي عن ابن عباس وغيره أن هذا ـ أي الموقف الثاني ـ مثل ضربه الله تعالى للكافرين والمنافقين ، كهيئة رجل غرس بستانا ، فأكثر فيه من الثمر ، فأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء ـ يريد صبيانا بنات وغلمانا ـ فكانت معيشته ومعيشة ذرّيته من ذلك البستان ، فأرسل الله على بستانه ريحا فيها نار ، فأحرقته ، ولم يكن عنده قوة ، فيغرسه ثانية ، ولم يكن عند بنيه خير ، فيعودون على أبيهم. وكذلك الكافر والمنافق إذا ورد إلى الله تعالى يوم القيامة ، ليست له كرّة يبعث فيرد ثانية ، كما ليست عند هذا قوة فيغرس بستانه ثانية ، ولم يكن عند من افتقر إليه عند كبر سنه وضعف ذريته غنيّ عنه.

وقد دل تعليل الإنفاق بعلتين في آية : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ..﴾ على أن نقصد بأعمالنا أمرين :

أولهما ـ ابتغاء رضوان الله لذاته ، تعبدا له.

---

(١) الفلو : بضم الفاء وفتحها مع ضم اللام ، وبكسرها مع سكون اللام : المهر الصغير.

وثانيهما . تزكية أنفسنا وتطهيرها من الشوائب التي تعوقها عن الكمال ، كالبخل والمبالغة في حب المال ، وتوطينها على البذل في سبيل الله.

والخلاصة : أن الله في الآية (٢٦٥) ضرب المثل للمخلصين في الإنفاق وفي الآية (٢٦٦) ضرب مثلا آخر للمرائين ، والمؤذين والمنّانين ، والقصد هو المقارنة والمقابلة بين حال الفريقين ، وأن المثل الثاني ليس خاصا بالآخرة أو المرائي ، وإنما ينطبق أيضا على حال الدنيا فيشمل المنان والمؤذي.

إنفاق الطيب من الأموال لا الخبيث

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾

الإعراب :

﴿تَيَمَّمُوا﴾ أصله تتيمموا ، فكرهوا اجتماع حرفين متحركين من جنس واحد وهما التاءان فسكنوا التاء الأولى ، وأدغموها في الثانية ﴿تُنْفِقُونَ﴾ حال من ضمير تيمموا ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ أن وصلتها : في موضع نصب بآخذيه ؛ لأن التقدير : بأن تغمضوا ، فلما حذفت الباء اتصل بآخذيه.

البلاغة :

﴿تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ مجاز مرسل يراد به التساهل ؛ لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك ، أو تشبيه على سبيل الاستعارة.

المفردات اللغوية :

﴿أَنْفِقُوا﴾ زكوا ﴿مِنْ طَيِّباتِ﴾ جياد وحسان ، مفرده طيب أي جيد مستطاب ، وضده

الخبيث المستكره ﴿ما كَسَبْتُمْ﴾ من المال ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي ومن طيبات ما أنبتنا من الحبوب والثمار ﴿وَلا تَيَمَّمُوا﴾ تقصدوا ﴿الْخَبِيثَ﴾ الرديء ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ أي الخبيث لو أعطيتموه في حقوقكم ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ بالتساهل وغض البصر ، فكيف تؤدون منه حق الله؟! ﴿غَنِيٌّ﴾ عن نفقاتكم ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد على نعمه الكثيرة.

سبب النزول :

روى الحاكم والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن البراء بن عازب ، قال : نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، كنا أصحاب نخل ، وكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته ، وكان الناس ممن لا يرغب في الخير ، يأتي الرجل بالقنو فيه الشّيص والحشف [١] ، وبالقنو قد انكسر ، فيعلّقه[٢] ، فأنزل الله : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ﴾.

وروى أبو داود والنسائي والحاكم عن سهل بن حنيف قال : كان الناس يتيممون شر ثمارهم ، يخرجونها من الصدقة ، فنزلت : ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾.

وروى الحاكم عن جابر قال : أمر النبي ﷺ بزكاة الفطر بصاع من تمر ، فجاء رجل بتمر رديء ، فنزل القرآن : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ﴾ الآية.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يشترون الطعام الرخيص ، ويتصدقون به ، فأنزل الله هذه الآية.

---

(١) القنو : العذق وهو عنقود النخلة والشماريخ مثمرة. والشيص : التمر الذي لا يشتد نواه ، وإنما يتشيّص إذا لم تلقح النخل. والحشف : التمر يجف قبل النضج ، فيكون رديئا وليس له لحم.

(٢) على حبل بين أسطوانتين في مسجد رسول ﷺ ، فيأكل منه فقراء المهاجرين ، وكان الرجل يعمد فيخرج قنو الحشف ، وهو يظن أنه جائز عنه.

المناسبة :

بيّن الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة ما يجب أن يتصف به المنفق عند الإنفاق من الإخلاص لله ، وقصد تزكية النفس ، والبعد عن الرياء ، وما يجب أن يتحلى به بعد الإنفاق من البعد عن المن والأذى.

ثم بين تعالى هنا صفة المال المبذول : وهو أن يكون من جيد الأموال.

التفسير والبيان :

يا من اتصفتم بالإيمان آمركم أن تنفقوا الطيب الجيد من الأموال ، سواء أكان نقودا أم ماشية أم حبوبا وزروعا أم سلعا تجارية وغيرها ، كالمعادن والكنوز والركاز (دفين الجاهلية) ، كقوله تعالى ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران ٣ / ٩٢] وأنهاكم أن تقصدوا إلى الخبيث الرديء من أموالكم ، فتنفقونه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، ولا يقبل ما تكرهه نفوسكم. والخبيث ينطلق على معنيين : أحدهما ـ ما لا منفعة فيه ، كما في حديث الشيخين : «كما ينفي الكير خبث الحديد» والثاني ـ ما تنكره النفس ، وهو مقصود الآية : ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾.

وكيف يروق لكم أن تتصدقوا بالخبيث الرديء ، ولا ترضون ذلك لأنفسكم إلا أن تتساهلوا وتتسامحوا فيه تساهل من غض بصره عن شيء فلم ير العيب فيه ، ولو كان لأحدكم حق أو دين ، فجاءكم دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه ، فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟! فحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه.

واعملوا أن الله ـ وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها ـ فهو غني عنها وعن إنفاقكم وغني عن جميع خلقه ، وإنما يأمركم به لمنفعتكم ، ولتحقيق المساواة بين الغني والفقير ، وليختبركم فيما تنفقون ، فلا تتقربوا إليه بالرديء ، وهو أيضا

مستحق للحمد والشكر على جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ونعمه. ومن الحمد اللائق بجلاله : إنفاق الطيب مما أنعم به.

فقه الحياة أو الأحكام :

موضوع الآية : وجوب اختيار الطيب الجيد من مكاسب الأموال عند إنفاقها في سبيل الله ، سواء أكانت من الزكوات الواجبة أم من الصدقات المندوبة ؛ لأن القصد هو التقرب إلى الله تعالى ، وادخار الثواب على فعل الخير ، وذلك لا يتحقق إلا بجياد الأموال وأطيبها.

والآية خطاب لجميع أمة محمد ﷺ [١] ، واختلف العلماء في المعنى المراد بالإنفاق هنا ، فقال علي بن أبي طالب وعبيدة السّلمانيّ وابن سيرين : هي الزكاة المفروضة ، نهى الناس عن إنفاق الرديء فيها بدل الجيد.

وقال البراء بن عازب والحسن البصري وقتادة : إن الآية في التطوع ، ندبوا إلى ألا يتطوعوا إلا بمختار جيد.

والظاهر أن الآية عامة تشمل الزكاة والصدقة ، لكن الزكاة الأمر فيها على الوجوب ، ومخصوصة بالقدر المفروض ، وأما التطوع فالأمر فيه على الندب ، وليس مخصوصا بقدر معين ، فيجوز بالقليل وبالكثير ، لكن يختار الجيد ، وليس القصد هو الممتاز ، فهو الأولى ، ولكن الحد الأدنى المطلوب هو الوسط ، كما قرر الفقهاء في الزكاة.

ودلت الآية على أن للوالد أن يأكل من كسب ولده ؛ لأن النبي ﷺ قال : «أولادكم من طيّب أكسابكم ، فكلوا من أموال أولادكم هنيئا» [٢].

واستدل أبو حنيفة رضي الله عنه بقوله تعالى : ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٣١٦

(٢) رواه البزاز بلفظ : «أولادكم من هبة الله لكم ، فكلوا من كسبهم».

﴿الْأَرْضِ﴾ على وجوب زكاة العشر فيما سقي بالمطر ، ونصف العشر فيما سقي بالبئر ونحوه مما فيه كلفة ، في كل ما تخرجه الأرض من أصناف زراعية ، قليلا كان أو كثيرا ، من غير تقدير بنصاب ، ولا تخصيص بنوع معين من الأقوات ، فتجب الزكاة عنده في الزروع والثمار كلها ، ويعضده قوله ﷺ : «فيما سقت السماء العشر ، وفيما سقي بنضح أو دالية (١) نصف العشر».

وأجيب من قبل الجمهور : بأنه لا متعلق له من الآية ؛ لأنها إنما جاءت لبيان محل الزكاة ، لا لبيان نصابها أو مقدارها ، وقد بيّن النبي ﷺ الأنصبة بقوله فيما رواه ابن ماجة : «ليس فيما دون خمس ذود صدقة ، وليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة ، وليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة» (٢).

وهناك أدلة أخرى للفريقين (٣).

ويلاحظ أن الآيات التي تطالب بالإنفاق تختم عادة أو غالبا إما بقوله تعالى : ﴿وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أو بقوله : ﴿وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وذلك يرشدنا إلى أن النفقة جزء مما أنعم الله به من رزق على العباد ، وأنه تعالى سيجزيه بها ويضاعفها له أضعافا كثيرة ، ويخلف المبذول على المنفق ؛ لأنه واسع الفضل والرحمة والعطاء ، ويرشدنا أيضا إلى أن القصد هو اختبار الناس فهو لا يأمرهم بالصدقة حين العوز ، وإنما حال السعة واليسر ، فكل إنسان مكلف حسب طاقته وقدرته على الإنفاق ، وهو سبحانه محمود على كل حال ، وعلى جميع نعمه ،

---

(١) الدالية : الغرافة التي تديرها البقرة أو الجمل ونحوهما من الدواب ، والناعورة التي يديرها الماء. والحديث رواه الجماعة إلا مسلما عن ابن عمر.

(٢) الذود من الإبل : ما بين الثلاث إلى العشر ، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها ، والكثير : أذواد. ونصاب الفضة : مائتا درهم ، والدرهم العربي (٩٧٥ ، ٢ غم) ، والخمسة الأوسق تعادل (٦٥٣ كغ).

(٣) أحكام القرآن للجصاص الرازي : ١ / ٤٥٨ ، أحكام القرآن لابن العربي : ١ / ٢٣٥ وما بعدها.

ومقتضى الحمد والشكر تذكر المحتاج ومواساة الفقير والمسكين ، ومما يرغب في النفقة أن اليد العليا ـ المنفقة ـ خير من اليد السفلى ـ الآخذة.

تخويف الشيطان من الفقر والفهم الصحيح للقرآن

﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (٢٦٩)﴾

الإعراب :

﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ﴾ مبتدأ ، وجملة ﴿يَعِدُكُمُ﴾ خبره ، وسمي شيطانا (فيعالا) من شطن أي بعد ؛ لأنه بعد عن رحمة الله ، وقيل في وجه ضعيف : على وزن فعلان : من شاط يشيط : إذا احترق.

البلاغة :

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ﴾ وفي قراءة «تشاء» على الخطاب ، وهو التفات إذ هو خروج من غيبة إلى خطاب.

المفردات اللغوية :

﴿يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أي يخوّفكم من الفقر إن تصدقتم ، فتمسكون ما بأيدكم ، فلا تنفقوه في مرضاة الله ، والفقر : سوء الحال وضيق ذات اليد. ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ﴾ أي يغريكم بالبخل ومنع الزكاة ﴿وَاللهُ يَعِدُكُمْ﴾ على الإنفاق ﴿مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ صفحا من الله عن ذنوبكم. ﴿وَفَضْلاً﴾ رزقا وخلفا منه ﴿وَاللهُ واسِعٌ﴾ فضله ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمنفق.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ العلم النافع المؤدي إلى العمل ، المؤثر في النفس ، واختلف العلماء في

الحكمة : فقال السدي : هي النبوة. وقال ابن عباس : هي المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وغريبه ومقدّمه ومؤخره (أي العلم بأصول الفقه). وقال قتادة ومجاهد : الحكمة : هي الفقه في القرآن. وقال مجاهد : الإصابة في القول والفعل. وقال ابن زيد : الحكمة : العقل في الدّين. وقال مالك بن أنس : الحكمة : التفكر في أمر الله والاتّباع له ، أو هي طاعة الله والفقه في الدين والعمل به. وكل هذه الأقوال تشترك في أن الحكمة : هي الفهم الصحيح والعلم النافع واتباع المعلوم المؤدي إلى سعادة الدنيا والآخرة [١].

﴿خَيْراً كَثِيراً﴾ لأن الحكمة أوصلته إلى السعادة الأبدية ﴿وَما يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ ، وأصله : يتذكر ، فأدغم التاء في الذال ﴿أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أصحاب العقول.

التفسير والبيان :

الشيطان عدو الإنسان من قديم ، وهو الذي أقسم ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص ٣٨ / ٨٢ ـ ٨٣] يوسوس للناس ويخوفهم من الفقر إذا تصدقوا أو أنفقوا في سبيل الله ويقول لهم : إن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا ، ويحرضهم ويغريهم على البخل والإمساك إغراء الآمر للمأمور. والفاحش عند العرب : البخيل. والوعد : يستعمل في الخير والشر ، قال الله تعالى : ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج ٢٢ / ٧٢]. وسمي ذلك التخويف وعدا : مبالغة في الإخبار بتحقق وقوعه ، وكأن مجيئه بحسب إرادته ، مع العلم بأن الوعد : هو الإخبار بما سيكون من جهة المخبر ، والشيطان لم يقل : إني سأفقركم.

ويوضح هذا التخويف : ما رواه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن للشيطان لمة [٢] بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك ، فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله ، ومن وجد

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٣٢٠

(٢) اللّمّة : المس والشيء القليل من الجن ، والمراد : الخطرة التي تقع في القلب بوسوسة الشيطان أو الملك.

الأخرى ، فليتعوذ من الشيطان» ثم قرأ : ﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾(١).

والله تعالى في مقابلة إغراءات الشيطان ووساوسه وأمره بالفحشاء (البخل) يعدكم على لسان نبيكم مغفرة بسبب الإنفاق لذنوبكم ، وتعويضا وإخلافا في الدنيا لما أنفقتموه ، والفضل : المال والخير ، والله واسع الرحمة والفضل ، فيحقق ما وعدكم به ، وهو عليم بما تنفقون ، فيجازيكم عليه أحسن الجزاء ، كما قال تعالى : ﴿وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ ٣٤ / ٣٩] وروى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان ، يقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا» أي أن الأول يعوضه الله بتسهيل أسباب الرزق له ، والآخر يذهب ماله.

والله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء من عباده ، وليست الحكمة على الصحيح النبوة ، ولكنها كما قال الجمهور : العلم والفقه والقرآن ، فهي لا تختص بالنبوة ، بل هي أعم منها ، وأعلاها النبوة ، والرسالة أخص ، وذلك يرشد إلى تمييز الحقائق من الأوهام ، والتفرقة بين الوسواس والإلهام. وآلة الحكمة : العقل ، فمن عرف ما في القرآن من أحكام وأسرار ، وأدرك بسلامة عقله ما في الإنفاق من فوائد تعود على الأمة بالخير وعلى المنفق بالثواب الجزيل ، لم يتأثر بوساوس الشيطان ، ولم يتردد في البذل والإنفاق في سبيل الله. عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا ، فسلّطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ويعلمها» (٢).

ومن يوفقه الله للعلم النافع ، وعلى التخصيص فهم القرآن والدين ، ويرشده

---

(١) وهكذا رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، والنسائي ، وابن حبان في صحيحة.

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه.

إلى هداية العقل ، فقد هدي إلى خيري الدنيا والآخرة ، وأدرك الأمور على حقيقتها.

ولا يتعظ بالعلم ويتأثر بالموعظة وينتفع بالتذكار إلا كل ذي عقل سليم يفهم به الخطاب الشرعي ومعنى الكلام الإلهي.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآية متصلة بما قبلها ، فهي تحث المؤمن على الإنفاق في سبيل الله : سبيل الخير ؛ لأن الله وعد بالمغفرة جزاء الإنفاق ، وبالإخلاف والتعويض والإمداد بالفضل الإلهي من المال والرزق ، والله تعالى يعطي من سعة ، فلا تنفد خزائنه ، ويعلم حيث يضع ذلك ، ويعلم الغيب والشهادة.

وتحذر الآية من وساوس الشياطين ، فإن للشيطان مدخلا في تثبيط الإنسان عن الإنفاق في سبيل الله ، وهو مع ذلك يأمر بالبخل والفحشاء وهي المعاصي ، والإنفاق فيها.

ومن أعطي الحكمة (العلم النافع الصحيح) وفهم القرآن ، فقد أعطي أفضل ما أعطي من جمع كتب علم الأولين من الصحف وغيرها. والآية تحض على العلم وترفع شأن الحكمة ، وتهدي إلى استعمال العقل في أشرف ما خلق له. قال بعض الحكماء : من أعطي العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه ، ولا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم : فإنما أعطي أفضل ما أعطي أصحاب الدنيا ؛ لأن الله تعالى سمى الدنيا متاعا قليلا ، فقال : ﴿قُلْ : مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ﴾ [النساء ٤ / ٧٧] وسمّى العلم والقرآن ﴿خَيْراً كَثِيراً﴾.

صدقة السر وصدقة العلن

﴿وما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (٢٧٠) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)﴾

الإعراب :

﴿فَنِعِمَّا﴾ أصله نعم ما وهي لغة هذيل ، ونعم فعل ماض مخصوص للمدح ، وفيه ضمير مرفوع ، والتقدير : نعم الشيء شيئا إبداؤها ، وإبداؤها : هو المقصود بالمدح وهو مرفوع ؛ لأنه مبتدأ ، وما قبله : الخبر ، ثم حذف (إبداء) وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه ، فصار الضمير المجرور المتصل ضميرا مرفوعا منفصلا وهو ﴿هِيَ﴾ مرفوعا بالابتداء ، لقيامه مقام المبتدأ. و «ما» في موضع نصب على التمييز. ﴿يُكَفِّرُ﴾ بالرفع : استئناف وتقديره : ونحن نكفّر و ﴿مِنْ سَيِّئاتِكُمْ﴾ : من للتبعيض ، أي شيئا من سيئاتكم. وقيل : من زائدة ، والأكثرون على أنها ليست زائدة ؛ لأن «من» لا تزاد في الإيجاب ، وإنما تزاد في النفي ، نحو : ما جاءني من أحد.

البلاغة :

يوجد جناس اشتقاق بين «أنفقتم ونفقة» وبين «نذرتم ونذر». ويوجد طباق بين «تبدوا وتخفوها».

لمفردات اللغوية :

﴿وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ أديتم من زكاة أو صدقة ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ النذر : لغة : العزم على التزام شيء خاص ، وشرعا : التزام طاعة تقربا إلى الله تعالى ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ﴾ تظهروا الصدقات النوافل أو التطوعات ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ الأصل : فنعم ما هي ، بمعنى شيئا إبداؤها ﴿وَإِنْ تُخْفُوها﴾ تسروها خير لكم من إبدائها وإيتائها الأغنياء والضمير يعود على الصدقات. أما صدقة الفرض (الزكاة) فالأفضل إظهارها ليقتدى به ولئلا يتهم المزكي بالمنع ، وإيتاء الفقراء : متعين.

سبب النزول :

قال ابن أبي حاتم في قوله تعالى : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ..﴾ الآية أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ، أما عمر فجاء بنصف ماله ، حتى دفعه إلى النبيﷺ ، فقال له النبي ﷺ : «ما خلّفت وراءك لأهلك يا عمر؟» قال : خلفت لهم نصف مالي. وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه ، حتى دفعه إلى النبيﷺ ، فقال له النبي ﷺ : «ما خلّفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟» فقال : عدة الله وعدة رسوله. فبكى عمر رضي الله عنه وقال : بأبي أنت وأمي يا أبابكر ، والله ما استبقنا إلى باب خير قط ، إلا كنت سابقا [١].

وقال الكلبي : لما نزل قوله تعالى : ﴿وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ الآية ، قالوا : يا رسول الله ، صدقة السر أفضل أم صدقة العلانية؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية [٢].

المناسبة :

بعد أن رغب تعالى في الإنفاق في سبيله ، أوضح أن الله يعلم مصرف كل صدقة ، سواء أكانت في طاعة أم في معصية ، وخيرنا بين إخفاء صدقة التطوع وإظهارها ، ولكن الإخفاء هو الأفضل ، ويؤيده حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ومنهم : «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» [٣] فكان موضوع الآية الترغيب في إخفاء الصدقات ؛ بعدا عن الرياء.

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٢٣

(٢) أسباب النزول للنيسابوري : ص ٤٨ ـ ٤٩

(٣) أخرجه أحمد والشيخان والنسائي عن أبي هريرة.

التفسير والبيان :

ما أنفقتم من نفقة ، سواء كانت لله أو للرياء أو كانت مصحوبة بالمن أو الأذى أو لم تصحب بهما ؛ أو نذرتم نذرا في طاعة (وهو نذر التبرر) أو في معصية (وهو نذر اللجاج والغضب) ، فإن الله عالم به ومجاز عليه ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهذا ترغيب في الخير وترهيب من الشر. وما للظالمين الذين ظلموا أنفسهم بأن بخلوا بالمال ولم يتصدقوا من أنصار ينصرونهم يوم القيامة ، كقوله : ﴿ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ﴾ [غافر ٤٠ / ١٨].

وإن تظهروا صدقات التطوع بقصد حمل الناس على فعلها فنعم ما فعلتم ، وإن تخفوها ، ولم تعلموا بها أحدا ، وتعطوها الفقراء ، فهو خير لكم بعدا عن الرياء والسمعة ، ويمحو عنكم بالصدقة بعض ذنوبكم ؛ لأن الصدقة لا تكفر جميع الذنوب أو السيئات.

والله خبير وبصير بكل عمل تعملونه وبكل دقائق الأمور ، فهو يعلم السر وأخفى ، فيجازيكم على أعمالكم ، واحذروا الرياء والإنفاق لغير الله ، فلا تخفى عليه نياتكم في الإبداء والإخفاء.

فقه الحياة أو الأحكام :

كانت العرب تكثر من النذور ، فذكر الله تعالى النوعين : ما يفعله المرء تبرعا ، وما يفعله نذرا أي بإلزامه نفسه.

ويخبر الله تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات ، ويجازي كل واحد بحسب فعله ، خيرا أو شرا ، وفي الآية معنى الوعد والوعيد ، فمن كان خالص النية ، ينفق في طاعة الله فهو مثاب ، ومن أنفق رياء أو قرن صدقته بالمن أو الأذى ونحو ذلك ، فهو ظالم ، يذهب فعله هدرا ، ولا يجد له يوم القيامة ناصرا فيه ينقذه من عذاب الله ونقمته. ولا فرق في

مشروعية نذر التبرر بين أن يكون بشرط أو بغير شرط ، مثال الأول : أن يقول الناذر : لله علي أن أصوم أو أتصدق بكذا ، ومثال الثاني : أن يقول : إن شفى الله مريضي فلله علي أن أتصدق بكذا.

وقد اتفق العلماء على وجوب الوفاء بنذر الطاعة ، وحرمة فعل المعصية المنذورة ، بدليل ما أخرجه النسائي عن عمران بن الحصين ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «النذر نذران : فما كان من نذر في طاعة الله تعالى ، فذلك لله تعالى ، وفيه الوفاء ، وما كان من نذر في معصية الله تعالى ، فذلك للشيطان ، ولا وفاء فيه ، ويكفّره ما كفّر اليمين».

وأما نذر المباح كالأكل والركوب واللبس فيخير فيه في رأي جمهور الفقهاء بين الفعل والترك ، لخبر أبي داود : «لا نذر إلا فيما ابتغي به وجه الله تعالى». وأما المرأة التي نذرت أن تضرب الدف يوم قدوم النبي ﷺ وقول الرسول لها : أوفي بنذرك ، فإن فعلها صار من القرب ، لسرور المسلمين بقدومه ﷺ ، وإغاظة الكفار ، وإرغام المنافقين.

وذهب جمهور المفسرين إلى أن الآية (٢٧١) في صدقة التطوع ، وفيها دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها ، وكذلك سائر العبادات : الإخفاء أفضل في تطوعها ؛ لأنه أبعد عن الرياء ، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة ، من اقتداء الناس به ، فمن تصدق لجهة عامة أو لمشروع خيري ، أو لأي أمر عام مثلا ، فلا بأس من إعلان صدقته أو مشاركته ومساهمته ، لترغيب الناس ، وللاقتداء به ، وليكون أدعى للتسابق في الخيرات.

ويؤكد التخيير ما قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر والحاكم عن معاذ : «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمسرّ بالقرآن كالمسرّ بالصدقة».

ويؤكد أفضلية الإسرار بصدقة التطوع ما ذكرناه وهو

ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة من حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله ، ومنهم : «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» وروى أحمد وابن أبي حاتم عن أبي أمامة : «أن أبا ذرّ قال : يا رسول الله ، أي الصدقة أفضل؟ قال : صدقة سرّ إلى فقير ، أو جهد من مقلّ ، ثم قرأ الآية : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ وروى الطبراني مرفوعا : «إن صدقة السر تطفئ غضب الرب». ودليل إعلان الصدقة المفروضة : ما روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال : «جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها ، يقال : بسبعين ضعفا ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها ، يقال : بخمسة وعشرين ضعفا.

وأما الصدقة الواجبة (الزكاة) : فأكثر العلماء على أن إظهارها أفضل من إسرارها ؛ لأن الفرائض لا يدخلها رياء ، والنوافل عرضة لذلك ، أخرج مسلم في صحيحة عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة» ومن هنا قيل : صلاة النفل فرادى أفضل ، والجماعة في الفرض أبعد عن التّهمة. بل إن إظهار الفرائض أمر لا بد منه لإقامة شعائر الدين ، وفيه الدلالة على قوة الإسلام ، كما أن فيه الأخذ والعمل بمبدإ القدوة الحسنة.

وتجوز صدقة التطوع للمسلم والكافر ، والبر والفاجر ، والفقير والغني ، لأن الله تعالى قال : ﴿وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فقد أطلق كلمة ﴿الْفُقَراءَ﴾ ولم يقيدها بفقراء المسلمين ، وجعل الخيرية في إعطائها للفقير ، ولم يمنعها عن الغني ، وورد في الصحيحين : «في كل كبد حرّى رطبة أجر» أي أن رحمة جميع المخلوقات مدعاة للثواب. وأما الزكاة المفروضة وزكاة الفطر فهي خاصة بالمسلمين وبالفقراء ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ﴾ ولحديث معاذ حينما أرسله النبي ﷺ واليا إلى اليمن : «خذها من أغنيائهم ، وردها في فقرائهم» [١].

---

(١) رواه الجماعة عن ابن عباس.

والخلاصة : إن الصدقة الواجبة ، والإنفاق في المصالح العامة كبناء المدارس والمشافي والدعوة إلى الدين والجهاد ، ونفقة التطوع بقصد ترغيب الآخرين في التصدق ينبغي إعلانها ، وهو أفضل من الإخفاء. وأما الصدقة على الفقراء لسد حاجاتهم فإسرارها أفضل من إعلانها ، سترا لحالهم وحفظا لكرامتهم.

مستحقو الصدقات

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَما تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)﴾

الإعراب :

﴿لِلْفُقَراءِ﴾ جار ومجرور : إما مرفوع لأنه خبر مبتدأ محذوف وتقديره : الصدقات للفقراء ، وإما منصوب لتعلقه بفعل : ﴿وَما تُنْفِقُوا﴾ في الآية السابقة ، أي : وما تنفقوا من خير للفقراء ، أو متعلق بمحذوف والمعنى اعمدوا للفقراء أو اجعلوها لهم. ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ﴾ جملة فعلية حال

منصوب من ضمير ﴿أُحْصِرُوا﴾. ﴿يَحْسَبُهُمُ﴾ جملة فعلية حال من الفقراء ، وكذلك : ﴿تَعْرِفُهُمْ﴾ ﴿بِسِيماهُمْ﴾ و ﴿لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً﴾ ويحتمل أن يكون ذلك كله حالا من ضمير ﴿أُحْصِرُوا﴾ ويحتمل أن يكون مستأنفا ، فلا يكون له موضع من الإعراب. ومعنى : ﴿لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً﴾ أي لا يسألون ولا يلحفون.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ مبتدأ موصول ، وتمت الصلة عند قوله : سرا وعلانية : وهما مصدران في موضع الحال من ضمير ﴿يُنْفِقُونَ﴾. ثم أخبر عن المبتدأ بقوله : ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ودخلت الفاء في خبر المبتدأ ، لتضمن المبتدأ الموصول حرف الشرط ، وهذا لا يكون إلا إذا كانت الصلة جملة فعلية ، ولم يدخل على عامل يغير معناه نحو ليت ولعل وكأن.

البلاغة :

﴿وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ﴾ خبر بمعنى النهي ، أي لا تطلبوا غير ثواب الله من أعراض الدنيا. ﴿وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ إطناب بعد قوله : ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ وقوله : ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾. ويوجد طباق بين قوله : ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ وقوله ﴿سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾.

المفردات اللغوية :

﴿هُداهُمْ﴾ إدخال الناس في الإسلام ، وإنما عليك البلاغ والإرشاد إلى الخير والله هو الهادي إلى الدخول في الإسلام ، فالهدى نوعان : هدى التوفيق إلى طريق الخير والسعادة وهو مختص بالله تعالى ، وهدى الدلالة والإرشاد إلى الخير وهو مهمة النبي ﷺ. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ مال ﴿فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي ثوابه لأنفسكم لا ينتفع به غيركم ﴿ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ﴾ طلب مرضاته وثوابه ﴿أُحْصِرُوا﴾ منعوا وحبسوا في طاعة الله لجهاد أو تعلم علم ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يصل إليكم جزاؤه غير منقوص ﴿وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ لا تنقصون منه شيئا ، وهذه الجملة وجملة ﴿يُوَفَ﴾ تأكيد للجملة الأولى : ﴿فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾.

﴿لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً ..﴾ سفرا وسيرا في الأرض للكسب والتجارة والمعاش بسبب شغلهم عنه بالجهاد ﴿التَّعَفُّفِ﴾ إظهار العفة وترك السؤال ﴿بِسِيماهُمْ﴾ علامتهم من التواضع وأثر الجهد ﴿لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً﴾ أي لا يسألون الناس أصلا شيئا ، ولا يقع منهم إلحاف أي إلحاح : وهو أن يلازم السائل المسؤول حتى يعطيه ﴿بِهِ عَلِيمٌ﴾ خبير ، مطلع عليه ومجاز عليه.

سبب النزول :

١ . نزول الآية (٢٧٢):

ورد في سبب نزولها روايات عديدة مضمونها واحد منها : ما رواه النسائي والحاكم والبزار والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال : كانوا يكرهون أن يرضخوا [١] لأنسابهم من المشركين ، فسألوا ، فرخص لهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ﴾ الآية.

وروي أن ناسا من المسلمين كانت لهم أصهار في اليهود ورضاع ، وقد كانوا ينفقون عليهم قبل الإسلام ، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوا عليهم.

وقيل : حجت أسماء بنت أبي بكر ، فأتتها أمها تسألها ، وهي مشركة ، فأبت أن تعطيها ، فنزلت.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يأمر أن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام ، فنزلت : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ﴾ الآية ، فأمر بالتصدق على كل من سأل من كل دين.

وروى سعيد بن جبير مرسلا عن النبي ﷺ في سبب نزول هذه الآية : أن المسلمين كانوا يتصدّقون على فقراء أهل الذمّة ، فلما كثر فقراء المسلمين ، قال رسول الله ﷺ : «لا تتصدّقوا إلا على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام.

وحكى الطبري أن مقصد النبي ﷺ بمنع الصدقة إنما كانوا ليسلموا ويدخلوا في الدين ، فقال الله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ﴾.

---

(١) رضخ له : أعطاه قليلا.

والخلاصة : إن مضمون سبب نزول هذه الآية : أن من أسلم كره أن يتصدق على قريبه المشرك أو على المشركين أو نهاهم النبي ﷺ من التصدق عليهم فنزلت الآية.

٢ . نزول الآية (٢٧٣):

نزلت في أهل الصّفّة [١] : وهم أربعمائة من المهاجرين ، أرصدوا لتعلم القرآن والخروج مع السرايا [٢].

٣ . نزول الآية (٢٧٤):

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال : نزلت هذه الآية : ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، سِرًّا وَعَلانِيَةً ، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ**﴾ في أصحاب الخيل [٣] : وهم الذين يرتبطون الخيل في سبيل الله تعالى ، ينفقون عليها بالليل والنهار ، سرّا وعلانية ، نزلت فيمن لم يرتبطها تخيلا ولا افتخارا.

وروي عن ابن عباس : أن هذه الآية : ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ**﴾ نزلت في علف الخيل. ويدلّ على صحة هذا حديث أسماء بنت يزيد ، قالت : قال رسول الله ﷺ : «من ارتبط فرسا في سبيل الله ، فأنفق عليه احتسابا ، كان شبعه وجوعه وريّه وظمؤه ، وبوله وروثه في ميزانه يوم القيامة».

---

(١) تفسير القرطبي : ٣ / ٣٣٧

(٢) كان أهل الصفة من مهاجري قريش ، ولم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر ، فكانوا في صفّة المسجد : وهي سقيفته ، يتعلمون القرآن بالليل ، ويرضخون النوى بالنهار ، ويخرجون مع سرية بعثها رسول الله ﷺ ، فمن كان عنده فضل أتاهم به إذا أمسى.

(٣) قال السيوطي : يزيد وأبوه مجهولان.

المناسبة :

أرشدت الآية السابقة المؤمنين إلى إعطاء الفقراء عامة ، مسلمين وغير مسلمين ، وصرحت هذه الآية بإباحة صدقة التطوع لغير المسلمين ، سواء أكانوا مشركين أم من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ؛ لأن الله تعالى يرزق المؤمن والكافر من خير الدنيا ، وشأن المؤمن أن يتخلّق بأخلاق الله ، وأن يكون خيره عاما للناس ؛ إشعارا بحبّ الخير والنّفع للبشرية ، وإدلالا على توافر صفة الرحمة والمحبة في قلب المسلم لكل إنسان ، وإبعادا للعصبية الدّينية التي من شأنها التهديم والتفريق والفتنة ، وزرع الأحقاد والضغائن ، والتنفير من قبول الإسلام ذاته القائم على التسامح ، وترك أمر الهداية للدين لله تعالى ، فإن الهداية من الله ، وتقتضي الشفقة إعطاء المحتاج أيّا كان دينه.

التفسير والبيان :

ليس عليك أو لا يجب عليك يا محمد أن تقود الناس إلى هداية الإسلام كرها ، وإنما عليك البلاغ والإرشاد إلى الدين فقط ، فتبشر من أطاع بالجنة ، وتنذر من عصى بالنار ، وأمر الهداية بمعنى التوفيق إلى الخير والسعادة والاهتداء إلى الإسلام مردّه إلى الله ، بما وضع في النفوس من العقول ، وما أبانه لهم من سنن وأدلّة ترشدهم إلى الدين الحق ، فأمر يا محمد بالصدقة إلى كل من سألها من كل دين.

وثواب الصدقة وإنفاق المال في سبيل الله عائد بذاته لأنفسكم ، ولا ينتفع به غيركم في الدنيا والآخرة. أما في الدّنيا فيصون المال ، ويحصّن الثروة ، ويحميكم من أذى الفقراء بالنّهب والسلب والسرقة ؛ لأن الجائع يستبيح لنفسه كل شيء. وأما في الآخرة فثوابه لكم بدخول الجنة وتكفير بعض السيئات والذنوب.

وإنكم لا تنفقون إلا طلبا لرضوان الله ، لا لمصلحة دنيوية أو لإرضاء

الشيطان ، وعلى ذلك فلا فرق بين فقير وفقير أيّا كان دينه ، ولا داعي للمنّ والأذى ، أو الرياء والسمعة ؛ لأنك تقصد بنفقتك وجه الله وحده ، وفعل الخير المحض ، دون انتظار ثناء ، أو جزاء الناس في الدّنيا ، قال ﷺ لسعد بن أبي وقاص في الحديث الصحيح : «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى إلّا أجرت بها ، حتى ما تجعل في في امرأتك» أي فمها.

ثم أكّد سبحانه الآية السابقة : ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ بمؤكّدين : الأول . قوله : ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي يصلكم ثوابه كاملا غير منقوص في الآخرة.

الثاني . قوله : ﴿وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا يضيع عليكم منه شيء ، ولا تبخسون منه شيئا ، فيكون ذلك البخس ظلما ، كقوله تعالى : ﴿فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٤٧].

وكلّ هذا يدل على أن الإنفاق يكون للفقراء عامة ، مسلمين أو غير مسلمين ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً. إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ، لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً﴾ [الإنسان ٧٦ / ٨ . ٩]. والأسير في دار الإسلام لا يكون عادة إلا مشركا وقوله تعالى : ﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة ٦٠ / ٨].

ويؤيد ذلك ما روي في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «قال رجل: لأتصدقنّ الليلة بصدقة ، فخرج بصدقته ، فوضعها في يد زانية ، فأصبح الناس يتحدّثون : تصدّق على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد : على زانية! لأتصدقنّ الليلة بصدقة ، فوضعها في يد غني ، فأصبحوا

يتحدّثون : تصدّق الليلة على غني ، قال : اللهم لك الحمد : على غني! لأتصدقنّ الليلة بصدقة ، فخرج فوضعها في يد سارق ، فأصبحوا يتحدّثون : تصدّق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد ، على زانية ، وعلى غني ، وعلى سارق ، فأتي فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زنا ، ولعل الغني يعتبر ، فينفق مما أعطاه الله ، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته».

ثم بيّن الله تعالى أحقّ الناس بالصدقة وهم الفقراء بالصفات الخمس التالية :

الصفة الأولى ـ الإحصار في سبيل الله :

أي الذين حبسوا أنفسهم للجهاد أو العمل في مرضاة الله كطلب العلم ؛ إذ لو اشتغلوا بالكسب مثل غيرهم لتعطلت المصلحة العامة ، فهم فداء الأمة وحماتها وقادتها الموجهون لها في وقت السّلم والحرب ، وفي الشدّة والأزمة أو المحنة ، والرفاه والرخاء أو السعادة. وقد عرفنا أن هذه الآية نزلت في أهل الصّفّة : وهم فقراء المهاجرين الذين كانوا حوالي أربعمائة رجل ، وكانوا مرابطين في سقيفة المسجد ، يتعلمون القرآن في الليل ، ويجاهدون في النهار ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ وقف يوما على أصحاب الصّفّة ، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم ، فقال : «أبشروا يا أصحاب الصّفّة ، فمن بقي من أمتي على النّعت الذي أنتم عليه ، راضيا بما فيه ، فإنه من رفقائي».

الصفة الثانية ـ العجز عن الكسب :

﴿لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا يتمكنون من القيام بالسفر أو السّير في البلاد للتجارة والكسب. والضرب في الأرض : هو السّفر ، وعجزهم لأسباب عديدة : منها الكبر والشيخوخة ، ومنها المرض ، ومنها الخوف من العدو ، ونحو ذلك من الضرورات.

الصفة الثالثة ـ التّعفف :

إظهار العفّة والتّرفع عن الطّمع مما في أيدي الناس ، حتى إن الجاهل بحقيقة حالهم يظنّهم أغنياء ، لعفّتهم وصبرهم وقناعتهم وتعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم. ورد في هذا المعنى حديث متّفق على صحّته عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي تردّه التمرة والتمرتان ، واللقمة واللقمتان ، والأكلة والأكلتان ، ولكن المسكين : الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئا» [١].

الصفة الرابعة ـ القرائن المميزة لهم :

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ﴾ أي علامتهم ، والتّعرّف عليهم يحتاج إلى فراسة المؤمن [٢] ، وخبرة المجرّب ، وحنكة ذوي البصيرة والعقل ، والتّحرّي عنهم بالسؤال لمن يعرفهم من جيران وأقارب ، وربما يستأنس بمظاهر الضّمور والنّحول والضّعف ورثاثة الثياب ، وربما لا يكون ذلك دليلا مقنعا ، فقد يتظاهر بعضهم بالفقر ، وقد يكتسي بعضهم اللباس المعقول لعزّة نفسه ، ويكون هو المحتاج ، وغيره هو الكاذب.

الصفة الخامسة ـ عدم السؤال أصلا وعدم الإلحاح في السؤال :

﴿لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً﴾ ومعناه في رأي جمهور المفسرين : أنهم متعففون عن المسألة عفة تامة ، ويكون التعفف صفة ثابتة لهم ، أي لا يسألون الناس إلحاحا ولا غير إلحاح.

---

(١) رواه أحمد أيضا عن ابن مسعود.

(٢) جاء في حديث السّنن : «اتّقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ.

وقال قوم : إن المراد نفي الإلحاف ، أي إنهم يسألون الناس غير إلحاف ، وهذا هو المتبادر إلى الذهن والسابق للفهم ، أي يسألون غير ملحفين ، فلا يلحّون في المسألة ، ولا يكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه ، فإن من سأل وله ما يغنيه عن المسألة ، فقد ألحف في المسألة. وفي هذا تنبيه على سوء حالة من يسأل الناس إلحافا ، وهذا شأن أغلب الشّحاذين اليوم. روى الأئمة ، واللفظ لمسلم ، عن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تلحفوا في المسألة ، فو الله لا يسألني أحد منكم شيئا ، فتخرج له مسألته مني شيئا ، وأنا له كاره ، فيبارك له فيما أعطيته».

ثم ختمت الآية بأنه ما من نفقة صغيرة أو كبيرة إلا ويعلمها الله ، ولا يخفى عليه الباعث على النفقة أو النيّة أيضا ، فبحسن النية والإخلاص ففي النفقة دون أذى يحسن الجزاء ، وبسوء النية يسوء الجزاء. وفي هذا ترغيب في الإنفاق الطيّب ، وترهيب من الإنفاق الخبيث.

ثم أوضح الله تعالى ثواب المنفقين وجزاء الإنفاق في جميع الأحوال والأوقات ، فمن تصدّق بأمواله ليلا أو نهارا ، سرّا أو علانية ، ولم يمتنع عن نفقة وقت الحاجة إليها ، ومنها النفقة على الأهل ، كما دلّ حديث النّبي ﷺ لسعد المتقدّم ، فله الأجر الكامل عند ربّه وثوابه على الله لا على أحد سواه ، ولا خوف عليه في الآخرة ، ولا يتعرّض للحزن أبدا ، أي فلا خوف عليه فيما يستقبله من أهوال يوم القيامة ، ولا يحزن على ما خلّفه من أولاد ولا على ما فاته من الحياة الدّنيا وزهرتها ، فلا يأسف عليها ؛ لأنه قد صار إلى ما هو خير له من ذلك.

وإنما قدّم الليل على النهار ، والسرّ على العلانية ، للإشارة إلى تفضيل صدقة السرّ على صدقة العلانية.

فقه الحياة أو الأحكام :

أباحت الآية دفع صدقة التطوع لأي إنسان كان. أما الصدقة المفروضة (الزكاة) فلا يجزئ بالإجماع دفعها لكافر ، لقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه الجماعة عن ابن عباس : «أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم ، وأردّها في فقرائكم». وكذلك لا يجوز في رأي الجمهور دفع زكاة الفطر لكافر ؛ لأنها طهرة للصيام ، فلا تصرف إلى الكافر ، كصدقة الماشية والنقود ، وقد قال النّبي ﷺ فيما رواه الدار قطني وغيره عن ابن عمر : «أغنوهم عن سؤال هذا اليوم» يعني يوم الفطر ، لتشاغلهم بالعيد وصلاة العيد ، وهذا لا يتحقّق في المشركين.

وجوّز أبو حنيفة رضي الله عنه صرف صدقة الفطر إلى غير المسلم من أهل الذّمة ، أخذا بعموم الآية في البرّ وإطعام الطّعام وإطلاق الصدقات.

ودلّت آية : ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ على أن ثمرة النفقة عائد في الواقع إلى المنفق ؛ لأنه سيجد جزاء أوفى على فعله ، وأكّد تعالى هذا المعنى في جملتين تاليتين وهما : ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾.

وأرشد قوله تعالى : ﴿وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ﴾ إلى أن النفقة المعتدّ بقبولها إنما هي ما كان ابتغاء وجه الله.

وأبانت آية : ﴿لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا ..﴾ صفات مستحقي النفقة وهم الفقراء ، وقد أوضحناها في التفسير المتقدّم. وأن من أدب السؤال عدم الإلحاح في المسألة.

والسؤال في الإسلام محرّم إلا لضرورة ، فلا يحلّ للقادر على الكسب بدليل قوله ﷺ . فيما رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه . : «لا تحلّ الصدقة لغني ، ولا لذي مرّة سوي». والمرّة : القوة ، والسّوي : سليم الأعضاء ، والمراد به القادر على الكسب.

ولا تحلّ المسألة إلا لثلاث حددهم النّبي ﷺ بقوله :

«المسألة لا تحلّ إلا لذي فقر مدقع ، أو لذي غرم مفظع ، أو لذي دمّ موجع» [١] ، والفقر المدقع : هو الشديد ، وهو الذي يلصق صاحبه بالدقعاء : وهي الأرض التي لا نبات فيها ، والغرم : ما يلزم أداؤه تكلّفا ؛ لا في مقابلة عوض ، كالكفالة والنفقة لإصلاح ذات البين ونحوه من أعمال البرّ ، كدفع مظلمة وحفظ مصلحة ، والمفظع : الشديد ، فلمن تحمل ذلك أن يسأل الإعانة على سداد ما غرم ، وأما ذو الدّم الموجع : فهو الذي يتحمل الدّية عن الجاني من قريب أو نسيب أو صديق لئلا يقتل ، فيتوجع لقتله.

والإلحاح في المسألة مع الغنى عنها حرام لا يحل ، أخرج مسلم عن النّبي ﷺ قال : «من سأل الناس أموالهم تكثّرا ، فإنما يسأل جمرا ، فليستقلّ أو ليستكثر» ، وأخرج أيضا عن ابن عمر أنّ النّبي ﷺ قال : «لا تزال المسألة بأحدكم ، حتى يلقى الله ، وليس في وجهه مزعة [٢] لحم» ، وروى أحمد وأبو داود وابن حبان عن سهل ابن الحنظلية عن رسول الله ﷺ قال : «من سأل وعنده ما يغنيه ، فإنما يستكثر من جمر جهنم ، قالوا : يا رسول الله ، وما يغنيه؟ قال : ما يغديه أو يعشيه».

أما إذا كان السائل محتاجا فلا بأس أن يكرّر المسألة ثلاثا إعذارا وإنذارا ، والأفضل تركه. فإن كان المسؤول يعلم بذلك ، وهو قادر على ما سئله ، وجب عليه الإعطاء ، وإن كان جاهلا به ، فيعطيه مخافة أن يكون صادقا في سؤاله ،

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) المزعة : القطعة ، قال القاضي عياض : قيل : معناه يأتي يوم القيامة ذليلا ساقطا لا وجه له عند الله. وقيل : هو على ظاهره ، فيحشر ووجهه عظم لا لحم عليه ، عقوبة له ، حين سأل بوجهه.

فلا يفلح في ردّه [١].

وقوله : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ ..﴾ مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته ، في جميع الأوقات ، من ليل أو نهار ، وفي جميع الأحوال سرّا أو علانية ، لكن تقديم الليل على النهار ، والسرّ على العلانية يومئ إلى تفضيل صدقة السرّ على صدقة العلن ، كما بيّنا.

الرّبا وأضراره على الفرد والجماعة

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)

---

(١) وأما حديث أحمد وأبي داود عن الحسين بن علي : «للمسائل حقّ وإن جاء على فرس» فهو مرسل ، وفيه مجهول.

وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾

الإعراب ::

﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ**﴾ الذين وصلته : مبتدأ ، ولا يقومون : خبره. ﴿**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ**﴾ مبتدأ وخبره ﴿**بِأَنَّهُمْ**﴾. ﴿**فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ**﴾ إنما ذكّر : جاء ، لثلاثة أوجه: الأول ـ حملا على المعنى ؛ لأن موعظة بمعنى «وعظ». الثاني ـ لأن تأنيث موعظة مجازي ليس بحقيقي. الثالث ـ لوجود الفصل بالهاء.

﴿**وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ**﴾ كان هاهنا تامة بمعنى حدث ووقع ، ولا خبر لها ، كقول الشاع : «إذا كان الشتاء فأدفئوني» أي حدث ووقع ، وذو عسرة : عام في حقّ كل أحد. ﴿**فَنَظِرَةٌ**﴾ خبر مبتدأ محذوف وتقديره : فشأنه أو حاله فنظرة.

﴿**وَأَنْ تَصَدَّقُوا**﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿**لَكُمْ**﴾. ﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ**﴾ يوما : منصوب ؛ لأنه مفعول ﴿**اتَّقُوا**﴾ ، وترجعون : جملة فعلية في موضع نصب ؛ لأنه صفة يوم. ورجع : يكون لازما ومتعديا ، يقال : رجع زيد ورجعته ، كما يقال : زاد الشيء وزدته ، ونقص ونقصته.

البلاغة :

﴿**إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا**﴾ الأصل أن يقال : الرّبا مثل البيع ، ولكنهم قلبوا التّشبيه ، فجعلوا المشبّه مكان المشبّه به ، على سبيل «التشبيه المقلوب».

ويوجد طباق بين لفظ ﴿**أَحَلَ**﴾ و ﴿**حَرَّمَ**﴾ ، وبين ﴿**يَمْحَقُ**﴾ و ﴿**يُرْبِي**﴾.

﴿**كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾ كلاهما من صيغ المبالغة ، أي عظيم الكفر شديد الإثم.

﴿**فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ**﴾ تنكير «حرب» للتهويل أي بنوع شديد من الحرب.

﴿**لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ**﴾ فيه ما يسمى «الجناس الناقص» لاختلاف شكل الحروف.

المفردات اللغوية :

﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا**﴾ أي يأخذون ، عبّر بالأكل عن الأخذ أو الانتفاع بالرّبا ؛ لأنه الغرض الأساسي منه ، أي أن أغلب حالات الانتفاع هو الأكل. ويشمل ذلك الآخذ والمعطي ،

لقوله ﷺ : «لعن رسول الله ﷺ آكل الرّبا وموكله وكاتبه وشاهديه ، وقال : هم سواء» [١].

والرّبا في اللغة : الزّيادة ، وفي الشرع : زيادة مال مخصوص بلا عوض في معاوضة مال بمال ، أو الزّيادة في المعاملة من بيع أو قرض بالنقود والمطعومات في القدر أو الأجل. وهذا في رأي الشافعية ، وحصره المالكية في ربا الفضل بالمقتات المدّخر ، وأما في ربا النّسيئة فهم كالشافعية. وعمه الحنفية والحنابلة على كل مكيل وموزون.

﴿لا يَقُومُونَ﴾ أي من قبورهم. ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾ يصرعه. ﴿الْمَسِ﴾ الجنون والصرع. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم. ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ وعظ وزجر. ﴿فَلَهُ ما سَلَفَ﴾ أي لا يسترد منه ما أخذه قبل النّهي. ﴿وَأَمْرُهُ﴾ في العفو عنه إلى الله. ﴿وَمَنْ عادَ﴾ إلى أكل الرّبا مشبّها له بالبيع في الحلّ.

﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا﴾ ينقصه ويذهب بركته. ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ﴾ يزيدها وينميها ويضاعف ثوابها.

﴿كَفَّارٍ﴾ مقيم على كفره بتحليل الرّبا. ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجر أي بأكله الرّبا ، ومصرّ على الإثم ومبالغ فيه. ﴿لا يُحِبُ﴾ أي يعاقبه.

﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ أي قوا أنفسكم عقابه. ﴿وَذَرُوا﴾ اتركوا. ﴿فَأْذَنُوا﴾ اعلموا ، من أذن بالشيء : علم به. ﴿بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ﴾ بغضب منه ، وحرب من رسوله : بمعاملتكم معاملة البغاة وقتالكم بالفعل في عصره ، واعتباركم أعداء له في كلّ عصر.

﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ رجعتم عنه. ﴿فَلَكُمْ رُؤُسُ﴾ أصول. ﴿لا تَظْلِمُونَ﴾ لا تأخذون الزّيادة من الغريم. ﴿وَلا تُظْلَمُونَ﴾ بنقص شيء من رأس المال.

﴿وَإِنْ كانَ﴾ وجد غريم. ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ معسر بفقد المال أو كساد المتاع. ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ له ، أي فعليكم تأخيره وانتظاره. ﴿مَيْسَرَةٍ﴾ وقت اليسر والرّخاء. ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ على المعسر بالإبراء. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير فافعلوه.

سبب النزول : نزول الآيتين (٢٧٨ ـ ٢٧٩):

أخرج أبو يعلى في مسنده وابن منده عن ابن عباس قال : بلغنا أن هذه الآية نزلت في بني عمرو بن عوف من ثقيف ، وفي بني المغيرة من بني مخزوم ، وكان بنو المغيرة يربون لثقيف [٢] ، فلما أظهر الله رسوله على مكة ، وضع يومئذ

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود بلفظ : «لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه».

(٢) أي فكانت الدّيون لبني عمرو من ثقيف ، انظر البحر المحيط : ٢ / ٣٣٩

الرّبا كلّه ، فأتى بنو عمرو وبنو المغيرة إلى عتاب بن أسيد ، وهو على مكة ، فقال بنو المغيرة : ما جعلنا أشقى الناس بالرّبا ، ووضع عن الناس غيرنا.

فقال بنو عمرو : صالحنا على أن لنا ربانا ، فكتب عتاب في ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية والتي بعدها.

وأخرج ابن جرير الطبري عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية في ثقيف ، منهم مسعود ، وحبيب ، وربيعة ، وعبد ياليل بنو عمرو وبنو عمير.

فقالت ثقيف : لا يد لنا ـ أي لا طاقة لنا ـ بحرب الله ورسوله ، وتابوا ، وأخذوا رؤوس أموالهم فقط.

نزول الآية (٢٨٠):

قال الكلبي : قالت بنو عمرو بن عمير لبني المغيرة : هاتوا رؤوس أموالنا ، ولكم الرّبا ندعه لكم ، فقالت بنو المغيرة : نحن اليوم أهل عسرة ، فأخرونا إلى أن تدرك الثمرة ، فأبوا أن يؤخروهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ الآية.

المناسبة :

كانت الآيات السابقة في النفقة أو الصدقة من المال بغير عوض ، تقرّبا إلى الله ، وطلبا لمرضاته ، وتثبيتا لأنفسهم على الإيمان. وهذه الآيات في المرابين الذين يأخذون المال بلا عوض يقابله ، والصدقة يبارك الله فيها ، وأما الرّبا فيمحقه الله ويبطل بركته ونماءه ، فالمناسبة بين الآيات التّضاد ؛ لأن الضدّ أقرب خطورا بالبال من غيره.

التفسير والبيان :

الذين يأخذون الرّبا ، ويستحلّونه حبّا في المال وعملا بالأهواء ، ويأكلون

أموال الناس بالباطل ومن غير عمل ولا جهد : مثلهم في الاضطراب والقلق وتعذيب الضمير والوجدان والانهماك في الأعمال والدّنيا كمثل المصروعين الذين تتخبطهم الشياطين ، وتمسّهم الجنّ ، وتضربهم وتصرعهم ، وهم في الآخرة ـ من وقت قيامهم من قبورهم إلى البعث والنشور ـ أشدّ تخبّطا واضطرابا وتثاقلا في حركاتهم ، بسبب ثقل المال الحرام الذي أكلوه من الرّبا ، مما جعلهم متميزين عن بقية الناس في تعثرهم وسقوطهم كلما همّوا بالنهوض والقيام ، وهذه صورة في غاية القبح والبشاعة ، ودليل على ما يحدثه النظام الرأسمالي الرّبوي في العالم المعاصر من هزّات وقلق واضطراب وخوف وأمراض عصبية ونفسية.

وجمهور المفسرين على أن المراد بقوله تعالى : ﴿لا يَقُومُونَ﴾ القيام من قبورهم يوم القيامة إلى بعثهم ونشورهم ، فعلامتهم أنهم لا يقومون منها إلا كما يقوم المصروع حال صرعة وتخبّط الشيطان له ، قال ابن عباس ـ فيما رواه ابن أبي حاتم ـ : «آكل الرّبا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق».

واقتصر جماعة (وهم ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة ومقاتل بن حيان) على القول : بأنهم لا يقومون يوم القيامة. وإنما عبّر بالقيام ؛ لأنه أبرز مظاهر النشاط في ممارسة العمل.

وذلك لأنهم فهموا خطأ وتصوروا باطلا أن الرّبا مثل البيع ، أي أن الزّيادة الرّبوية عند حلول أجل الدين آخرا كمثل أصل الثمن في أول العقد ؛ لأن العرب كانت لا تعرف إلا ذلك ، فكانت إذا حلّ دينها قالت للغريم (المدين) : إما أن تقضي ، وإما أن تربي ، أي تزيد في الدّين ، فحرّم الله سبحانه ذلك عليهم. وبعبارة أخرى : كما يجوز لك أن تبيع الشيء في الحال نقدا بدرهمين ، فلما ذا لا يصحّ أن تأخذ درهما في وقت الحاجة ، ثم تدفع في وقت اليسار درهمين؟! وسبب الزيادتين واحد وهو الأجل.

فردّ الله تعالى عليهم وأبان قياسهم الفاسد بقوله الحق : ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ ، وَحَرَّمَ الرِّبا﴾ أي أن البيع لا يكون إلا لحاجة وهو معاوضة لا غبن فيه ، والرّبا محض استغلال لحاجة المضطر ، وليس له مقابل ولا عوض [١] ، فقياسهم فاسد ، فمن يشتري شيئا من الطعام ويدفع ثمنه في الحال ، هو محتاج إليه في الأكل أو البذر أو أي انتفاع يصون به حياته وجسده ، أما من يرابي ، فلا يعقد عقد معاوضة ، وإنما يأخذ الزّيادة عن أصل الدّين وقت حلول أجل الوفاء بدون مقابلة شيء ، بل إن المصارف اليوم تشبه في عملها أفعال الجاهلية بتجميع الفوائد المتراكمة أو المركّبة ، وأخذ الفائدة وفائدة الفائدة مع مرور السنوات ، فصار حملة أسهم المصرف يأكلون الرّبا أضعافا مضاعفة ، وأخذ هذه الزّيادة وتوابعها ظلم موجب للإثم والمعصية الكبيرة.

فمن بلغه تحريم الرّبا ، فانتهى عمّا كان يفعله ، فله ما سلف أخذه من الرّبا في الجاهلية ، وأمره بالعفو عنه أو بالحكم فيه بالعدل ، وإسقاط التّبعة عنه يوم القيامة إلى الله تعالى.

ومن عاد إلى أخذ الرّبا بعد تحريمه ، فقد استوجب العقوبة ، واستحقّ الخلود في نار جهنم. والمراد بالخلود هنا : المكث الطويل إذا كان الفاعل مؤمنا ، وعبّر به تغليظا لفعله.

ثم نبّه الله تعالى على أضرار الرّبا وتبديد أثره ، فالرّبا يذهب الله بركته ، ولا ينميه ولا يزيده في الحقيقة والواقع ، وإن زاد المال بسببه في الظاهر ، فهو إلى ضياع وفناء. أما الصدقة : فالله ينميها ويبارك فيها ، ويضاعف ثوابها ، ففي الدنيا ما نقصت صدقة من مال قط ، والله يعوّض المتصدّق خيرا في بيع أو شراء أو ارتفاع ثمن أرض أو سلعة أو متاع ، وفي الآخرة يجد المتصدق ثواب عمله أضعافا

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٣٣٥

مضاعفة. ومن مظاهر النّماء المعنوية في الصدقة : أنّ المتصدّق محبوب عند الله وعند الناس ، فلا حسد ولا بغض ولا سرقة ولا إيذاء ، ومن مظاهر المحق الأدبية في الرّبا : أنّ المرابي مبغوض مكروه عند الله وعند الناس ، الكلّ حاسد له وشامت إن ألمّ به أمر مكروه ، والكلّ ينتظر له المصير المشؤوم ، وهذا أمر ملحوظ في واقع المرابين ، فسرعان ما يبدّدون المال ، وعاقبتهم تكون في صحّتهم وثروتهم سيئة للغاية ، فهم إن بدا عليهم الغنى وقتا ما ، فإن الفقر في النهاية هو المحدق بهم غالبا. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيّب ، ولا يقبل الله تعالى إلا طيّبا ، فإن الله تعالى يقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبه ، كما يربي أحدكم فلوه ، حتى تكون مثل الجبل».

هذا في نماء الصدقة ، وأمّا الرّبا فقد عبّرت الآية بالإضافة إلى محقه ، بأن الله يعاقب صاحبه ويبغضه ، ولا يرضى عن كل من يصرّ على ارتكاب المحرّمات ويحلّها ، ويبغض كل كفّار أي متماد مبالغ في كفر ما أنعم الله عليه ، فلا ينفق منه في سبيله ، ويبغض كل أثيم أي منهمك في ارتكاب الآثام أو المعاصي ، فيستغل حاجة المعسرين ، ففيه تغليظ أمر الرّبا وإيذان بأنه من فعل الكفار ، لا من فعل أهل الإسلام.

ثم قارن الله ـ كما هو شأن القرآن ـ فعل الكفار الآثمين بفعل المؤمنين الصالحين ، ليظهر الفرق واضحا بين الفريقين ، فيكون ذلك أدعى إلى امتناع الجاحد وامتثال المؤمن الصادق. فقال : إن الذين صدقوا بالله ورسوله وبما جاءهم من الأوامر والنواهي ، وعملوا الصالحات التي تصلح بها نفوسهم كمواساة المحتاجين ، وإنظار المعسرين ، وأقاموا الصلاة التي تذكّر المؤمن بربّه وتقرّبه إليه ، وأتوا الزكاة المفروضة التي تساهم في تخفيف الفقر ومحبة الناس لبعضهم ، لهم

ثواب كامل مدّخر عند ربّهم الذي تعهدهم بالرّعاية في شؤونهم ، ولا يخافون مما هو آت ، ولا يحزنون على ما فات.

وخصّ الله تعالى الصّلاة والزّكاة مع شمول الأعمال الصالحة لهما ، اهتماما بشأنهما ؛ لأنهما أعظم أركان العبادة العملية.

وبعد هذه المقارنة بين جزائي أكلة الرّبا والمؤمنين العاملين الصالحات ، جاء الأمر الصريح القاطع بترك الرّبا والتخلّص من مختلف آثاره ، ومضمونه : يا من اتّصفتم بالإيمان المتنافي مع كلّ حرام ، قوا أنفسكم عقاب ربّكم على ترك الأوامر وفعل المنهيات ، واتركوا ما بقي لكم من الرّبا عند الناس حالا ، وإياكم والتعامل به من جديد إن كنتم مؤمنين حقّا ، وإلا فلستم بمؤمنين كاملي الإيمان ؛ لأن الإيمان طاعة والتزام فلا إيمان مع المعاصي ، وهو سلام ورحمة وعطف وصلة ، فلا إيمان مع تعاطي الرّبا ؛ لأن الرّبا ظلم وجشع واستغلال يتنافى مع الإخاء والإنسانية. ثم ذكر الله الوعيد على المخالفة فقال :

فإن لم تتركوا الرّبا وما بقي منه. والخطاب للمؤمنين. فإنكم محاربون لله ولرسوله أي أعداء خارجون عن شريعته ، وهذا معنى قوله : ﴿فَأْذَنُوا﴾ أي اعلموا ، وحرب الله : غضبه وانتقامه من أكلة الرّبا ، في الدّنيا بإلحاق الضّرر ، وفي الآخرة بالعذاب في النار ، وحرب رسوله : معاداته ، ومن حارب الله ورسوله استحقّ القتال ، لتجاوز شرع الله وأحكامه.

وإن رجعتم عن الرّبا امتثالا لأمر الله ، فتستحقون رؤوس أموالكم كاملة فقط ، لا نقص ولا زيادة ، فلا تظلمون أحدا بأخذ الرّبا ، ولا تظلمون بنقص شيء من أموالكم.

ثم يأمر الله تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء ، فقرر ما يلي :

إن تعاملتم مع فقير معسر. ولم يتمكن من سداد دينه في الأجل المحدد ،

فأمهلوه وانتظروه إلى وقت اليسر والرّخاء ، حتى يتمكّن من أداء الدّين ، كقوله ﷺ فيما رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة : «من نفّس عن مؤمن كربة ، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدّنيا والآخرة» ، والعسرة : ضيق الحال من جهة عدم المال ، والنّظرة : التّأخير ، والميسرة : مصدر بمعنى اليّسر.

وأن تتصدّقوا على المعسر أو الغريم بإبرائه من الدّين كله أو بعضه ، فهو خير لكم من الإنظار والتّأجيل ، وأكثر ثوابا عند الله ، إن كنتم تعلمون أنه خير ، ومن علم بشيء عمل به. وفي هذا حثّ على السماحة للمدين المعسر ، لما فيه من تعاون وتعاضد وتراحم ، كقوله ﷺ فيما رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي موسى : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا» ، وقوله أيضا ـ فيما رواه الطّحاوي عن بريدة بن الخصيب ـ : «من أنظر معسرا كان له بكل يوم صدقة ، ثم قلت : بكل يوم مثله صدقة ؛ قال : بكل يوم صدقة ما لم يحلّ الدّين ، فإذا أنظره بعد الحلّ ، فله بكل يوم مثله صدقة».

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «من أراد أن تستجاب دعوته ، وأن تكشف كربته ، فليفرّج عن معسر».

وروى مسلم عن أبي مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «حوسب رجل ممن كان قبلكم ، فلم يوجد له من الخير شيء ، إلّا أنه كان يخالط الناس ، وكان موسرا ، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر ، قال : قال الله عزّوجلّ : نحن أحقّ بذلك منه ، تجاوزوا عنه». وفي حديث طويل لأبي اليسر (كعب بن عمرو) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول فيما رواه أحمد ومسلم : «من أنظر معسرا أو وضع عنه ، أظله الله في ظلّه» ، وإنظار المعسر : تأخيره إلى أن يوسر ، والوضع عنه : إسقاط الدّين عن ذمّته.

ثم أمر الله تعالى بالتّقوى أمرا عامّا ونبّه خلقه على محاسبتهم يوم القيامة ،

وحدد مصير المتّقين وذكرهم بزوال الدنيا وما فيها من أموال ، ومضمون ذلك : اتّقوا واحذروا يوما عظيما ترجعون فيه إلى الله تعالى ، فيحاسبكم على ما عملتم ، ويجازيكم على ما كسبتم من خير أو شرّ ، فيثيبكم على الخير ويعاقبكم على الشّر ، ويجازى كل امرئ بما يستحق من خير أو شرّ ، ولا تظلمون فلا ينقص من ثوابكم شيئا ، ولا يزاد في عقوبتكم ، كقوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها ، وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٤٧].

قال ابن جريج : إنّ آية ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً ...﴾ نزلت قبل موت النّبي ﷺ بتسع ليال ، ثم لم ينزل بعدها شيء ، وقال ابن جبير ومقاتل : بسبع ليال ، وروي : بثلاث ليال ، أو بثلاث ساعات ، وقال عليه الصلاة والسلام : «اجعلوها بين آية الرّبا وآية الدّين».

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : «آخر ما نزل من القرآن كله : ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً ..﴾ وعاش النّبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ، ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول».

وروى النسائي وغيره عن عبد الله بن عباس قال : آخر شيء نزل من القرآن : ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ فكان بين نزولها وموت النّبي ﷺ واحد وثلاثون يوما.

مراحل تحريم الرّبا :

حرّم الله الرّبا في القرآن كتحريم الخمر في أربعة مواضع ، وسار التّحريم في مراحل أربع ، الموضع الأول منها مكي ، والباقي مدني.

١ ـ ففي مكّة أنزل الله : ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ ، فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ﴾ [الروم ٣٠ / ٣٩] ، وهذا يقابل آية الخمر المكيّة : ﴿وَمِنْ ثَمَراتِ

النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ [النحل ١٦ / ٦٧] ، وفي كلا الآيتين تمهيد للتحريم وتعريض به وإيماء إلى ضرورة تجنّبه.

٢ . ثم قصّ علينا القرآن في المدينة سيرة اليهود الذين حرّم عليهم الرّبا فأكلوه وعاقبهم الله بمعصيتهم ، فقال : ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ..﴾[1] [النساء ٤ / ١٦١] ، وهذا نظير المرحلة الثانية في تحريم الخمر : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ : فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما﴾ [البقرة ٢ / ٢١٩] ، وكلا الآيتين إنذار بالتّحريم ، وتعريض به ، وإيذان بعقوبة المخالف.

٣ . ثم نهى تعالى عن الرّبا الفاحش الذي يتزايد حتى يصير أضعافا مضاعفة ، وهو ما كان في الجاهلية : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً ..﴾ [آل عمران ٣ / ١٣٠]. وهذا يشابه المرحلة الثالثة من مراحل تحريم الخمر : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ ..﴾ [النساء ٤ / ٤٣] ، فكلا الآيتين نهي جزئي صريح ، إلا أنّ آية الرّبا نهي عن صورة فاحشة من صور الرّبا وهو الرّبا الجاهلي ، وآية الخمر نهي جزئي عن تناول المسكر وقت إرادة الصلاة.

٤ . ثم جاء التّحريم القاطع لكلّ من الرّبا والخمر ، أما الرّبا فقد نهى الله عن كل ما يزيد عن رأس مال المدين : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ..﴾ الآيات. وأما الخمر فقد أمر الله باجتنابه في كل الأحوال : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة ٥ / ٩٠].

---

(١) قال القرطبي : ولم يرد به الرّبا الشرعي الذي حكم بتحريمه علينا ، و ٧ نما أراد المال الحرام ، كما قال تعالى : أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ أي المال الحرام من الرّبا وما استحلوه من أموال غير اليهود.

وقوله تعالى : ﴿وَحَرَّمَ الرِّبا﴾ اللام للجنس أي حرّم جنس الرّبا ، وليست للمعهود الذهني وهو ربا الجاهلية أو ربا النّسيئة ، وإنما يفيد النّص بإلاقه تحريم جميع أنواع الرّبا ، مثل إباحة أنواع البيع في قوله تعالى : ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام :

وفيه بيان نوعي الربا وسبب تحريمه :

تضمّنت الآيات أمورا خمسة : إباحة البيوع ، وتحريم الرّبا والحملة الشديدة على أكلة الرّبا ، والصبر على المعسر (نظرية الميسرة) ، وجزاء الإيمان والعمل الصالح ، والأمر بالتقوى والتذكير بزوال الدنيا وإتيان الآخرة.

الموضوع الأول :

إباحة سائر البيوع التي ليس فيها نهي شرعي عنها ، والبيع : هو تمليك مال بمال بإيجاب وقبول عن تراض منهما.

الموضوع الثاني :

تحريم الرّبا وإعلان الحرب على أكلته من الله ورسوله : والرّبا في اللغة : الزيادة مطلقا ، يقال : ربا الشيء يربو : إذا زاد. وفي الشرع : فضل مال بدون عوض في معاوضة مال بمال. والرّبا نوعان : ربا النّسيئة وربا الفضل.

وربا النّسيئة : هو الزيادة الفعلية في أحد العوضين بسبب الأجل ، أو تأخير تسليم أحد العوضين لأجل بدون زيادة. ويكون إما في القرض أو في البيع. وصورته في القرض : أن يتمّ إقراض قدر معيّن من المال لزمن محدود كسنة أو شهر ، مع اشتراط زيادة عند الوفاء بسبب امتداد الأجل. وهذا هو الذي كان متعارفا في الجاهلية بين العرب ، لا يعرفون غيره ، فكانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كل شهر

قدرا معيّنا ، فإذا حلّ أجل الدّين طولب المدين بكلّ الدّين ، فإذا تعذّر الأداء زادوا في الحقّ والأجل ، قائلين : إما أن تقضي أو تربي ، أي تزيد الدّين مع زيادة الأجل ، فكان الغريم يزيد في عدد المال ، ويصبر الطالب عليه.

وهذا هو المستعمل الآن في المصارف المالية ، وهو الذي نصّ القرآن الكريم على تحريمه. وقد اتّفق العلماء على أنّه محرّم ، وأنه من الكبائر ، وأنّ التّحريم لا يقتصر على آخذ الرّبا ، وإنما يشتمل الدافع والكاتب والشاهدين ، للحديث المتقدم الذي رواه أحمد وغيره عن ابن مسعود : «لعن الله آكل الرّبا وموكله وكاتبه وشاهده».

وأما ربا النّسيئة في البيوع : فمثاله : بيع رطل من القمح برطل ونصف يدفع للبائع بعد شهرين ، أو بيع صاع من القمح بصاعين من الشعير يدفعان له بعد ثلاثة أشهر ، فهو حرام بسبب الزيادة الواضحة ، وقد يكون بدون زيادة وهو حرام أيضا كبيع رطل من التمر ناجز تسليمه برطل آخر من التمر مؤجل التسليم ، ولا يلجأ لهذا البيع عادة إلا بسبب كون الرّطل الحالي أكثر قيمة في الواقع من المؤخر تسليمه ؛ لأن المعيّن خير من الدّين في الذّمة ، والمعجّل أكثر قيمة من المؤجّل. وهذا النوع حرام لقوله ﷺ فيما يرويه الشيخان من حديث أسامة : «لا ربا إلا في النسيئة».

وربا الفضل في البيوع : هو أن يباع مال مخصوص مع زيادة أحد العوضين على الآخر ، كبيع رطل من القمح أو العسل أو التّمر برطلين ، وبيع درهم بدرهمين. وهو حرام للحديث الصحيح الذي رواه أبو سعيد الخدري وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما عن النّبي ﷺ . وأختار هنا ما رواه مسلم . قال : «الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبرّ بالبرّ ، والشّعير بالشّعير ، والتّمر بالتّمر ، والملح بالملح ، مثلا بمثل ، سواء بسواء ، يدا بيد ، فإذا اختلفت هذه

الأجناس ، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد» أي مقابضة. وهذا الحديث حينما بلغ ابن عباس الذي كان لا يحرّم إلا ربا النّسيئة ، ويجيز ربا الفضل ، رجع عن قوله. وأجيب عن حديث : «إنما الرّبا في النّسيئة» بأن القصد منه بيان الرّبا الأشد خطورة ، الأكثر وقوعا ، أو أنه محمول على حالة التفاضل بين جنسين مختلفين كبيع رطل من القمح برطلين من الشّعير إلى أجل ، فإن النّسيئة في ذلك حرام ، وأما التفاضل في الحال فليس حراما.

وقد يكون ربا الفضل في القرض : وهو الزيادة المشروطة للدّائن بغير مقابل ، كأن أقرض خالد عليّا مائة دينار على أن يدفع له في العام القادم مائة وعشرة.

والخلاصة : أن الآية دلّت بإطلاقها عن التقييد بربا النّسيئة على تحريم كل من ربا النّسيئة الجاهلي وربا الفضل أيضا بسبب الزيادة ، ويحرم أيضا الصلح على خمسمائة حالّة (معجّلة) مثلا مع من عليه ألف مؤجّلة ، فإن هذا في معنى ربا الجاهلية الذي كان قرضا مؤجّلا بزيادة مشروطة ، فكانت الزّيادة عوضا عن الأجل ، وفي مسألة الصلح انتفع المدين بباقي الدّين مقابل إسقاط الأجل ، فيصبح منتفعا بزيادة (فضل) من المال بدون عوض مالي.

ومن أنواع الرّبا : بيع الدّين بالدّين ، روى الدارقطني عن ابن عمر عن النّبي ﷺ : «أنه نهى عن بيع الكالئ بالكالئ».

والخلاصة : أن قوله تعالى : ﴿وَحَرَّمَ الرِّبا﴾ مجمل متوقف على ورود البيان ، فمن الرّبا ما هو بيع ، ومنه ما ليس ببيع وهو ربا الجاهلية : وهو القرض المشروط فيه الأجل وزيادة مال على المستقرض.

وهل تحريم الرّبا مقصور على الأصناف السّتّة المذكورة في الحديث السابق ، أو يقاس عليها ما في معناها؟

قال نفاة القياس وهم الظاهرية : إن الحرمة مقصورة على هذه الأصناف الستّة ، لا يزاد عليها.

وقال جمهور الفقهاء منهم أئمة المذاهب الأربعة : إن الحرمة غير مقصورة على هذه الأصناف ، وإنما تتعدّاها إلى كل شيء هو في معناها ، لأن النّص معلل بعلة مفهومة منه ، فتتعدى الحرمة إلى كلّ ما توجد فيه العلّة ، إذ لا تعقل التّفرقة بين متماثلين ، وإنما نصّ الحديث على أصول الأشياء في عصر النّبوّة.

فقال الحنفية ، والحنابلة في أشهر الروايات الثلاث عندهم : إنّ العلّة هي اتّحاد هذه الأصناف في الجنس والقدر ، أي الكيل والوزن ، فمتى اتّحد العوضان في الجنس ، والقدر الذي يباع به من كيل أو وزن ، حرم الرّبا بنوعيه ، كبيع الحنطة بالحنطة ، والحديد بالحديد ، وإذا عدما معا حلّ التفاضل والنّسيئة كبيع الحنطة بالدراهم إلى أجل ، وإذا عدم القدر واتّحد الجنس حلّ التفاضل دون النّسيئة ، كتفاحة بتفاحتين ، وإذا عدم الجنس واتّحد القدر حلّ الفضل دون النّسيئة أيضا كبيع الحنطة بالشّعير.

وقال الشافعية ، والمالكية في ظاهر المذهب : علّة تحريم الزيادة في الذهب والفضة هي النقدية (أي الثمنية ـ كونهما ثمنا للأشياء عادة).

والعلّة في الطّعام في ربا النّسيئة : هي مجرّد المطعومية ، لكن عند المالكية : على غير وجه التداوي ، وعند الشافعية : ولو بقصد التداوي ، فيحرم هذا الرّبا في الخضار والفاكهة ، وأما المأخوذ تداويا فلا ربا فيه عند المالكية ، وفيه الرّبا عند الشافعية.

وأما علّة ربا الفضل : فقد اختلف هذان المذهبان فيها ، فذهب المالكية إلى أنّ العلّة هي اتّحاد الجنس مع الاقتيات والادّخار ، فيجري هذا الرّبا في الحبوب كلّها والزّبيب واللحوم والألبان وما يصنع منها ، ولا يجري في الخضروات والفواكه

لعدم قابليتها الادّخار ، وفي معنى الاقتيات : إصلاح القوت كملح ونحوه من التوابل والخلّ والبصل والثوم والزيت والسّمن.

وذهب الشافعية إلى أن العلة في الطعام : هي اتّحاد الجنس والطعمية أي كونها مطعومة ، والمطعوم يشمل كل ما يصلح الجسد مما يؤخذ اقتياتا أو تفكها أو تداويا.

واتفق الجمهور على منع بيع التمرة الواحدة بالتمرتين والحبة الواحدة من القمح بحبتين ، إذ لا فرق بين كثرة المال الربوي وقلته ، وأجاز الحنفية هذا البيع ، لأنه لا مكيل ولا موزون ، فجاز فيه التفاضل. وقال الجمهور : عقد الربا مفسوخ لا يجوز بحال ، فيجب فسخ صفقة الربا ولا تصح بحال. وقال الحنفية : بيع الربا فاسد ، لأنه بيع جائز بأصله من حيث هو بيع ، ممنوع بوصفه من حيث هو ربا ، فيسقط الربا ويصح البيع.

ويلاحظ أن أكثر البيوع الممنوعة إنما منعت بسبب وجود معنى الزيادة إما في عين المال ، وإما في منفعة لأحدهما من تأخير ونحوه. وهناك بيوع ممنوعة ليس فيها معنى الزيادة ، كبيع الثمرة قبل بدو صلاحها ، وكالبيع وقت النداء لصلاة الجمعة.

ويلاحظ أيضا أن الجودة والصنعة في الأموال الربوية ملغاة ، فجيدها ورديئها سواء ، سدا للذرائع ، ولا ينظر إلى الصنعة ، فالدينار الذهبي المسكوك والدرهم الفضي المسكوك والذهب والفضة غير المسكوكين (التبر) سواء ، وكذا الذهب أو الفضة غير المصوغ والمصوغ حليا سواء أيضا ، خلافا لما كان يراه معاوية بن أبي سفيان ، فقد اتفق العلماء على أن ما ذهب إليه معاوية غير جائز ، وليس مستبعدا أن يكون قد خفي عليه ما قد علمه أبو الدرداء وعبادة اللذان جادلا معاوية في خطأ رأيه ، لما ثبت عن النبي ﷺ من تحريم التفاضل في بيع الذهب والفضة والمطعومات.

وبناء عليه يجب بيع الشيء بجنسه بوزن مساوله ، وإن اختلفا في الصياغة وعدمها ، ويصح بيع الذهب أو الفضة بالنقود الورقية الحالية مع التفاضل ، لاختلاف الجنس ، بشرط التقابض في مجلس العقد لكونهما نقدين ، سدا للذرائع ، وبسبب تفاوت سعر الذهب والفضة ارتفاعا وانخفاضا بين وقت وآخر ، فما يحدث في أسواق الصاغة من بيع وشراء كيلو ذهب مثلا أو سبيكة بوزن معين وبسعر معين دون قبض المبيع ودفع الثمن نقدا : لا يجوز شرعا ، درءا للمنازعات.

سبب تحريم الربا :

الإسلام دين الجهد والعمل ، والتعاطف والتراحم ، والود والحب والوئام ، والصفاء وسلامة النفوس من الأحقاد ، والحق والعدل.

فلا يجيز كسبا بغير عمل ، ويرغب في الصدقة والقرض الحسن ، ويحرم استغلال حاجة الضعيف ، ويحظر كل ما يؤدي إلى العداوة والبغضاء والمنازعات ، ويستأصل الحقد والحسد والجشع والطمع من النفوس ، ويوجب أخذ المال من طريق مشروع حلال لا ظلم فيه ، ويكره تكديس الثروة في أيدي فئة قليلة من الناس تتحكم في مصائر الآخرين وأقواتهم وتتلاعب باقتصاديات الدولة والأمة.

لهذه المبادئ السامية كلها ، وحفاظا عليها حرم الله الربا للأضرار التالية :

١ ـ إنه يعوّد الإنسان على التكسب بدون عمل أو حرفة ، كالتجارة أو الصناعة أو الزراعة أو المهنة الشريفة التي اقتضتها ظروف الحياة المعاصرة مثل الطبابة والهندسة والصيدلة والمحاماة بشرط الدفاع عن الحق والعدل وتحامي الدفاع بالباطل ، أو تبرئة الجاني أو المجرم. وهذا يجعل المرابين مصاصين لدماء الفئة العاملة الكادحة ، ويعتمد في عيشه ودخله على مورد بغير جهد ، وذلك مما يستفيده من فوائد الأموال المودعة في المصارف الربوية للإقراض بفائدة.

٢ ـ والربا هو مجرد كسب من غير عوض ، والشرع يحرم أخذ المال ظلما بغير حق شرعي ، ويمنع استغلال القوي الضعيف.

٣ ـ إنه يؤدي إلى زرع الأحقاد والحسد في قلوب الفئة الفقيرة على الأغنياء ، ويولد العداوة والبغضاء ، ويثير المشاحنات والخصومات بين الناس ، إذ هو يقضي على عاطفة التراحم والتعاون ، ويجعل الإنسان عبدا للمال ، وكأنه ذئب ينقض على ما في جيوب الناس بأسلوب هادئ ماكر خبيث دون إثارة أو معرفة الغريم.

٤ ـ إنه يقضي على وشائج الصلة بين الناس ، ويقطع المعروف بينهم بالقرض الحسن ، ويسلب مال الفقير أو المحتاج وهو في أشد حالات الحاجة والعوز ، لتسيير شؤون عمله وحياته.

٥ ـ إن عاقبته العامة تدمير القيم الإنسانية وتوليد الصراع بين الأفراد ، والتحكم في الاقتصاد العام للأمة ، وعاقبته الخاصة الوقوع في الخراب والفقر والحرمان في نهاية الأمر ، إذ يمحق الله الربا ، ويربي الصدقات ، كما بينا. والخراب يشمل المرابي ، كما يشمل دافع الربا ، فكثير ما أدى اقتراض المزارعين من المصارف الزراعية إلى بيع أراضيهم لتسديد القروض المصرفية وفوائدها ، لأن الزراعة كثيرة النفقات ، معرضة للآفات الزراعية ، والقحط والجدب.

وكذلك أصحاب المعامل وتجار المحلات إذا اقترضوا من المصارف لا يتمكنون غالبا من سداد الديون ، ويصبحون عاجزين عنها وبخاصة في السنوات الأولى من العمل والإنتاج ، فكيف يسددون أصل الدين مع ما يضم إليه من فوائد؟! والفوائد المصرفية تتضاعف مع مرور السنوات ، فتصبح الفوائد تكاد تعادل أصل القرض.

ولا فرق في تحريم الربا بين ما يسمى بالقروض الإنتاجية ، والقروض

الاستهلاكية ، إذ لا يجوز الاقتراض بفائدة إلا لضرورة قصوى ، وهي الحالة التي يغلب على الظن فيها الوقوع في الهلاك أو التسيب في الشارع ونحو ذلك من الحالات النادرة التي لا تنطبق على ما يدعيه أصحاب المعامل والمحلات التجارية من ضرورات ، وهم يقصدون بذلك إما توسيع دائرة العمل والنشاط ، أو دعم المصنع بآلات حديثه مثلا ، وكل هذه المزاعم لا تدخل في دائرة الضرورة بحسب ضوابطها الشرعية ، ولا تحل الحرام القطعي التحريم.

والربا حرام ويبطل ما قبض منه ، ولا يجوز أخذ ما زاد على أصل رأس المال ، قلّ أو كثر ، وقد دلت الآية على ذلك : ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ﴾ ودلت أيضا على أن أكل الربا والعمل به من الكبائر ، لكونه سببا في معاداة الله ورسوله ، جاء رجل إلى مالك بن أنس رضي الله عنه ، فقال : يا أبا عبد الله ، إني رأيت رجلا سكرانا يتعاقر ، يريد أن يأخذ القمر ، فقلت : امرأتي طالق إن كان يدخل جوف ابن آدم أشرّ من الخمر ، فقال : ارجع حتى أنظر في مسألتك. فأتاه من الغد ، فقال له : ارجع حتى أنظر في مسألتك ، فأتاه من الغد ، فقال له : امرأتك طالق ، إني تصفحت كتاب الله وسنة نبيه ، فلم أر شيئا أشرّ من الربا ، لأن الله أذن فيه بالحرب.

وسبيل التوبة مما بيد الإنسان من الأموال الحرام إن كانت من ربا ، فليردّها على من أربى عليه ، ويطلبه إن لم يكن حاضرا ، فإن أيس من وجوده فليتصدق بذلك عنه. وإن أخذه بظلم فليفعل كذلك في أمر من ظلمه.

الموضوع الثالث ـ نظرية الميسرة :

لما حكم جل وعز لأرباب الربا برؤوس أموالهم عند المدينين ، حكم في ذي العسرة بالانتظار إلى حال الميسرة ، وذلك أن ثقيفا لما طلبوا أموالهم التي لهم على بني المغيرة ، شكوا ـ أي بنو المغيرة ـ العسرة ، كما بينا في سبب النزول ، وقالوا :

ليس لنا شيء ، وطلبوا الأجل إلى وقت ثمارهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾.

ودل قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ مع قوله : ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ﴾ على ثبوت حق المطالبة لصاحب الدين (الدائن) على المدين ، وجواز أخذ ماله بغير رضاه ، ودل أيضا على أن الغريم متى امتنع من أداء الدين مع الإمكان ، كان ظالما ، فإن الله تعالى يقول : ﴿فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ﴾ فجعل له المطالبة برأس ماله ، فإذا كان له حق المطالبة ، فعلى من عليه الدين (المدين) لا محالة وجوب قضائه.

ومن كثرت ديونه وطلب غرماؤه مالهم ، فللحاكم أن يخلعه عن كل ماله ويترك له ما كان من ضرورته ، والمشهور عن مالك أنه يترك له كسوته المعتادة ، ما لم يكن فيها فضل ، ولا ينزع منه رداؤه إن كان ذلك مزريا به. وفي ترك كسوة زوجته وفي بيع كتبه إن كان عالما خلاف. ولا يترك له مسكن ولا خادم ، ولا ثوب جمعة ما لم تقلّ قيمتها ، والأصل في هذا قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾.

ويحبس المفلس في قول مالك وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم حتى يتبين عدمه. ولا يحبس عند مالك إن لم يتّهم أنه غيّب ماله ، ولم يتبين لدده أي خصومته ومماطلته. وكذلك لا يحبس إن ثبت عسره ، للآية المتقدمة : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ..﴾.

وقوله : ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ﴾ يدل على أن الله تعالى ندب بهذه الألفاظ إلى الصدقة على المعسر ، وجعل ذلك خيرا من إنظاره. وقد أوردت سابقا الأحاديث الكثيرة الدالة على فضل إنظار المعسر وإبرائه من الدين ، ومدى الثواب العظيم في ذلك عند الله تعالى.

الموضوع الرابع ـ جزاء الإيمان والعمل الصالح :

مدح الحق تعالى المؤمنين بربهم ، المطيعين أمره ، المؤدين شكره ، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، مخبرا عما أعد لهم من الكرامة ، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون ، ليكون ذلك في خلال المقارنة مع أكلة الربا أدعى إلى الامتثال ، والبعد عن الربا الحرام ، وفي هذا تعريض بأكلة الربا وأنهم لو كانوا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لكفوا عن تعاملهم الربوي.

والخلاصة : أن الله تعالى أتبع وعيد المرابي بهذا الوعد ، وإنما خص الصلاة والزكاة بالذكر مع اندراجهما في الصالحات لمنزلتهما العظمى في الإسلام.

الموضوع الخامس ـ التحذير من أهوال يوم القيامة :

ختم الله تعالى آيات الربا بموعظة بالغة ، إذا وعاها المؤمن هانت عليه الدنيا ومطامعها وسامح بالمال والنفس ، فالدنيا زائلة ، والأموال فانية ، والآخرة آتية خالدة باقية ، والحساب أمام الله أمر حتمي ، يجازي كل امرئ بما عمل من خير أو شر ، دون بخس أو ظلم أو نقصان ، فليحذر المؤمن عقوبة ربه ، وليتق الله بامتثال الأوامر الإلهية ، واجتناب النواهي ومن أخطرها الربا ، فمن التقى وحذر العقوبة لقي خيرا ، ونال سعادة دائمة في جنان الخلد الباقية.

آية الدين وآية الرهن

توثيق الدين المؤجل بالكتابة أو الشهادة أو الرهن

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ

مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى وَلا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا وَلا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَأَدْنى أَلاَّ تَرْتابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوها وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كاتِباً فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾

الإعراب :

﴿كَما عَلَّمَهُ اللهُ﴾ كما : في موضع نصب متعلق بفعل ﴿لْيَكْتُبْ﴾ أو بقوله : ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ أو بقوله : ﴿يَأْبَ﴾. ﴿وَلِيُّهُ﴾ الضمير يعود على المدين. ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ﴾: إما خبر مبتدأ محذوف وتقديره : فالشاهد رجل وامرأتان ، وإما مرفوع بتقدير فعل وتقديره : فليكن رجل وامرأتان. ويكون «فليكن» تامة. و ﴿مِنْ رِجالِكُمْ﴾ : متعلق باستشهدوا ، ومن ابتدائية ، أو متعلق بمحذوف صفة لشهيدين ، ومن تبعيضية ، أي بعض رجالكم المسلمين الأحرار ، لأن الكلام في معاملاتهم.

﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ﴾ في موضعه ثلاثة أوجه : الجر والنصب والرفع ، فالجر : على أنه بدل من قوله : ﴿مِنْ رِجالِكُمْ﴾ والنصب على أنه صفة لشهيدين ، والرفع على أنه وصف لقوله : رجل وامرأتان.

﴿أَنْ تَضِلَ﴾ أن : مصدرية في موضع نصب بتقدير فعل ، وتقديره : يشهدون أن تضل إحداهما ، وقرئ بكسر إن الشرطية ورفع : تذكر.

﴿صَغِيراً أَوْ كَبِيراً﴾ منصوبان على الحال من هاء ﴿تَكْتُبُوهُ﴾ وهي عائدة على الدين.

﴿إِذا ما دُعُوا﴾ ما : زائدة.

﴿أَلَّا تَرْتابُوا﴾ أن وصلتها في موضع نصب بأدنى ، وتقديره : وأدنى من ألا ترتابوا ، فحذف حرف الجر فاتصل به.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً﴾ أن وصلتها في موضع نصب على الاستثناء المنقطع. وتجارة : بالنصب خبر تكون الناقصة ، واسمها مقدر فيها ، والتقدير : إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة. وعلى قراءة الرفع : ﴿تَكُونَ﴾ تامة أي تقع.

﴿وَلا يُضَارَّ كاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ﴾ : الكاتب والشهيد إما فاعلان ليضارّ وهو الأحسن ، فيكون أصله : يضارر : بكسر الراء. وإما نائب فاعل فيكون أصله : يضارر بفتحها ، فأدغمت الراء الأولى في الثانية.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ حال مقدرة ، أو مستأنف.

﴿فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ وقرئ «فرهنٌ» وكلاهما جمع رهن عند الأكثرين ، وهو مبتدأ ، وخبره مقدّر ، وتقديره : فرهان مقبوضة تكفي من ذلك.

﴿اؤْتُمِنَ﴾ أصله أؤتمن على وزن افتعل ، إلا أنه أبدلت الهمزة الثانية واوا لسكونها وانضمام ما قبلها ، فصار : اؤتمن.

﴿آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ فيه ثلاثة أوجه : أن يكون آثم خبر «إن» وقلبه فاعل له ، أو أن يكون ﴿قَلْبُهُ﴾ مبتدأ ، و ﴿آثِمٌ﴾ خبره ، والجملة منهما في موضع رفع خبر إن ، أو أن يكون ﴿آثِمٌ﴾ خبر إن ، و ﴿قَلْبُهُ﴾ : بدل من الضمير المرفوع في ﴿آثِمٌ﴾ ، بدل بعض من كل.

البلاغة :

توجد أنواع من الجناس في قوله ﴿تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ و ﴿اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾ و ﴿اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ﴾ و ﴿يُعَلِّمُكُمُ﴾ و ﴿عَلِيمٌ﴾.

ويوجد طباق في قوله : ﴿صَغِيراً أَوْ كَبِيراً﴾ و ﴿أَنْ تَضِلَ﴾ و ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ تضل : أي تنسى.

وتشتمل الآية على إطناب في قوله : ﴿فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كاتِبٌ﴾ وفي ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ... فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وفي ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى﴾.

وتكرار لفظ الجلالة في جمل ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لتربية المهابة في النفس وتعظيم الأمر.

﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ الجمع بين لفظ الجلالة والوصف بالربوبية : للمبالغة في التحذير.

المفردات اللغوية :

﴿تَدايَنْتُمْ﴾ : داين بعضكم بعضا أي تعاملتم بدين مؤجل ﴿بِدَيْنٍ﴾ : أي ببيع مؤجل أو سلم أو قرض ، والدين : هو المال الذي يثبت في الذمة ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الأجل : هو الوقت المحدد لانتهاء شيء ، والمسمى : الموعد المعلوم أو المحدود بالأيام أو الشهور أو السنين ، ويشمل الدين المؤجل : بيع الأعيان إلى أجل ، والسلم (السلف) ، والقرض ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ ندبا استيثاقا للدين ودفعا للنزاع ﴿وَلْيَكْتُبْ﴾ سند الدين أو كتابه ﴿بِالْعَدْلِ﴾ بالحق في كتابته ، أو بالتسوية بين الجانبين ، من غير ميل إلى أحدهما ، ولا زيادة أو نقص في المال والأجل.

﴿وَلا يَأْبَ﴾ أي لا يمتنع ﴿كَما عَلَّمَهُ اللهُ﴾ أي على الطريق التي علمه الله إياها من كتابة الوثائق ، فلا يبخل بها ولا يقصر في شيء ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ أي وليلق على الكاتب ما يكتبه ، والإملال والإملاء بمعنى واحد ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ أي الدين ، والمراد به هنا المدين ، لأنه المشهود عليه ، فيقر بكامل الحق ، ليعلم ما عليه.

﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ في إملائه ﴿وَلا يَبْخَسْ﴾ لا ينقص من الحق شيئا ﴿فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً﴾ مبذرا ﴿ضَعِيفاً﴾ عن الإملاء لصغر أو كبر بأن كان صبيا أو شيخا هرما ﴿أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ بأن كان جاهلا أو أخرس أو نحو ذلك.

﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ متولي أمره من والد ووصي وقيّم ومترجم ﴿وَاسْتَشْهِدُوا﴾ اطلبوا أن يشهد على الدين شاهدان ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ﴾ لدينه وعدالته.

﴿أَنْ تَضِلَ﴾ لأجل أن تنسى أو تخطئ إحداهما الشهادة لعدم ضبطها وقلة عنايتها فتذكر إحداهما (الذاكرة) الأخرى (الناسية) ، وجملة «تذكر» للتعليل أي لتذكر إن ضلت. وقرئ بكسر إن شرطية ، ورفع فعل «تذكر» المستأنف ، وهو جواب الشرط ، والشرط والجزاء يكونان صفة للنكرة : ﴿وَامْرَأَتانِ﴾. ﴿دُعُوا﴾ إلى تحمل الشهادة وأدائها ﴿وَلا تَسْئَمُوا﴾ تملوا وتضجروا من ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ أي ما شهدتم عليه من الحق ، لكثرة وقوع ذلك. ﴿إِلى أَجَلِهِ﴾ وقت حلول أجله.

﴿ذلِكُمْ﴾ أي الكتب ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ﴾ أي أعون على إقامتها وأثبت لها ، لأنه يذكّرها. ﴿وَأَدْنى أَلَّا تَرْتابُوا﴾ أي أقرب إلى ألا تشكوا في قدر الدين وأجله

﴿تُدِيرُونَهَا﴾ أي تقبضونها ولا أجل فيها ، والمراد تتعاملون بها يدا بيد. ﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ﴾ نهي عن وقوع الضرر من الجانبين ، فلا يضر الكاتب والشاهد صاحب الحق ومن عليه الحق بتحريف أو زيادة أو نقص ، أو امتناع من الشهادة أو الكتابة ، ولا يضرهما صاحب الحق بتكليفهما ما لا يليق في الكتابة والشهادة.

﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا﴾ ما نهيتم عنه ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ خروج عن الطاعة لا حق بكم. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ في أمره ونهيه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ مصالح أموركم.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ﴾ أي مسافرين وتداينتم ، وبينت السنة جواز الرهن ووجود الكاتب في الحضر. وذكرت حالة السفر ؛ لأن التوثيق فيه أشد ﴿فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ تستوثقون بها ، ودل قوله : مقبوضة على اشتراط القبض في الرهن ، والاكتفاء بقبض المرهون من المرتهن أو وكيله. ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ أي أمن الدائن المدين على حقه ، فلم يرتهن أو لم يكتب الدين ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ﴾ أي المدين ﴿أَمانَتَهُ﴾ دينه ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ في أدائه ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ﴾ إذا دعيتم لأدائها ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ خص القلب بالذكر ؛ لأنه محل الشهادة ، ولأنه إذا أثم تبعه غيره ، فيعاقب عليه معاقبة الآثمين. ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

المناسبة :

لما ذكر الله تعالى الإنفاق وجزاءه الطيب ، والربا وقباحته وخطره ، أعقبه بذكر القرض الحسن بلا فائدة ، والتعامل بالدين المؤجل ، وطريق توثيقه وحفظه بالكتابة والشهادة والرهن ، وطريق تنميته بالتجارة التي تقتضي السرعة ، ففي الصدقة والقرض الحسن تراحم وتعاون ، وفي الربا قسوة وطغيان ، وفي أحكام التعامل بالدين المؤجل والتجارة الحاضرة غاية الحكمة والمصلحة والعدل ؛ إذ من يؤمر بالإنفاق والصدقة والقرض ، وينهى عن التعامل بالربا لا بد له من تنمية ماله بالتجارة ، وحفظ حقه من الضياع. فتكون مناسبة الآية لما قبلها بيان حالة المداينة الواقعة في المعاوضات الجارية بين الناس ، ببيع السلع بالدين المؤجل ، بطريقة تحفظ الأموال وتصونها عن الضياع ، بعد بيان حكم التعامل بالربا ومنعه ، أو أن المراد بيان كيفية حفظ المال الحلال ، بعد بيان الإنفاق في سبيل الله وتحريم الربا ، اللذين يترتب عليهما نقص المال إما حالا أو مآلا.

وكون هذه الآية أطول آية في القرآن الكريم دليل على أن المال في ذاته ليس مبغوضا عند الله ، وعلى أن الإسلام معني باقتصاديات الأمة ، وأنه دين ودولة وحياة ونظام مجتمع ، وليس دين رهبنة وفقر ، وانعزال عن الحياة ، فتنظيم التعامل بين الناس ، وتبيان طريق حفظ الحقوق ، وتعاطي التجارة وتنمية المال ، يدل كل ذلك على أن الإسلام دين عمل وجهد وكفاح ، وحرص على الكسب والربح من أوجه الحلال ، روى أحمد والطبراني من حديث عمرو بن العاص : «نعمّا المال الصالح للمرء الصالح».

وأما البذل في المصالح العامة وتحريم الربا فهو عنوان على تضامن الأمة وتراحمها ، ونبذها الظلم والاستغلال والكسب من غير جهد وكدّ وعمل. وأما ذمّ الدنيا أو المال في بعض الآيات والأحاديث : فإنما هو عند نسيان جانب الآخرة ، واستعباد المال صاحبه ، فيبخل في إنفاقه ، ولا يبالي في جمعه من طريق حلال أو حرام ، قال تعالى : ﴿إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن ٦٤ / ١٥] وقال سبحانه : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ ، وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ ، فَتَراهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ ، وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد ٥٧ / ٢٠]. وروى البخاري عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال : «تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم».

التفسير والبيان :

يا من اتصفتم بالإيمان إذ تعاملتم بالدّين المؤجل في الذمة بيعا أو سلما أو قرضا ، كبيع شيء بثمن مؤجل ، أو بيع سلعة مؤجلة إلى أجل مسمى مع بيان الجنس والنوع والقدر ، بثمن معجل وهو المسمى بالسلم أو السلف ، وقرض مبلغ من المال ، إذا تعاملتم ببدل مؤجل ، فاكتبوا ما يدل على هذا التعامل ، مع بيان الأجل بالأيام أو بالأشهر أو بالسنين ، أي بكونه معلوما ، لا بالتأجيل إلى

الحصاد والدياس مما لا يرفع الجهالة في رأي الجمهور ؛ لأن الكتابة أوثق في ضبط المتفق عليه ، وأرفع للنزاع.

ثم بيّن الله كيفية الكتابة وعين من يتولاها : بأن يكتب كاتب مأمون عادل محايد ، فقيه متدين يقظ : الحقّ دون ميل لأحد الجانبين ، مع وضوح المعاني ، وتجنب الألفاظ المحتملة للمعاني الكثيرة ، فهو كالقاضي بين الدائن والمدين. وهذا يدل على اشتراط العدالة في الكاتب.

ثم أوصى الكاتب ونهاه عن الإباء : فلا يمتنع أحد من الكتاب عن كتابة وثيقة الدين ، ما دام يمكنه ذلك ، على الطريقة التي علمه الله في كتابة الوثائق ، أو كالتي علمه الله ، فالكاف صفة لموصوف محذوف ، فلا يزيد ولا ينقص ولا يضر أحدا ، والكتابة نعمة من الله عليه ، فمن شكرها ألا يمتنع عنها ، وإن كانت بأجر ، وهذا يدل على اشتراط كون الكاتب عالما بالأحكام الشرعية والشروط المرعية عرفا ونظاما. وقدّم اشتراط العدالة على العلم ؛ لأنها أهم من العلم. فالعادل يمكنه تعلم ما تتطلبه كتابة الوثائق ، وأما العالم غير العادل فلا يهديه علمه للعدالة ، وإنما يفسد ولا يصلح.

ودل قوله : ﴿وَلا يَأْبَ﴾ على أن العالم العادل إذا دعي للقيام بالكتابة ونحوها ، وجب عليه تلبية الدعوة ، ثم أكد الله تعالى النهي عن الإباء بالأمر بالكتابة بالحق ، لكون الوثيقة متعلقة بحفظ الحقوق.

ثم أرشد الله تعالى إلى أن الذي يتولى إملاء البيانات على الكاتب إنما هو المدين ، فإنه المكلف بأداء مضمون الكتابة ، ليكون بيانه وإملاؤه حجة عليه ، ثم أوصاه تعالى بأمرين : هما تقوى الله في الإملاء ، بأن يذكر ما عليه كاملا ، وألا ينقص من الحق الذي عليه شيئا.

ويلاحظ أن الكاتب أمر بالعدل فلا يزيد ولا ينقص ، والمدين نهي عن

النقص فقط ؛ لأن هذا هو المنتظر منه أو المتصور منه دون سواه.

ثم أوضح تعالى أحوال ناقصي الأهلية ، فإن كان المدين (الذي عليه الحق) سفيها أي مبذرا في ماله ناقص العقل والتدبير ، أو ضعيفا بأن كان صبيا أو مجنونا أو جاهلا أو هرما لم تساعده قواه العقلية على ضبط الأمور ، أو عاجزا عن الإملاء لكونه جاهلا أو ألكن أو أخرس أو معتقل اللسان ، أو أعمى ، فعلى وليه الذي يتولى أموره من قيّم أو وكيل أو مترجم أن يملي الحق على الكاتب بالعدل والإنصاف ، بلا زيادة ولا نقص.

ثم جاء دور الإثبات ، فأرشد تعالى على سبيل الندب لضبط الوقائع وحفظ الأموال إلى الشهادة على المداينة ، ونصاب الشهادة : رجلان أو رجل وامرأتان.

وقوله : ﴿مِنْ رِجالِكُمْ﴾ دليل على اشتراط الإسلام والحرية في الشهود ؛ لأن الكلام وارد في معاملاتهم. وأما العدالة في الشهود فاشترطوها بقوله تعالى : ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق ٦٥ / ٢].

مقبول الشهادة ومرفوضها :

يرى أبو يوسف أن من سلم من الفواحش التي يجب فيها الحدود ، وما يجب فيها من العظائم ، وأدّى الفرائض ، وأخلاق البر فيه أكثر من المعاصي الصغار ، قبلت شهادته ؛ لأنه لا يسلم عبد من ذنب ، ولا تقبل شهادة من ذنوبه أكثر من أخلاق البر ، ولا من يلعب الشطرنج يقامر عليها ، ولا من يلعب بالحمام ويطيرها ، ولا تارك الصلوات الخمس في جماعة استخفافا أو فسقا ، لا أن تركها على تأويل ، وكان عدلا ، ومن يكثر الحلف بالكذب ، ولا مداوم على ترك ركعتي الفجر ، ولا معروف بالكذب الفاحش ، ولا مظهر شتيمة أصحاب رسول الله ﷺ ، ولا شتام الناس والجيران ، ولا من اتهمه الناس بالفسق والفجور ، ولا متهم بسب الصحابة حتى يقولوا : سمعناه يشتم.

وقال ابن أبي ليلى وأبو حنيفة : تقبل شهادة أهل الأهواء العدول إلا صنفا من الرافضة وهم الخطابية. وقال محمد : لا أقبل شهادة الخوارج ، وأقبل شهادة الحرورية ؛ لأنهم لا يستحلون أموالنا ، فإذا خرجوا استحلوا [1].

واشتراط إسلام الشهود هو مذهب الجمهور (مالك والشافعي وأحمد) وأجاز الحنفية قبول شهادة الكفار بعضهم على بعض ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام رجم يهوديين بشهادة اليهود عليهما بالزنى.

وقال ابن القيم في (أعلام الموقعين والطرق الحكمية) : البينة في الشرع أعم من الشهادة ، فكل ما يتبين به الحق كالقرائن القطعية يسمى بيّنة ، فلا مانع أن تدخل شهادة غير المسلم في البينة بذلك المعنى ، إذا تبين للحاكم الحق بها.

وقوله تعالى : ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ مؤكد لاشتراط الإسلام والعدالة ؛ لأن المعنى : ممن ترضون دينهم وعدالتهم من الشهداء ، أو من النساء ؛ وجيء بهذا الوصف لضعف شهادة النساء وقلة ثقة الناس بها ، والخطاب يعم جميع الناس ، حكاما وغيرهم ، ولا بد في رأي الجمهور من ثبوت العدالة للشهود بالتزكية. وقال أبو حنيفة : لا حاجة للتزكية ، فكل مسلم ظاهر الإسلام مع السلامة من فسق ظاهر فهو عدل ، وإن كان مجهول الحال.

وذكر الله تعالى السبب في جعل شهادة المرأتين بشهادة رجل ، أي اعتبار العدد في شهادة النساء : وهو التذكير صونا لحكم الشهادة ؛ لعدم ضبط المرأة وقلة عنايتها ونسيانها ، فتذكر كل منهما الأخرى. وبما أن العلة في الحقيقة هي التذكير ، وكان الشأن في النساء النسيان ، نزّل النسيان منزلة العلة ، أي نزل السبب منزلة المسبب. فقد جرت العادة أن المرأة لا تهتم كثيرا بالمعاملات المالية

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٣٤٧

ونحوها من المعاوضات ، فتكون معلوماتها محدودة ، وخبرتها قليلة ، واهتمامها بالوقائع المالية ضعيفا ، وأما اشتغال النساء في هذا العصر بالمسائل المالية فلا يغير الحكم ؛ لأن الأحكام إنما للأعم الأغلب ، وبالرغم من إسناد الوظائف المالية للمرأة ، فإنها لا تأبه بغير العمل الذي وكّلت به وفوض إليها ، فلا تلتفت لما يجري بين الآخرين من منازعات على قضايا مالية ، ويظل اهتمامها بالنواحي المالية أو العامة بالرغم من توظفها محصورا بشؤون منزلها أثاثا وترفها ونظافة ، وتوفير مواد تموينية ، وإعداد طعام وشراب لأسرتها ، وتربية أولاد ، فكان تذكرها للمعاملات ـ فيما عدا مشترياتها الخاصة ـ قليلا. والخلاصة : أن الحكم للأغلب ، ولا عبرة بالنادر ، والشرع ينظر للمجموع.

ثم نبّه القرآن إلى قضية مهمة ، فشا بين الناس في عصرنا بل وفي الماضي نقيضها ، وهي الإدلاء بالشهادة ، فأوصى تعالى الشهود ، ونهاهم عن الإباء عن الشهادة أو التقاعس في أدائها وتحملها ، كما نهى الكاتب عن الامتناع عن الكتابة ، فلا يجوز للشهود الامتناع عن تحمّل الشهادة (أي استيعاب وقائع القضية المشهود عليها) وأدائها أمام القاضي ، كقوله تعالى بعدئذ : ﴿وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٨٣] إذ بالشهادة تثبت الحقوق ويمنع الجور والظلم والتسلط على الضعفاء. ودلت الآية أيضا على أن الشاهد هو الذي يمشي إلى الحاكم.

روى الربيع أن الآية نزلت حين كان الرجل يطوف في القوم الكثير ، فيدعوهم إلى الشهادة ، فلا يتبعه أحد منهم.

ثم عاد إلى أمر الكتابة ، فأكد طلبها في عقود المداينات ، فنهى عن الملل أو الضجر من كتابة الدين ، فلا ينبغي التكاسل أو التقصير أو الاستحياء في كتابة الدين ، مهما قلّ ، وسواء أكان صغيرا أم كبيرا تطلب كتابته ، قطعا للنزاع والشقاق ، وحفظا لأصل الحق.

وهذا دليل على اعتبار الكتابة في أدلة الإثبات ، وعلى أنها مطلوبة في القليل والكثير إلى أجل الحق ، أي وقت وفائه الذي أقر به المدين.

ثم بيّن الله تعالى الحكمة من الأوامر والنواهي المتقدمة ، وهو أن ذلك البيان الذي أمر به القرآن من الكتابة والإشهاد أعدل في إصابة حكم الله تعالى ؛ لأنه يكون إلى الصدق أقرب وعن الكذب أبعد ، وهو أيضا أحرى بإقامة العدل بين المتعاملين ، وأعون على أداء الشهادة على وجهها الصحيح ، وأقرب إلى إزالة الشكوك في تعيين جنس الدين ونوعه وقدره وأجله ، فهذه مزايا ثلاث تؤكد العمل بكتابة الدين.

وهذا يدل على أن للشاهد طلب وثيقة الدين المكتوب ليتذكر وضعه.

ثم خفف القرآن من قيد المطالبة بالكتابة أخذا بما تقتضيه ظروف التجارة من حرية وحركة وسرعة ، فأبان أن الكتابة مطلوبة إلا إذا تمت مبادلة العوضين في التجارة وقبضهما في الحال ، فلا داعي للكتابة ، ولا حرج ولا إثم في تركها حينئذ ، إذ لا يترتب عليها شيء من التنازع والتخاصم ، وهذا يدل على أن الإسلام متمش مع الواقع ، متجاوب مع ما تقتضيه المعاملات من تطور وسرعة ورعاية مصلحة.

وإذ لا بأس من عدم الكتابة في التجارة الحاضرة أو التعامل يدا بيد ، فيطلب الإشهاد على التبايع ؛ لأن اليد الظاهرة التي تحوز الشيء قد لا تكون محقة ، فيحدث النزاع والخلاف ، فكان الإشهاد أحوط ، ويكفي. أما المعاملات والديون المؤجلة والسّلم فتجب كتابتها ؛ لأن مرور الزمان قد ينسي بعضها ، فيقع التنازع.

والمبدأ الواجب اتباعه في علاقة الكاتب والشاهد بالمتعاملين هو عدم المضارّة ، فلا يجوز لهما إلحاق ضرر بأحد المتعاملين أو كليهما بزيادة أو نقص أو

تحريف أو ترك الإجابة بالاستفسار عن بعض ظروف الواقعة ، أو عما يطلب منهما من توضيح بعض الأمور الغامضة ، كما لا يجوز أيضا للمتعاملين إلحاق الضرر أو الأذى بالكاتب أو الشاهد ، كتحريف وتغيير بعض الوقائع ، أو إهمال الإشارة إلى كلمة أو قيد مثلا ، أو محاولة المنع من أداء الشهادة بالترهيب أو الترغيب برشوة أو وعد بمال ؛ لأن الإسلام دين الحق والعدل ، والله تعالى يأمر بإقامة الحق والعدل كاملا غير منقوص.

ويؤيد ذلك الآية التالية : ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أي أن التحريف والتغيير في الكتابة والشهادة فسق وإثم ، أو إن تفعلوا ما نهيتكم عنه من الضرار ، فإن فعلكم هذا فسوق بكم ، وخروج عن الطاعة ملتبس بكم.

ومنع المضارّة مستفاد من تحليل أصل ﴿يُضَارَّ﴾ : فإن كان أصله «يضارر» بكسر الراء الأولى ، ثم وقع الإدغام ، وفتحت الراء في الجزم لخفة الفتحة ، فالمعنى : لا يضر الكاتب ولا الشهيد غيره بترك الإجابة ، أو التغيير ، والتحريف في الكتابة والشهادة. وإن كان أصله «يضارر» بفتح الراء الأولى ، وكذا قرأ ابن مسعود ، فالمعنى لا يجوز لطالب الحق أو المطالب به أن يضرّ الكاتب والشهيد ، بأن يقهر هما على الانحراف في الكتابة والشهادة.

ثم ذكّر تعالى بالقاعدة العتيدة العامة إثر الأمر والنهي وهي التزام التقوى بامتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه ، والمعنى : فاتقوا الله في جميع ما أمركم به وما نهاكم عنه ، ومن جملة ذلك: ما حذركم منه من الضرار ، وهو سبحانه يعلمكم ما فيه صلاح دنياكم وحفظ أموالكم ، كما يعلمكم ما يصلح أمر الدين ، وهو العليم بكل شيء ، لا يخفى عليه حالكم الظاهر والباطن ، فإذا شرع شيئا فإنما يشرعه عن علم دقيق شامل بما يدرأ المفاسد ويجلب المصالح ، وشرعه كله حكمة وعدل.

وختم الآية بهذه الموعظة الحسنة للتذكير بامتثال جميع الأحكام السابقة.

وتكرار لفظ الجلالة في الجمل الثلاث : ﴿وَاتَّقُوا اللهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لتربية المهابة في نفس السامع ، ولتقرير استقلال كل منها بحكم معين.

ثم انتقل البيان إلى تشريع حكم يتناسب مع السفر ، وهو الرهان التي يستوثق بها في الحصول على الدين ، فإن إثبات المبايعات المؤجلة بالكتابة والإشهاد عليها أمر ممكن في الحضر ، أما في السفر فالغالب عدم التمكن من ذلك ، فشرع تعالى ما يناسبه وهو الرهن ، ودلت السنة على جوازه في الحضر ، فقد أخرج النسائي عن ابن عباس ، والشيخان عن عائشة : «أنه عليه الصلاة والسلام رهن درعه في المدينة من يهودي بعشرين صاعا من شعير أخذه لأهله».

ومعنى آية الرهان : إن كنتم مسافرين ، ولم تجدوا كاتبا يحسن كتابة المداينة ، أو لم تسمح ظروف السفر بالجلوس والكتابة ، أو لم تجدوا أدوات الكتابة ، فاستوثقوا برهن تقبضونه.

وتقييد الرهان في الآية بوصف السفر ، وعدم وجود الكاتب : بيان للعذر الذي رخص في ترك الكتابة ، ووضع الرهن وثيقة للدين محلها. وإنما نص على السفر دون الأعذار الأخرى ؛ لأنه هو غالب الأعذار ، لا سيما في وقت نزول القرآن ، لكثرة المعارك والحروب. ويدخل في ذلك بالمعنى كل عذر ، مثل ظرف الليل ، وزحمة الأشغال والأعمال ، وتهديد حالة الغريم (المدين) بالإفلاس. وأشارت الآية إلى أن عدم وجود الكاتب مقيد بحال السفر ، لا في حال الإقامة والحضر.

لكن وصف الرهان بكونها مقبوضة : يدل على أنه ما لم يقبض المرهون لا يظهر وجه للتوثق به. واشتراط القبض يستلزم عند الحنفية أن يكون المرهون معينا مفرزا ، فلا يجوز لديهم رهن المشاع سواء فيما يقسم وفيما لا يقسم ؛ لتعذر

القبض ، وأجاز الجمهور رهن المشاع مثل بيعه وهبته ، ويسلّم للمرتهن كل الشيء المشترك ، ويتم التناوب عليه بطريق المهايأة.

ثم عادت الآية إلى تقرير احتمال وجود الثقة والائتمان بين المتعاملين ، فصرحت بأنه إن أمن بعض الدائنين بعض المدنيين ، لحسن ظنه به ، وثقته بأنه لا يجحد الحق ولا ينكره ، وهذا هو البيع بالأمانة ، فليؤد المدين الذي اؤتمن أمانته أي دينه الذي ائتمنه الدائن عليه ، فلم يأخذ منه رهنا ، وليكن عند حسن ظن الدائن به ، وليتق الله ربه في رعاية حقوق الأمانة ، وعدم خيانتها ولا جحودها ولا التأخر في دفعها ، فالله خير الشاهدين ، وهو أولى أن يتّقى.

وسمي الدين أمانة لائتمان المدين عليه بترك الارتهان عليه.

وجمع في قوله : ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ بين الألوهية وصفة الربوبية للمبالغة في التحذير من الخيانة التي تغضب الإله المعبود بحق ، وربه الذي يربيه ويلي شؤونه ويدبر مصالحه.

ثم أكد سبحانه النهي السابق عن الإباء عن أداء الشهادة وتحملها ، فنهى عن كتمانها أي إخفائها بالامتناع عن أدائها ، مجددا النهي فيما يليق ببيع الأمانة ، مع ما فيها من زيادة تزعج الشاهد ، وتهدده بعقوبة كتمان الشهادة واستحقاق الإثم ، والآثم والفاسق متقاربان ، فقال بالمعنى : لا تمتنعوا عن أداء الشهادة إذا احتيج إليها ، ومن يكتمها أو يمتنع عنها كان مرتكبا للذنب ، مجترحا للمعصية والإثم ، وخص القلب بالذكر في تحمل الإثم ؛ لأنه مركز الإحساس والشعور ووعي الوقائع وإدراكها ، ولأنه أحد الأعضاء التي تقترف ذنبا ، كما يسند الزنى إلى العين والأذن ونحوهما ، فالإثم قد يكون بعمل القلب كما يكون بعمل بقية الأعضاء ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ ، كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٣٦] ومن آثام القلب : إضمار السوء وسوء النية والقصد ، والحقد والحسد.

وكل ما سبق من أعمال كأداء الشهادة وكتمها وغيرها يعلمه الله ، والله بكل شيء عليم وبصير ، يجازي عليه ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فاحذروا مخالفة الأوامر واقتراف المعاصي ، ومنها كتمان الشهادة ، واعلموا بما أمركم به ، فإن علم الله عام في جميع الأعمال.

فقه الحياة أو الأحكام :

موضوع آية الدين في توثيق المبايعات المؤجلة والديون والسّلم [1] بالكتابة والشهادة والرهن ، فإن لم يكن توثيق برهن أو بكتابة جاز البيع بالأمانة ، فالمبايعات في هذه الآية ثلاثة أنواع : بيع بكتابة وشهود ، وبيع برهان مقبوضة ، وبيع بالأمانة.

قال ابن عباس : هذه الآية نزلت في السّلم خاصة ، معناه أن سلم أهل المدينة كان سبب الآية ، ثم هي تتناول جميع المداينات إجماعا.

وقال ابن خويز منداد : إنها تضمنت ثلاثين حكما ، منها ما يلي :

١ . استدل بها بعض علماء المالكية على جواز التأجيل في القروض ، على ما قال مالك ؛ إذ لم يفصل بين القرض وسائر العقود في المداينات. وخالف في ذلك الشافعية وقالوا : الآية ليس فيها جواز التأجيل في سائر الديون ، وإنما فيها الأمر بالإشهاد إذا كان دينا مؤجلا ؛ ثم يعلم بدلالة أخرى جواز التأجيل في الدين وامتناعه.

٢ . مشروعية تأجيل الديون ، لقوله تعالى : ﴿بِدَيْنٍ﴾ : وحقيقة الدين : عبارة عن كل معاملة ، كان أحد العوضين فيها نقدا ، والآخر في الذمة

---

(١) السّلم : هو بيع آجل بعاجل. ويقال له السلف ، غير أن السلم خاص به ، والسلف يطلق أيضا على القرض.

نسيئة ؛ فإن العين عند العرب ما كان حاضرا ، والدين : ما كان غائبا. وتشمل الآية كلا من بيع العين بالدين كبيع كتاب حاضر بثمن مؤجل ، وبيع الدين بالعين : وهو السلم. أما بيع العين بالعين كبيع سلعة حاضرة بنقد حاضر فهو جائز ، وأما بيع الدين بالدين كبيع صاع من القمح في ذمة إنسان ، بصاعين من الشعير في ذمة إنسان آخر ، فهو باطل للنهي عنه.

٣ ـ دل قوله : ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ على أن السلم إلى الأجل المجهول غير جائز ، وأكدت السنة ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : «من أسلف في تمر ، فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم» (١). وأجمع أهل العلم على مشروعية السلم : وهو أن يسلم الرجل إلى صاحبه في طعام معلوم موصوف ، من طعام أرض عامّة لا يخطئ مثلها ، بكيل معلوم ، إلى أجل معلوم بدنانير أو دراهم معلومة ، يدفع ثمن ما أسلم منه قبل أن يفترق العاقدان من مقامهما الذي تبايعا فيه ، وسمّيا المكان الذي يقبض فيه الطعام. والسلم بيع من البيوع الجائزة بالاتفاق ، وهو مستثنى من نهيه عليه الصلاة والسلام عن بيع ما ليس عندك ، وأرخص في السلم ، لحاجة الناس إليه ، وقد سماه الفقهاء بيع المحاويج أو بيع المفاليس.

وأجاز المالكية السّلم إلى الحصاد والجذاذ ، إذ ذاك يختص بوقت وزمن معلوم. وأجازوا أيضا تأخير قبض رأس المال (الثمن) يومين أو ثلاثة ، بشرط وبغير شرط ، لأن ذلك في حكم المقبوض في المجلس ، لقرب هذه المدة. ولم يجز باقي الأئمة تأخير شيء من رأس مال السّلم عن مجلس العقد والاتفاق ؛ ورأوا أنه كالصرف ، وتحرزا من بيع الدّين بالدّين.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس.

وأجاز الشافعي السلم الحالّ ، ولم يجزه باقي الأئمة ، للحديث المتقدم : «إلى أجل معلوم».

٤ . ودل قوله : ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ أي الدّين والأجل على مشروعية الاحتجاج بالكتابة. ويقال : أمر بالكتابة ، ولكن المراد الكتابة والإشهاد ؛ لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجة.

وهل كتابة الكاتب فرض أو ندب؟ قيل : إنها فرض كفاية ، وقيل : فرض عين على الكاتب متى طلب منه ، وكان في حال فراغه لقوله تعالى : ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ وقوله : ﴿وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾ وقيل : إنه ندب ، والصحيح أنه أمر إرشاد ، فيجوز له أن يتخلف عن الكتابة ، حتى يأخذ أجره ؛ إذ لو كانت الكتابة واجبة على الكاتب ما صح الاستئجار بها ؛ لأن الإجارة على فعل الفروض باطلة.

٥ . هل الكتابة والإشهاد واجبان؟ ذهب جماعة إلى أن الكتابة والشهادة على الديون المؤجلة واجبان ، بقوله تعالى : ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ وقوله : ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾ ثم نسخ الوجوب بقوله : ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ﴾. واختار الطبري أن كتب الديون واجب على أربابها بهذه الآية ، بيعا كان أو قرضا ، لئلا يقع فيه نسيان أو جحود.

وقال الجمهور : الأمر بالكتابة والإشهاد للندب ، وهما مندوبان ، لحفظ ما يقع بين المتعاقدين إلى حلول الأجل ؛ لأن النسيان يقع كثيرا في المدة التي بين العقد وحلول الأجل ، وقد تطرأ عوارض من موت أو غيره ، فشرع الله الكتابة والإشهاد لحفظ المال وضبط الواقع ، ولم ينقل عن الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار أنهم كانوا يتشددون فيهما ، بل كانت تقع المداينات والمبايعات بينهم من غير كتابة ولا إشهاد ، ولم يقع نكير منهم ، فدل ذلك على أن الأمر للندب.

وقرينة صرف ظاهر الأمر من الوجوب إلى الندب منصوص عليها في الآية ذاتها ، وهو قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ﴾.

٦ ـ التزام العدل : طالبت الآية بالتزام العدل في الكتابة ، وفي الإملاء ، وفي إملاء الولي عن السفيه والضعيف ، وهذا واضح من قوله : ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ وقوله : ﴿كَما عَلَّمَهُ اللهُ﴾ وقوله : ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ وقوله : ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾. وهل يحجر على السفيه؟ أجاز الجمهور الحجر على السفيه المبذر من قبل القاضي حتى لا يصبح عالة على الناس ، وقال أبو حنيفة : يمنع السفيه من ماله ما لم يبلغ خمسا وعشرين سنة ، فإذا بلغها دفع إليه ماله ، وإن لم يؤنس منه رشد ؛ لأن الحجر عليه إهدار لآدميته.

٧ ـ نصاب الشهادة : رجلان أو رجل وامرأتان. وتجوز شهادة النساء مع الرجال عند المالكية في الأموال وتوابعها خاصة ، ولا تقبل في أحكام الأبدان مثل الحدود والقصاص ، والنكاح والطلاق والرجعة. وتجوز عند الحنفية في الأموال والطلاق والنكاح والرجعة. واتفق الفقهاء على رد الشهادة بسبب التهمة : وهي التي تجلب للمشهود له نفعا أو تدفع عنه ضررا ، وترد شهادة أحد الزوجين للآخر في رأي الجمهور ، ولا ترد في رأي الشافعية وإنما تقبل لأن عقد الزوجية أمر طارئ ويزول. وقال أبو حنيفة : إن شهادة الأجير غير جائزة لمستأجره في شيء ، وإن كان عدلا استحسانا.

ولا يجوز في رأي الحنفية القضاء بشاهد ويمين المدعي ؛ لأن الله لم يذكر في الآية إلا قسمين وهما : شهادة رجلين ، وشهادة رجل وامرأتين ، فلا ثالث لهما. وأجاز الجمهور القضاء بشاهد ويمين في الأموال لا في الأبدان ، لا باعتباره قسما ثالثا للشهادة ، وإنما هو باعتبار اليمين مع الشاهد ترجيحا لجانب المدعي ، بدليل ما ثبت عن النبي ﷺ «أنه قضى بشاهد ويمين» (١). وأما عدم ذكر ذلك في

---

(١) رواه الجماعة إلا البخاري عن ابن عباس.

القرآن ، فلا يمنع مشروعيته والعمل به ، بدليل جواز القضاء بالنكول عند الحنفية ، وهو قسم ثالث لم يذكره القرآن.

٨ . ودل قوله تعالى : ﴿وَلا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا﴾ على منع الإباء عن تحمل الشهادة وأدائها وإثباتها عند اللزوم أمام القاضي ، وأن الشاهد هو الذي يمشي إلى الحاكم. وهذا في حال طلب الشهادة ، فأما في غير حال طلبها من القاضي فأداؤها مندوب ، فقد فرض الله الأداء عند الدعاء (الطلب) ، فإذا لم يدع الشاهد ، كان أداء الشهادة ندبا ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : «خير الشهداء : الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها» (١).

ورأى المالكية في الصحيح أن أداء الشهادة فرض ، وإن لم يسألها ، إذا خاف على الحق ضياعه أو فوته ، حتى لا يضيع الحق ، سواء في حقوق الله تعالى ، وحقوق الآدميين ، لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق ٦٥ / ٢] وقوله : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٨٦] وفي الصحيح عن النبي ﷺ : «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» فقد تعين عليه نصره إذا كان مظلوما بأداء الشهادة التي له عنده ، إحياء لحقه الذي أماته الإنكار.

وذهب الحنفية إلى أن أداء الشهادة في حقوق الله تعالى قبل سؤالها مطلوب ، أما في حقوق العباد فلا يشهد الشاهد قبل أن يستشهد ، لما أخرجه الصحيحان عن عمران بن حصين : «إن خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السّمن» وأوّله المالكية وحملوه على شاهد الزور فإنه يشهد بما لم يستشهد ، أي بما لم يتحمّله ولا حمّله ، أو على الذي يحمله الشرّة على تنفيذ ما يشهد به ، فيبادر بالشهادة قبل أن يسألها ، فهي شهادة مردودة ، أو على الغلمان. واتفق الجميع على أن أداء الشهادة فرض كفاية ،

---

(١) رواه مسلم عن زيد بن خالد الجهني.

فإذا أداها اثنان واجتزأ بهما الحاكم ، سقط الفرض عن الباقين ، وإن لم يجتزئ بهما تعينت الشهادة على الآخر.

٩ ـ الكتابة مندوبة في المبايعات والديون المؤجلة ، سواء أكان المؤجل صغيرا أم كبيرا. ولا تطلب الكتابة في التجارة الحاضرة التي يتم فيها التبادل في الحال ، ويحدث التقابض في البدلين عقب العقد ، إذ يقلّ في العادة خوف التنازع إلا بأسباب غامضة. قال الشافعي : البيوع ثلاثة : بيع بكتاب وشهود ، وبيع برهان ، وبيع بأمانة ، وقرأ هذه الآية. وكان ابن عمر إذا باع بنقد أشهد ، وإذا باع بنسيئة كتب.

١٠ ـ ودل قوله تعالى : ﴿وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ﴾ على طلب الإشهاد على صغير ذلك وكبيره ، وهل الإشهاد على البيع على الوجوب أو الندب؟ قال أبو موسى الأشعري وابن عمر والضحاك وجماعة من التابعين : هو على الوجوب ، أخذا بظاهر الأمر في هذه الآية ، ورجحه الطبري.

وذهب الشعبي والحسن البصري إلى أن ذلك على الندب والإرشاد ، لا على الحتم والإيجاب. وهذا قول مالك والشافعي وأهل الرأي ، وزعم ابن العربي أن هذا قول الكافّة ، قال : وهو الصحيح ، ولم يحك عن أحد ممن قال بالوجوب إلا الضحاك. روي عن ابن عباس أنه قال لما قيل له : إن آية الدّين منسوخة قال : لا والله ، إن آية الدّين محكمة ليس فيها نسخ ، قال : والإشهاد إنما جعل للطمأنينة ، وذلك أن الله تعالى جعل لتوثيق الدين طرقا ، منها الكتاب ، ومنها الرهن ، ومنها الإشهاد.

ولا خلاف بين علماء الأمصار أن الرهن مشروع بطريق الندب ، لا بطريق الوجوب ، فيعلم من ذلك مثله في الإشهاد. وما زال الناس يتبايعون حضرا وسفرا ، وبرا وبحرا ، وسهلا وجبلا من غير إشهاد مع علم الناس بذلك من غير

نكير ، ولو وجب الإشهاد ما تركوا النكير على تاركه.

١١ ـ أداء الشهادة ، وكتابة الكاتب يكونان بالحق والعدل ، فلا يكتب الكاتب ما لم يمل عليه ، ولا يزيد الشاهد في شهادته ولا ينقص منها ، فالكاتب والشاهد يعصيان بالزيادة أو النقصان ، وذلك من الكذب المؤذي في الأموال والأبدان ، وفيه إبطال الحق ، وكذلك إذايتهما من الخصوم معصية وخروج عن الصواب من حيث المخالفة لأمر الله بقول الحق ، فلا يجوز إلحاق الضرر بهما ، ولا إضرارهما المشهود له أو عليه ؛ إذ لا مضارّة ، ولا ضرر ولا ضرار في الإسلام ، وإن تفعلوا المضارة ، فإنه فسوق (أي معصية) حالّ بكم.

١٢ ـ وقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علّمه ، أي يجعل في قلبه نورا يفهم به ما يلقى إليه. أما قوله : ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو إشارة إلى إحاطته تعالى بالمعلومات ، فلا يشذ عنه منها شيء ، وفيها إشعار بالمجازاة للفاسق والمتقي.

١٣ ـ دلت آية ﴿فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ على مشروعية الرهن في السفر إذا لم يتوافر الإشهاد وكتابة الدين. وجاءت السنة مبينة جواز الرهن في الحضر ، كما بيّنا.

والرهن : احتباس العين وثيقة بالحق ليستوفى الحقّ من ثمنها أو من ثمن منافعها عند تعذر أخذه من الغريم.

ولا يظهر وجه للتوثق بالمرهون من غير قبضه ، وقد اتفق الفقهاء على أن القبض شرط في الرهن ، واختلفوا في نوع الشرط ، فقال الجمهور : القبض شرط لزوم للرهن ، فلا يلزم إلا بالقبض ، وما لم يلزم للراهن أن يرجع عنه ؛ لأن مشروعية الرهن للتوثق ، ولا توثق إلا بالقبض. وقال المالكية : القبض شرط تمام الرهن ، أي لكمال فائدته ، وليس شرط صحة أو لزوم ، فإذا انعقد الرهن لزم

بمجرد العقد ، ويجبر الراهن على الإقباض ، ومتى قبض تم وكمل ، قياسا على سائر العقود ، فإنها تلزم بمجرد العقد.

والمعتمد لدى المالكية أن الرهن متى رجع إلى الراهن باختيار المرتهن ، بطل الرهن. وهو قول أبي حنيفة أيضا ، للآية : ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾. فإذا خرج عن يد القابض ، لم يصدق ذلك اللفظ عليه لغة ، فلا يصدق عليه حكما.

وقال الشافعي : إن رجوعه إلى يد الراهن مطلقا ، لا يبطل حكم القبض المتقدم.

ويصح قبض المرتهن أو وكيله ، وقال الجمهور : يصح أيضا قبض عدل (طرف ثالث محايد غير العاقدين) يوضع الرهن في يديه ؛ لأنه إذا صار عند العدل ، صار مقبوضا لغة وحقيقة ؛ لأن العدل نائب عن صاحب الحق ، وبمنزلة الوكيل. والعدل أمين غير ضامن ، فلو ضاع المرهون منه دون تهاون ولا تقصير ، لم يضمنه.

ويجوز رهن المشاع عند الجمهور ، خلافا للحنفية ، كما بينا.

ويجوز لدى المالكية خلافا للجمهور رهن ما في الذمة ؛ لأنه مقبوض ، ومثاله : رجلان تعاملا ، ولأحدهما على الآخر دين ، فرهنه دينه الذي عليه. قالوا : وكل عرض جاز بيعه جاز رهنه ، فيجوز رهن ما في الذمة ؛ لأن بيعه جائز ، ولأنه مال تقع الوثيقة به ، فجاز أن يكون رهنا ، قياسا على سلعة موجودة.

وقال الجمهور : لا يجوز رهن الدين في الذمة ؛ لأنه لا يتحقق إقباضه ، والقبض شرط في لزوم الرهن ؛ لأنه لا بد أن يستوفي الحق منه عند حلول أجل وفاء الدين المرهون به ، ويكون الاستيفاء من مالية المرهون ، لا من عينه ، ولا يتصور ذلك في الدّين.

ولا يجوز غلق الرهن [١] : وهو أن يشترط المرتهن أنه له بحقه ، إن لم يأته به عند أجله ، وكان هذا من فعل الجاهلية ، فأبطله النبي ﷺ بقوله فيما رواه الشافعي والدارقطني وغيرهما عن أبي هريرة : «لا يغلق الرهن من صاحبه ، له غنمه ، وعليه غرمه».

قال الجمهور : منفعة الرهن للراهن ، ونفقته عليه ، والمرتهن لا ينتفع بشيء من الرهن خلا الإحفاظ للوثيقة ، فإذا آجر المرتهن المرهون بإذن الراهن أو آجره الراهن بإذن المرتهن ، فقد خرج من الرهن ولا يعود.

وأجاز الحنابلة انتفاع المرتهن بالرهن مقابل نفقته إذا كان المرهون مركوبا أو محلوبا ، لما روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «الظهر يركب بنفقته إذا كان مرهونا ، ولبن الدرّ يشرب بنفقته إذا كان مرهونا ، وعلى الذي يركب ويشرب النفقة».

انطباعات عامة مستفادة من آية الدين :

١ ـ إن الذي أمر الله تعالى به في آية الدين من الشهادة والكتابة [٢] : قصد به الحفاظ على ووشائج الود والصلة والمحبة وصلاح ذات البين بين الناس ، ومنع وقوع التنازع المؤدي إلى فساد علاقات الناس ، وسدّ كل المنافذ أمام الشيطان الذي قد يسول للمدين جحود الحق ، وتجاوز ما حدّ له الشرع ، أو ترك الاقتصار على المقدار المستحق.

ومن أجل هذه الغايات السامية ، حرّم الشرع البيوع المجهولة التي تؤدي إلى

---

(١) غلق الرهن : كان من فعل الجاهلية أن الراهن إذا لم يؤد ما عليه في الوقت المعين ، ملك المرتهن الرهن ، فأبطله الإسلام.

(٢) يلاحظ أن صيغة الشهادة تكررت في الآيتين ثمان مرات ، وصيغة الكتابة تكررت عشر مرات.

الاختلاف والتنازع وفساد العلاقات وإيقاع التضاغن والتباين. وبناء عليه أيضا حرم الله الميسر والقمار وشرب الخمر بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة ٥ / ٩١] فمن تأدب بأدب الله في أوامره وزواجره ، حاز صلاح الدين والدنيا ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ ، لَكانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ [النساء ٤ / ٦٦].

٢ ـ لا ينبغي للإنسان استدانة دين إلا لضرورة قصوى أو حاجة ملحّة ؛ لأنه كما روي عنه ﷺ فيما رواه الديلمي في الفردوس عن عائشة ، وهو ضعيف : «الدّين همّ بالليل ، ومذلّة بالنهار». لما فيه من شغل القلب والبال والهمّ اللازم في قضائه ، والتذلل للغريم عند لقائه ، وتحمّل منّته بالتأخير إلى حين أوانه.

وقد يقع المدين في عجز مستحكم فلا يستطيع وفاء دينه ، لذا تعوّذ منه النبي ﷺ ـ فيما يرويه البخاري عن أنس ـ فقال : «اللهم إني أعوذ بك من الهمّ والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل ، وضلع الدّين ، وغلبة الرجال» قال العلماء : ضلع الدين : هو الذي لا يجد دائنه من حيث يؤديه.

وإذا حسنت نية المدين أعانه الله على إيفاء الدين ، روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدّى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها ، أتلفه الله».

٣ ـ لما أمر الله تعالى بكتابة الدين والإشهاد وأخذ الرهان ، كان ذلك نصا قاطعا على مراعاة حفظ الأموال وتنميتها ، وردا على الجهلة المتصوفة ورعاعها الذين لا يرون ذلك ، فيخرجون عن جميع أموالهم ولا يتركون كفاية لأنفسهم وعيالهم ، ثم إذا احتاج أحدهم أو افتقر عياله ، فهو إما أن يتعرض لمنن الإخوان أو لصدقاتهم ، أو أن يأخذ من أرباب الدنيا وظلمتهم ، وهذا الفعل مذموم منهي عنه.

لله ملك السموات والأرض وإحاطة علمه بكل شيء

ومحاسبة العباد على أفعالهم ونواياهم

﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾

الإعراب :

﴿فَيَغْفِرُ﴾ ومثله ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ : يجوز فيه الرفع والجزم والنصب ، فالرفع على الاستئناف وتقديره : فهو يغفر ، والجزم بالعطف على ﴿يُحاسِبْكُمْ﴾ ، والنصب ضعيف ، على تقدير (أن) بعد الفاء ، والفعل وما بعده في تأويل المصدر لعطف مصدر على مصدر حملا على المعنى دون اللفظ ، كأنه قال : إن يكن إبداء أو إخفاء منكم ، فمحاسبة ، فغفران منّا.

البلاغة :

يوجد طباق بين : ﴿وَإِنْ تُبْدُوا .. أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وبين ﴿فَيَغْفِرُ .. وَيُعَذِّبُ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿تُبْدُوا ..﴾ تظهروا ما في أنفسكم من السوء والعزم عليه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تسرّوه ﴿يُحاسِبْكُمْ ..﴾ يخبركم به الله يوم القيامة ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ يستر من أراد المغفرة له ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ﴾ يعاقب من أراد تعذيبه ﴿وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عظيم القدرة على أي شيء ، ومنه محاسبتكم وجزاؤكم ، قال أبو حيان : لما ذكر المغفرة والتعذيب لمن يشاء ، عقب ذلك بذكر القدرة ؛ إذ ما ذكر جزء من متعلّقات القدرة.

المناسبة :

هذه الآية متممة لآخر كل من الآيتين السابقتين وهما : ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ﴾ ، ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ودليل على إحاطة علم الله بالأشياء ؛ لأن من ملك شيئا وخلقه ، فلا بد من أن يعلمه ، كقوله تعالى : ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك ٦٧ / ١٤] ، وكذلك من ملك شيئا فله حسابه على أفعاله وما يخفيه صدره ، ومنها كتمان الشهادة ، وصاحب السلطة المطلقة في شيء وهو الحساب ، له الإرادة المطلقة في العفو عمن شاء ممن أخطأ ، وعقاب من شاء ، وذلك كله مقترن بالقدرة المطلقة على كل شيء.

وللآية أمثال كثيرة في القرآن الكريم نحو : ﴿قُلْ : إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران ٣ / ٢٩] ونحو : ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى﴾ [طه ٢٠ / ٧]﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ ، وَما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر ٤٠ / ١٩].

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى في هذه الآية أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن ، وأنه المطلع على ما فيهن ، لا تخفى عليه الظواهر والسرائر والضمائر وإن دقت وخفيت ، وأنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم ، كما قال ابن كثير

فلله ما في السموات وما في الأرض ملكا وخلقا وتصريفا وعلما ، وهو العليم بكل شيء ، فإن تظهروا ما في قلوبكم من السوء والعزم عليه ، أو تكتموه عن الناس وتخفوه ، فالله يحاسبكم عليه ويجازكم به ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

وهو يغفر بفضله لمن يشاء من عباده ، ويعاقب من يشاء عقابه ، ومما يكون عونا على المغفرة توفيق الله عبده إلى التوبة والعمل الصالح ، كما قال تعالى : ﴿رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ

﴿آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر ٤٠ / ٧ ـ ٩].

والحساب من الله لعباده : أن يطلعهم على جميع أعمالهم ، ثم يسألهم : لم فعلوها؟.

فقه الحياة أو الأحكام :

تتضمن الآية إنذارا وتخويفا شديدا من الحساب الإلهي ، لكون الإنسان مملوكا لله ، والله مطلع على كل أفعاله ، محاسب له على جليل الأعمال وحقيرها ، مما أدى إلى إيقاع الرهبة في النفوس والإشفاق عليها من شدة العذاب ، وتفويض أمره مطلقا إلى الله وحده ؛ أخرج أحمد ومسلم عن أبي هريرة قال : لما نزل على رسول الله ﷺ : ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ، يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ، ثم جثوا على الرّكب ، فقالوا : أي رسول الله ، كلّفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله ﷺ : «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : سمعنا وعصينا؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير؟». فلما قرأها القوم وذلّت (لانت) بها ألسنتهم ، أنزل الله في إثرها : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ..﴾ الآية. فلما فعلوا ذلك نسخها الله ، فأنزل الله : ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها﴾ الآية.

وظاهر قوله : «نسخها الله» يدل على نسخ هذه الآية بالآية التي بعدها وهي : ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ ..﴾ وقد فهم بعض المفسرين [١] من ذلك أن هذه الآية

---

(١) وهم الإمام علي وابن عمر وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبي والنخعي ومحمد بن كعب القرظي وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وآخرون من الصحابة والتابعين.

منسوخة ؛ لأنها تثبت الحساب على الوساوس وخواطر النفوس. والراجح أن الآية غير منسوخة ، وأن المراد من قوله : «نسخها الله» : أزال ما أخافهم ، وأن آية : ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها﴾ ليست ناسخة ، ولكنها موضحة ، أيدها الحديث الذي رواه الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلّم أو تعمل» ، وقد قال ابن عباس وعكرمة والشعبي ومجاهد : إن الآية محكمة مخصوصة ، وهي في معنى الشهادة التي نهى الله عن كتمها ، ثم أعلم في هذه الآية أن الكاتم لها المخفي ما في نفسه محاسب.

ويدل على منع القول بالنسخ الأدلة التالية :

١ ـ إن قوله تعالى : ﴿يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ خبر ، والأخبار لا تنسخ عند جمهور الأصوليين.

٢ ـ إن كسب القلب وعمله مما دل الكتاب والسنة والإجماع والقياس على ثبوته والجزاء عليه ، ظهر أثره على الجوارح أم لم يظهر ، كقوله تعالى : ﴿لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة ٢ / ٢٢٥] وقوله : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ ، كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٣٦].

٣ ـ إن الوساوس العارضة وحديث النفس الذي لا يصل إلى درجة القصد الثابت والعزم الراسخ لا يدخل في مفهوم الآية ، كما قال المحققون.

٤ ـ إن تكليف ما ليس في الوسع ينافي الحكمة الإلهية.

٥ ـ لا يظهر معنى للنسخ وهو تغيير الحكم لتغير مصلحة المكلفين ؛ لأن ما في النفس لا يتغير ولا يختلف باختلاف الأزمنة والأحوال.

وأما قول الصحابة والتابعين بالنسخ فهو مما يتفق مع علو مرتبة هؤلاء وكمالهم ، حتى إنهم ليجدون أن وسوسة النفس مما تخضع للحساب ، وهم يريدون التطهر من كل آثار الإثم ، لذا قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فتحرجهم من باب كمال التزكية وتمام الطهاوة واعتقاد النقص في أنفسهم.

الإيمان برسالات الرسل والتكليف بالطاقة

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٢٨٦)﴾

الإعراب :

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إما معطوف على ﴿الرَّسُولُ﴾ فكأنه قال : آمن الرسول والمؤمنون. وإما مبتدأ ، و ﴿كُلٌّ﴾ : مبتدأ ثان ، و ﴿آمَنَ بِاللهِ﴾ : خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر : خبر المبتدأ الأول. والعائد من الجملة إليه محذوف ، وتقديره : كلهم آمن بالله. وقال : ﴿آمَنَ﴾ : بالإفراد ، ولم يقل : آمنوا بالجمع ، حملا على لفظ كل. وأضيف ﴿بَيْنَ﴾ إلى ﴿أَحَدٍ﴾ ؛ لأن المراد به هاهنا الكثرة ؛ لأن «أحدا» في سياق النفي يدل على الكثرة ، كقوله تعالى : ﴿وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ ..﴾ ثم قال : ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما﴾ [البقرة ٢ / ١٠٢]. إذ لا تجوز إضافة ﴿بَيْنَ﴾ إلى الواحد.

﴿غُفْرانَكَ﴾ منصوب على المصدر بفعل مقدر تقديره : اغفر لنا غفرانك ، أو نسألك غفرانك ، وحذف للعلم به لوجود الدلالة عليه.

البلاغة :

يوجد طباق بين ﴿كَسَبَتْ﴾ في الخير و ﴿اكْتَسَبَتْ﴾ في الشر. ويوجد جناس اشتقاق بين ﴿آمَنَ .. وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وهناك إطناب في قوله : ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾. وإيجاز بالحذف في قوله : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي آمنوا بالله ورسله.

المفردات اللغوية :

﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ صدّق النبي محمد ﷺ ﴿بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ من القرآن ﴿وَرُسُلِهِ﴾ يقولون ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ أي في الرسالة والتشريع ، فلا نفضل بعضهم على بعض في ذلك ، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴿سَمِعْنا﴾ ما أمرنا به سماع قبول وتدبر ﴿الْمَصِيرُ﴾ المرجع بالبعث.

﴿وُسْعَها﴾ طاقتها : وهو ما تسعة قدرة الإنسان من غير حرج ولا عسر.

﴿كَسَبَتْ﴾ من الخير وثوابه ﴿مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من الشر أي وزره ، فلا يؤخذ أحد بذنب أحد ، ولا بما لا يكسبه مما وسوست به نفسه ﴿لا تُؤاخِذْنا﴾ تعاقبنا ﴿أَوْ أَخْطَأْنا﴾ تركنا الصواب لا عن عمد ، كما آخذت به من قبلنا ﴿إِصْراً﴾ أمرا أو حملا يثقل علينا حمله أو يشق تحمله ﴿كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا﴾ أي بني إسرائيل ، من قتل النفس في التوبة ، وإخراج ربع المال في الزكاة ، وقرض موضع النجاسة. ﴿ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ﴾ أي ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف والبلاء ، فالتكليف بما يطاق : هو ما يمكن الإتيان به ولو بمشقة معتادة متحملة ، والتكليف بما لا يطاق : هو ما لا يدخل في مكنة الإنسان وقدرته ، بأن اقترن بمشقة زائدة غير معتادة. ﴿وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا﴾ الرحمة أمر زائد على المغفرة ﴿مَوْلانا﴾ مالكنا وسيدنا ومتولي أمورنا.

جاء في الحديث الذي يرويه مسلم عن ابن عباس : لما نزلت هذه الآية ، فقرأها ﷺ ، قال الله عقب كل كلمة : قد فعلت.

سبب النزول :

سبق بيان سبب نزول هذه الآية فيما رواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة في بحث «فقه الحياة» في الآية السابقة. وروى مسلم وغيره عن ابن عباس نحوه.

المناسبة :

بدأ الله تعالى هذه السورة بالكلام على القرآن والمؤمنين ومقارنتهم بالكافرين ، ولا سيما أخبار اليهود ، ثم أرشد تعالى إلى كثير من الأحكام كالصيام والحج والطالق ، ثم أرشد تعالى إلى كثير من الأحكام كالصيام والحج والطلاق ، ومحاجة الضالين ، وختم السورة بالكلام عن إيمان الرسول محمد ﷺ والمؤمنين بالكتب السماوية وبالرسل الكرام دون تفريق أو تفضيل في أصل الرسالة والتشريع ، وكان مسك الختام إبداء ما تفضل الله به على هذه الأمة من التكاليف السمحة السهلة التي لا ضيق ولا حرج فيها ، وأن الإيمان وأهله منصور على الكفر وأعوانه ، إذا صح وصدقت العزيمة وتوافر الإخلاص والصدق وتنفيذ الأحكام الشرعية.

فضل هاتين الآيتين :

ورد في السّنة النّبوية أحاديث كثيرة تشير إلى فضائل هاتين الآيتين ، منها : ما رواه البخاري عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» ، ورواه مسلم عن أبي مسعود الأنصاري بلفظ : «من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

ومنها : ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش ، لم يعطهن نبيّ قبلي». وروى ابن مردويه عن علي قال : «لا أرى أحدا عقل الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة ، فإنها من كنز أعطيه نبيّكم ﷺ من تحت العرش».

ومنها : ما رواه مسلم عن ابن عباس قال : «بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضا فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء ، فقال : هذا باب قد

فتح من السماء ، ما فتح قط ، قال : فنزل منه ملك ، فأتى النّبي ﷺ ، فقال له : أبشر بنورين قد أوتيتهما ، لم يؤتهما نبيّ قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته».

التفسير والبيان :

أخبر الله تعالى عن نبيّه ﷺ وعن المؤمنين بالإيمان بأصول الاعتقاد فقال : صدّق الرسول محمد والمؤمنون برسالته ، بالذي أنزل على قلب محمد ﷺ من ربّه ، من العقائد والأحكام تصديق يقين واطمئنان. قال النّبي ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية فيما رواه الحاكم في مستدركه : «حقّ له أن يؤمن».

كلّ منهم آمن بوجود الله ووحدانيته وتمام حكمته في خلقه ، وبوجود الملائكة الذين لهم مهام عديدة منها السفارة بالوحي بين الله ورسله ، وبالرّسل الكرام الذين أنزل الله عليهم كتبا وصحفا لهداية البشر ، قائلين جميعا : لا نفرق بين الرّسل في الرّسالة والتّشريع من حيث المبدأ ، وأن دعوتهم واحدة هي الإقرار بوجود الله ووحدانيته والدّعوة إلى مكارم الأخلاق. وأما التّفضيل بين الرّسل في آية سابقة : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٣] ، إنما هو في مزايا أخرى غير الرّسالة والتّشريع. وفي هذا إشارة إلى فضيلة المؤمنين على غيرهم من أهل الكتاب الذين يؤمنون ببعض الرّسل ويكفرون بالبعض الآخر.

وقال المؤمنون : بلّغنا الرّسول بالوحي ، فسمعنا القول سماع تدبّر وفهم وقبول ، وأطعنا الأوامر إطاعة إذعان وانقياد ، معتقدين أن كل أمر ونهي إنما هو لسعادة الدّنيا والآخرة.

ويسألون الله تعالى المغفرة بالسّتر في الدّنيا وترك الجزاء في الآخرة ، فأنت المتصرف في أمورنا وإليك المرجع والمآب ، فتفعل فينا ما تشاء. قال جبريل : «إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك ، فسل تعطه ، فسأل : ﴿لا يُكَلِّفُ

الله نَفْساً إِلَّا وُسْعَها﴾ إلى آخر الآية».

لا يكلّف الله أحدا فوق طاقته ، وهذا من لطفه تعالى ورأفته بهم ، وهذه الآية هي التي أوضحت للصحابة ما أشفقوا منه في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ أي أنه تعالى وإن حاسب وسأل ، لكن لا يعذّب إلا بما يملك الشخص دفعه ، فأما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها ، فهذا لا يكلّف به الإنسان ، علما بأن كراهية وسوسة السّوء من الإيمان.

ومنع التّكاليف الشّاقة والتّكليف باليسير مشار إليه في كثير من آي القرآن ، نحو : ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة ٢ / ١٨٥] ، ونحو : ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج ٢٢ / ٧٨].

وللنّفس الإنسانيّة من الأعمال التي تدخل تحت التّكليف المحتمل غير الشّاق ما كسبت من خير وما اكتسبت من شرّ ، ولها الثواب على الخير ، وعليها العقاب على الشّر.

وأضيف الاكتساب إلى الشّر لبيان أنه يحتاج إلى تكلّف وعناء وتخطيط ومصادمة الطبيعة والأعراف ، أما الخير فلا يحتاج إلى جهد كثير ؛ لأنه مما أودع الله في طبع الإنسان ، وترتاح النفس لفعله ، ولا يحتاج إلى حذر وتدبير ، ويقدم الإنسان عليه كلما صفت نفسه وأحسّت بضعفها أمام الخالق ، وبفقرها إليه يوم المحنة الكبرى وكشف الحساب الدّقيق الشامل الرّهيب أمام الله والنّاس.

ثم أرشد الله تعالى عباده إلى هذا الدّعاء ، وقد تكفّل لهم بالإجابة وهو : ﴿رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا﴾ أي إن تركنا فرضا نسيانا ، أو فعلنا حراما ناسين ، أو أخطأنا الصواب في العمل جهلا منا بوجهه الشرعي ، فلا تعاقبنا عليه ، يؤيده ما رواه ابن ماجه والبيهقي والطبراني والحاكم عن أبي ذرّ

وابن عباس وثوبان أنّ النّبي ﷺ قال : «إن الله تعالى تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

. ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً ، كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا﴾ أي لا تكلّفنا من الأعمال الشاقة ، وإن أطقناها ، كما كلفت الأمم الماضية قبلنا كبني إسرائيل الذين كانت توبتهم بقتل التائب نفسه ، وإيجاب ربع المال في الزّكاة ، وقطع موضع النّجاسة من الثوب إذا تنجّس. أما رسالة النّبي ﷺ ففيها التّخفيف والتّيسير والسّماحة والسّهولة ؛ لأنه نبيّ الرحمة المهداة للأمم قاطبة ، روى الخطيب وغيره عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال : «بعثت بالحنيفية السّمحة».

. ﴿رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ﴾ أي من التكليف والمصائب والبلاء ، فلا تبتلينا بما لا قدرة لنا عليه من الفتن. ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا. ﴿وَاغْفِرْ لَنا﴾ فيما بيننا وبين عبادك ، فلا تظهرهم على عيوبنا وأعمالنا القبيحة. ﴿وَارْحَمْنا﴾ فيما يستقبل ، فجنبنا بتوفيقك الوقوع في ذنب آخر.

ويلاحظ أن عدم المؤاخذة على النسيان والخطأ يستتبع العفو ، وأن عدم حمل الإصر (الحرج والحمل الثقيل) يستوجب المغفرة ، وأن عدم تحميل ما لا يطاق يتطلب الرحمة.

. ﴿أَنْتَ مَوْلانا﴾ متولي أمورنا ومالكنا ، وناصرنا ، وعليك توكلنا ، وأنت المستعان ، وعليك التّكلان ، ولا حول ولا قوّة إلا بك.

. ﴿فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾ أي الذين جحدوا دينك ، وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيّك ، وعبدوا غيرك ، وأشركوا معك من عبادك ، فانصرنا عليهم ، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدّنيا والآخرة.

وكان معاذ رضي الله عنه إذا فرغ من هذه السورة قال : آمين.

وقد تكفّل الله بالإجابة ، ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «قال الله : نعم» ، وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : «قال الله : قد فعلت».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيتان على ما يلي :

١ ـ الإيمان لا يتجزّأ : فالمؤمن يجب عليه الإيمان بكل ما أوحى الله به ، والمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد ، فرد صمد ، لا إله غيره ، ولا ربّ سواه ، ويصدقون بجميع الأنبياء والرّسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء ، لا يفرقون بين أحد منهم ، فيؤمنون ببعض ، ويكفرون ببعض ، بل الجميع عندهم صادقون بارّون ، راشدون ، مهديون ، هادون إلى سبيل الخير.

وليس المؤمنون كاليهود والنصارى الذين يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض.

٢ ـ الإيمان يستلزم الطاعة : المؤمن بالله يؤمن بصدق لقائه ، ويسمع ويطيع أوامره ، ويتجنّب نواهيه ، فلا يقصر في واجب ، ولا ينغمس في معصية ، فذلك يتصادم مع الإيمان.

٣ ـ الإسلام دين اليسر : فهو يمتاز بقلّة التّكاليف والفرائض والواجبات ، وبيسر تكاليفه ، وعدم التّكليف بالشّاق من الأعمال ، فلا تكليف فوق الطاقة ، وإنما التّكليف بحسب الوسع والقدرة ، والطاعة على قدر الطاقة ، فقد يكلّفنا الله بأمور فيها شيء من المشقّة لكنها معتادة متحمّلة مقدور عليها ، كثبوت الواحد للعشرة من الكفار في مبدأ الإسلام حينما كان المسلمون قلّة ، وهجرة الإنسان وخروجه من وطنه ، ومفارقة أهله ووطنه وعادته ، أما المشقات الثّقيلة والأمور المؤلمة فهي مرفوعة عنا ، وكان بعضها على الأمم السابقة ، كتكليفهم بقتل أنفسهم

للتوبة ، وقرض موضع النّجاسة كالبول من ثيابهم وجلودهم ، فلله الحمد والمنّة ، والفضل والنّعمة.

والخلاصة : إن قوله تعالى : ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها﴾ نصّ على أن الله تعالى لا يكلّف أحدا ما لا يقدر عليه ولا يطيقه ، ولو كلّف أحدا ما لا يقدر عليه ولا يستطيعه ، لكان مكلّفا له ما ليس في وسعه. وهذا أصل عظيم في الدّين وركن من أركان الإسلام.

هذا من حيث الواقع الفعلي ، أما من حيث الجواز العقلي ، فلم يمنع الأشاعرة من تكليف ما لا يطاق ، فهو جائز عقلا وإن لم يقع شرعا.

٤ ـ المسؤولية الشخصية : ﴿لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة ٢ / ٢٨٦] : للإنسان ما كسب من الحسنات ، وعليه ما اكتسب من السّيئات ، مثل قوله : ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ [الأنعام ٦ / ١٦٤] ، ﴿وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها﴾ [الأنعام ٦ / ١٦٤].

روى ابن مردويه عن ابن عباس قال : «كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسي ، ضحك ، وقال : إنهما من كنز الرحمن تحت العرش» ، وإذا قرأ : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء ٤ / ١٢٣] ، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ، ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى﴾ [النجم ٥٣ / ٣٩ ـ ٤١] استرجع واستكان.

٥ ـ ودلّت آية ﴿لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ﴾ على أنه يطلق على أفعال العباد الكسب والاكتساب ، وعلى أن من قتل غيره بمثقّل كحجر وخشب ، أو بخنق أو تغريق ، فعليه ضمانه قصاصا أو دية ، خلافا لأبي حنيفة الذي جعل ديته على العاقلة (القبيلة) وذلك يخالف الظاهر. ودلّت على أن سقوط القصاص عن الأب بقتل ولده لا يقتضي سقوطه عن شريكه ، فالقود واجب على

شريك الأب في رأي المالكية خلافا لأبي حنيفة ، وعلى شريك المخطئ خلافا للشافعي وأبي حنيفة ، ودلّت أيضا على وجوب الحدّ على المرأة العاقلة البالغة إذا مكنت مجنونا من نفسها.

٦ ـ رفع الإثم عن الخطأ والنسيان : دلّت الآية على أن الإثم مرفوع حال الخطأ والنسيان. وأما الأحكام الدّنيوية المتعلّقة بهما فالصّحيح أنها تختلف بحسب الوقائع ، فقسم لا يسقط باتّفاق كالغرامات والدّيات والصّلوات المفروضات ، وقسم يسقط باتّفاق كالقصاص والنّطق بكلمة الكفر. وقسم ثالث مختلف فيه كمن أكل ناسيا في رمضان أو حنث ساهيا. وهذا يدل على أن أحكام العباد وحقوق الناس ثابتة ، كما سنبيّن في سورة النساء.

خلاصة أهم الأحكام في سورة البقرة المسمّاة «فسطاط القرآن» :

أولا ـ العقائد :

١ ـ دعوة جميع الناس إلى عبادة الله تعالى.

٢ ـ تحريم اتّخاذ الأنداد والشركاء مع الله.

٣ ـ إثبات الوحي والرّسالة بالقرآن وتحدّي الناس بالإتيان بسورة من مثله.

٤ ـ أساس الدّين : توحيد الله ، وإثبات البعث ومحاجة الكافرين الضالين في ذلك.

ثانيا ـ الأحكام العملية الفرعية :

١ ـ إباحة الأكل من الطّيّبات.

٢ ـ الحفاظ على حق الحياة بتشريع القصاص والقتال في سبيل الله.

٣ . أحكام أركان الإسلام : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج والعمرة.

٤ . إنفاق المال في سبيل الله تحقيقا للتّكافل الاجتماعي في الإسلام.

٥ . تحريم الخمر والميسر والرّبا.

٦ . الولاية على اليتامى ومخالطتهم في المعيشة.

٧ . أحكام الزواج من طلاق ورضاع وعدّة ونفقة.

٨ . الوصية الواجبة.

٩ . كتابة وثيقة الدّين والإشهاد عليه والرّهان وكتمان الشهادة ونصاب الشهادة المطلوب في المعاملات.

١٠ . أداء الأمانة.

١١ . صيغة الدّعاء المطلوبة في التّشريع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة آل عمران

هي السّورة الثالثة ، وهي سورة مدنيّة وآياتها مائتان. نزلت بعد الأنفال

مدى صلتها بسورة البقرة :

هناك أوجه اتّصال وشبه ومقارنة بين السورتين : البقرة وآل عمران ، وهي ما يأتي :

١ ـ موقف الناس من القرآن : بدئت السورتان بذكر القرآن (أو الكتاب) وحدد موقف الناس منه ، ففي البقرة : ذكر حال المؤمنين وغير المؤمنين به ، وفي آل عمران : ذكر موقف الزائغين الذين يتصيّدون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وموقف الرّاسخين في العلم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه ، قائلين : كلّ من عند ربّنا.

٢ ـ عقد التّشابه بين خلق آدم وخلق عيسى : ففي البقرة تذكير بخلق آدم ، وفي آل عمران تذكير بخلق عيسى ، وتشبيه الثاني بالأول في خلق غير معتاد.

٣ ـ محاجّة أهل الكتاب : في السورة الأولى : إفاضة في محاجّة اليهود وبيان عيوبهم ونقائصهم ونقضهم العهود ، وفي الثانية : إيجاز في محاجّة النصارى ، لتأخرهم في الوجود عن اليهود.

٤ ـ تعليم صيغة الدّعاء في ختام كلّ منهما : في الأولى دعاء يناسب بدء الدّين ويمسّ أصل التّشريع وبيان خصائصه في قلّة التّكاليف ودفع الحرج والأخذ باليسر والسماحة ، وفي الثانية : دعاء بالتّثبيت على الدّين وقبول دعوة الله إلى الإيمان ، وطلب الثواب عليه في الآخرة.

٥ ـ إثبات الفلاح للمؤمنين : ختمت السورة الثانية بقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهو ما بدئت به السّورة الأولى بقوله تعالى واصفا المؤمنين : ﴿أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ما اشتملت عليه السورة :

تضمّنت هذه السّورة الكلام على جانبي العقيدة والتّشريع ، أما العقيدة : فقد أثبتت الآيات وحدانية الله ، والنّبوة ، وصدق القرآن ، وإبطال شبهات أهل الكتاب حول القرآن والنّبي محمد ﷺ ، وإعلان كون الدّين المقبول عند الله هو الإسلام ، ومناقشة النصارى في شأن المسيح وألوهيته والتكذيب برسالة الإسلام ، واستغرقت المناقشة قرابة نصف السورة ، كما استغرقت سورة البقرة ما يزيد عن ثلثها في مناقشة اليهود وتعداد قبائحهم وجرائمهم ، بالإضافة إلى ما تضمنته هذه السّورة من تقريعاتهم ، والتحذير من مكائد أهل الكتاب.

وأما التّشريع : فقد أبانت الآيات بعض أحكام الشرع مثل فرضية الحج والجهاد وتحريم الرّبا وجزاء مانع الزّكاة ، وبعض الدروس والعبر والعظات من غزوتي بدر وأحد ، والتّنديد بمواقف أهل النّفاق.

ثم ختمت السورة بما يناسب الجانبين ، فطالبت بالتّفكير والتّدبّر في خلق السّموات والأرض وما فيهما من عجائب وأسرار ، وأوصت بالصبر على الجهاد والمرابطة في سبيل الله ، ليحظى الإنسان برتبة الفلاح : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

سبب التّسمية :

سميت السورة سورة آل عمران لإيراد قصة أسرة عمران والد مريم أم عيسى فيها ، وإعداد مريم التي نذرتها أمها للعبادة ، وتسخير الله الرّزق لها في المحراب

واصطفائها وتفضيلها على نساء عالمي زمانها ، وتبشيرها بإنجاب عيسى صاحب المعجزات [(١)]

وسميت آل عمران والبقرة بالزّهراوين ؛ لأنّهما النّيّرتان الهاديتان قارئهما للحقّ بما فيهما من أنوار ، أي معان ، أو لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة ، أو لأنهما اشتركتا فيما تضمنه اسم الله الأعظم ، روى أبو داود وابن ماجه وغيرهما عن أسماء بن يزيد أن رسول الله ﷺ قال : «إن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ﴾ ، والتي في آل عمران : ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾».

فضلها :

أخرج مسلم عن النّواس بن سمعان قال : سمعت النّبي ﷺ يقول : «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقرة وآل عمران» ، وأخرج أيضا عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اقرؤوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه ، اقرؤوا الزّهراوين : البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، تحاجّان عن أصحابهما ، اقرؤوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة» [(٢)].

---

(١) وسميت السورة أيضا : الزهراء والأمان والكنز والمعينة والمجادلة وسورة الاستغفار وطيبة (البحر المحيط : ٢ / ٣٧٣).

(٢) الغمامة : السحاب الملتف ، وهو الغياية ، إذا كانت قريبا من الرأس ، وهي الظّلّة أيضا ، والمعنى أن قارئهما في ظل ثوابهما ، كما جاء في حديث «الرجل في ظل صدقته». تحاجان : أي يخلق الله من يجادل عنه بثوابهما ملائكة. والبطلة : السّحرة.

إثبات التوحيد وإنزال الكتاب

﴿الم (١) اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (٤) إِنَّ اللهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)﴾

الإعراب :

﴿الم﴾ : أحرف مقطعة مبنية غير معربة ، وكذلك سائر حروف الهجاء في أوائل السور ، كما قلنا أول البقرة ، إلا أنه فتحت الميم هاهنا لسكونها وسكون اللام بعدها. وأما قول من قال : إنها فتحت لالتقاء الساكنين ، ففاسد ؛ لأنه لو كان كذلك ، لوجب فتحها في ﴿الم ذلِكَ الْكِتابُ﴾ وفي ﴿حم﴾ وفي ﴿ن﴾ وفي كل حرف من حروف التهجي التي في أوائل السور.

﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ : الله : مبتدأ ، ولا إله : مبتدأ ثان ، وخبره محذوف وتقديره : لا إله معبود إلا هو ، والمبتدأ الثاني وخبره خبر عن المبتدأ الأول. و «هو» مرفوع لوجهين : أحدهما . لكونه مرفوعا على البدل من موضع : لا إله ، والثاني : لكونه خبر : لا إله. ويجوز جعل الجملة في موضع نصب على الحال من الله تعالى ، أو حال من ضمير ﴿نَزَّلَ﴾.

﴿بِالْحَقِ﴾ جار ومجرور في موضع نصب على الحال وعامله فعل مقدر وتقديره : نزل عليك الكتاب كائنا بالحق.

﴿مُصَدِّقاً﴾ حال من ضمير الحق ، وتقديره : نزّل عليك الكتاب محققا مصدقا لما بين يديه. وكلتا الحالين مؤكدة.

﴿التَّوْرَاةَ﴾ في مذهب البصريين على وزن فوعلة ، وأصله : وورية ، فأبدلت الواو الأولى تاء ، وقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ مبني ؛ لأنه مقطوع عن الإضافة ﴿هُدىً﴾ حال بمعنى هادين من الضلالة.

البلاغة :

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ﴾ عبر عن القرآن بالكتاب ، لكمال تفوقه على بقية الكتب السماوية.

﴿لِما بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كناية عما تقدمه من الكتب السماوية ، وعبر بذلك لصلته الوثيقة بها ولظهوره واشتهاره.

﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ﴾ أي أنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل ، وهو من باب عطف العام على الخاص ، حيث ذكر الكتب الثلاثة أولا ، ثم عمّ الكتب كلها.

المفردات اللغوية :

﴿الم﴾ الحروف المقطعة في أوائل السور للتنبيه مثل ألا ويا ، لتنبيه المخاطب إلى ما يلقى بعدها ﴿إِلهَ﴾ الإله هو المعبود بحق ﴿الْحَيُ﴾ ذو الحياة ، وهي صفة تستلزم الاتصاف بالعلم والإرادة ﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم على كل شيء بحفظه ورعايته.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتابَ﴾ القرآن مقترنا بالحق أي الصدق في أخباره فكل ما فيه حق لا شك فيه. ونزل : تفيد التدرج ، والقرآن نزل في نيف وعشرين سنة بحسب الحوادث.

﴿التَّوْراةَ﴾ كلمة عبرية معناها الشريعة ، وتشتمل على خمسة أسفار هي «سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر اللاويين ، وسفر العدد ، وسفر تثنية الاشتراع» ويقول اليهود : إن موسى كتبها ، ويسميها النصارى : العهد القديم أو العتيق ، وفيها حكاية قصص الأنبياء وتاريخ بني إسرائيل قبل المسيح. ﴿الْإِنْجِيلَ﴾ كلمة يونانية ، معناها التعليم الجديد أو البشارة. ويسمى العهد الجديد ، ويشتمل في سيرة المسيح عليه‌السلام وبعض تعاليمه على أربعة أناجيل هي إنجيل متى ويوحنا ومرقس ولوقا وعلى أعمال الرسل (الحواريين) ورسائل بولس وبطرس ويوحنا ويعقوب ، ورؤيا يوحنا ، وهي كلها مكتوبة بعد قرن أو قرنين من وفاة المسيح ، وليس لها سند متصل إلى كاتبها.

والتوراة في عرف القرآن : ما أنزل الله على موسى ، والإنجيل : ما أوحاه الله إلى عيسى عليه‌السلام ، وفيه البشارة بمحمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم وأنه هو الذي يتمم الشريعة.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ تنزيله ﴿هُدىً﴾ هادين من الضلالة ﴿لِلنَّاسِ﴾ ممن تبعهما. وعبر عن

التوراة والإنجيل بأنزل ، وعن القرآن بنزّل ؛ لأنهما نزلا دفعة واحدة ، وأما القرآن فنزل تدريجيا ، والتعبير عن الوحي بالتنزيل أو بالإنزال للإشارة بأن منزلة الموحي أعلى من منزلة الموحى إليه ، فتكرار ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ﴾ لاختلاف الإنزال بآيات الله وكيفيته وزمانه ، والله كرر اسمه تعالى تفخيما ؛ لأن في ذكر الظاهر من التفخيم ما ليس في ذكر المضمر.

﴿الْفُرْقانَ﴾ ما يفرق بين الحق والباطل كالدلائل والبراهين ، وهو عموم بعض خصوص ليعم ما عدا الكتب الثلاثة. ﴿بِآياتِ اللهِ﴾ القرآن وغيره ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ، فلا يمنعه شيء من إنجاز وعده ووعيده ﴿ذُو انْتِقامٍ﴾ عقاب شديد ممن عصاه ، لا يقدر على مثله أحد.

﴿إِنَّ اللهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كائن في الأرض ولا في السماء ، لعلمه بما يقع في العالم من كلي وجزئي ، وخصهما بالذكر ؛ لأن الحس لا يتجاوزهما.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ﴾ التصوير : جعل الشيء على صورة لم يكن عليها ، والأرحام : جمع رحم ، وهو مستودع الجنين من المرأة ﴿كَيْفَ يَشاءُ﴾ من ذكورة وأنوثة وبياض وسواد وطبائع وأخلاق وغير ذلك.

﴿الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه.

سبب النزول :

أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري وابن إسحاق وابن المنذر (١) أن هذه الآيات إلى بضع وثمانين آية نزلت في وفد نصارى نجران ، وفدوا على رسول الله ﷺ ، وكانوا نحو ستين راكبا ، فيهم أربعة عشر من أشرافهم ، وعلى رأسهم أميرهم ووزيرهم وحبرهم ، وخاصموه في عيسى ابن مريم ، وقالوا له : من أبوه؟ وتكلم منهم ثلاثة ، فمرة قالوا : عيسى ابن مريم إله ؛ لأنه يحيي الموتى ؛ وتارة هو ابن الله ، إذ لم يكن له أب ؛ وتارة هو ثالث ثلاثة لقوله تعالى : «قلنا ، وفعلنا» ولو كان واحدا ، لقال : قلت وفعلت.

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ٥٣ ، البحر المحيط : ٢ / ٣٧٣ وما بعدها.

وقالوا على الله الكذب والبهتان ، فقال لهم النبي ﷺ : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا : بلى. قال : ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت ، وأن عيسى أتى عليه الفناء؟ قالوا : بلى. قال : ألستم تعلمون أن ربنا حي قيّم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟ قالوا : بلى. قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟ قالوا : لا. قال : فإن ربنا صوّر في الرّحم كيف شاء ، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث؟ قالوا : بلى. قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته ، كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذّي كما يغذّى الصبي ، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟ قالوا : بلى. قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا ، فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم صدر سورة آل عمران ، إلى بضعة وثمانين آية منها.

التفسير والبيان :

بدأ الله تعالى السورة بإثبات التوحيد أساس الدين لينفي عقيدة التثليث ، ثم أبان أنه تعالى أنزل الكتب على الأنبياء ، وأن عيسى نبي مثلهم فهو منزل عليه ، وأن الله هو صاحب القدرة المطلقة الذي يصور في الأرحام ، ليرد على ولادة عيسى من غير أب ، إذ الولادة من غير أب ليست دليلا على الألوهية ، فآدم مخلوق من غير أب ولا أم ، والخالق هو الإله ، والمخلوق عبد كيفما خلق.

ألم : الحروف المقطعة لتحدي العرب بالإتيان بشيء من مثل القرآن ، ما دام هو مكوّنا من لغتهم ومن الحروف التي ينطقون بها وتتركب منها كلماتهم.

الله لا معبود بحق في الوجود سواه ؛ لأنه الخالق المسيطر على الكون والنفوس ، ولأنه مصدر الخير ودافع الضر ، الحي الدائم الحياة التي لا أول ولا نهاية لها ، القائم على خلقه بالتدبير والتصريف ، وعلى السموات والأرض قبل خلق عيسى ، فكيف قامت ودبّرت قبل وجوده وبعد موته؟!

والله هو الذي نزّل القرآن عليك يا محمد بالحق الذي لا شك ولا شبهة فيه ، مصدقا ومؤيدا ما تقدمه من الكتب المنزلة على الأنبياء السابقين ، وهو تصديق إجمالي لا تفصيلي في أصل الوحي وأصل الرسالة الداعية إلى توحيد الإله ومكارم الأخلاق ، والإخبار والبشارة ، فهي تصدقه بما أخبرت به وبشرت قديما ، وهو يصدقها ؛ لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه.

وأنزل التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى من قبل القرآن ، هداية للناس في زمانهما ، وإرشادا ، فالله هو الذي أنزل الوحي والشرائع قبل وجود عيسى وبعده ، وليس عيسى مصدر الوحي ، وإنما هو كغيره من الأنبياء متلقّ للوحي ، فكيف يكون إلها؟!

وأنزل الله الفرقان : وهو الفارق بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والغي والرشاد ، بالدلائل والبينات الواضحات ، والبراهين القاطعات.

إن الذين كفروا بآيات الله الواضحة الدالة على توحيده وتنزيهه عما لا يليق ، أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل ، لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب كفرهم ، والله منيع الجناب عظيم السلطان ، ذو انتقام ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام ، ينفذ بعزته مراده ، وينتقم ممن خالف وحيه.

وإن الله لا يخفى عليه شيء في الكون ، فيعلم حال الصادق في إيمانه ، وحال الكافر والمنافق والمكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان. وعيسى وغيره لا يعلم شيئا من ذلك ، فكيف يكون إلها؟

والله هو الذي يخلق الإنسان في الرحم كما يشاء ، ذكرا أو أنثى ، حسنا وقبيحا وغير ذلك من الطبائع والألوان والمقادير والسلامة والعاهة ، وعيسى وغيره لا يصوّر أحدا في رحم ولا يخلق شيئا ، بل هو مصوّر مخلوق في رحم أمه ،

وخارج منه ، فكيف يكون إلها؟

لا إله إلا هو العزيز الحكيم : أي هو الخالق الموجد المستحق للألوهية وحده لا شريك له ، الواحد الأحد الفرد الصمد ، المنزه عن الوالد والولد ، العزيز الذي لا يغلب ، الحكيم المنزه عن العبث الذي يضع الأمور في محالّها على وفق الحكمة. وهذا دليل صريح بأن عيسى عبد مخلوق ، كما خلق الله سائر البشر ؛ لأن الله صوّره في الرحم ، وخلقه كما يشاء ، فكيف يكون إلها ، كما زعمت النصارى؟ وقد تدرج خلقه ، وتنقل من حال إلى حال ، كما قال تعالى : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ ، خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ، فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ﴾ [الزمر ٣٩ / ٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أن الله تعالى هو الذي أنزل الكتب السماوية على الأنبياء ، وأن هذه الكتب يصدّق بعضها بعضا ؛ لأن غايتها واحدة ، وهدفها واحد وهو إرشاد الناس إلى الحق ، والإقرار بتوحيد الإله ، والاعتراف بوجوده.

وإنزال الكتب ، والخلق والإيجاد في الأرحام ، والعلم بغيب السماء والأرض دون أن يخفى عليه شيء كلي أو جزئي : أدلة وبراهين ثلاثة قاطعة تثبت الألوهية لله وحده ، دون مشاركة أحد من خلقه له ، أو اتصاف بشر بما يزعم المبطلون من ألوهية إنسان مخلوق ضعيف بحاجة إلى الخالق في كل أموره ، سبحانه لا إله إلا هو ، أي لا خالق ولا مصوّر سواه ، وذلك دليل على وحدانيته ، فكيف يكون عيسى إلها مصوّرا وهو بشر مصوّر؟!

المحكم والمتشابه في القرآن

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (٧) رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (٩)﴾

الإعراب :

﴿مِنْهُ آياتٌ﴾ جار ومجرور في موضع نصب على الحال من الكتاب ، وتقديره : أنزل عليك الكتاب كائنا منه آيات. وآيات : فاعل لاسم الفاعل : كائن ، المقدر. ومحكمات : صفة لآيات. ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ﴾ : جملة اسمية في موضع رفع صفة لآيات أيضا. ﴿وَأُخَرُ﴾ معطوف على قوله : آيات محكمات. وأخر : ممنوع من الصرف للوصف والعدل ، معدول عن آخر.

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ إما مبتدأ ، وخبره : آمنا به ، وإما عطف على الله تعالى ، فكأنه قال : لا يعلم تأويله إلا الله ويعلمه الراسخون. والهاء في تأويله : تعود على المتشابه.

البلاغة :

﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ﴾ استعارة ، شبّه أصول الآيات المحكمات بالأم ، وسائر الآيات يتبعها أو يتعلق بها ، كما يتعلق الولد بأمه.

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ استعارة أيضا ، شبه المتمكنين في العلم بالأشياء الثقيلة الراسخة في الأرض.

المفردات اللغوية :

﴿مُحْكَماتٌ﴾ واضحات الدلالة ، لا خلاف في معناها ، من أحكم الشيء : وثقه وأتقنه ، مفردها محكم : وهو ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ﴿أُمُّ الْكِتابِ﴾ أصله المعتمد عليه في الأحكام ﴿مُتَشابِهاتٌ﴾ هي التي لم يظهر معناها ولم يتضح ، بل خالف ظاهر اللفظ المعنى المراد ، كأوائل السور. وقال القرطبي : المتشابه : ما استأثر الله بعلمه دون خلقه ، ولم يكن لأحد إلى علمه سبيل ، مثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج الدجال ، والدابة التي تكلم الناس إذا وقع القول عليهم ، ونحو ذلك.

وجعل الكتاب في آية أخرى : ﴿أُحْكِمَتْ آياتُهُ﴾ كله محكما : بمعنى أنه ليس فيه عيب ، وفي آية أخرى : ﴿كِتاباً مُتَشابِهاً﴾ كله متشابها : بمعنى أنه يشبه بعضه بعضا في الحسن والصدق. فلكل آية معنى خاص غير الآخر ، فلا تعارض بين الآيات.

﴿زَيْغٌ﴾ : ميل عن الحق إلى الأهواء الباطلة ﴿ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ﴾ : طلب الفتنة لجهالهم بوقوعهم في الشبهات واللبس ﴿وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ : تفسيره ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ تفسيره ومعرفة حقيقته وبيان ما يؤول إليه في الواقع ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ : المتمكنون في العلم المتفقهون في الدين المتأكدون منه ، وهو أبلغ من قول : والثابتون في العلم ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ أي بالمتشابه أنه من عند الله ولا نعلم معناه ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا﴾ : أي كل من المحكم والمتشابه من عند الله. ﴿وَما يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ ﴿أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أصحاب العقول.

﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا﴾ أي ويقولون أيضا إذا رأوا من يتبعه : ربنا لا تمل قلوبنا عن الحق بابتغاء تأويله الذي لا يليق بنا ، كما أزغت قلوب أولئك. ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا﴾ أرشدتنا إليه ﴿وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ﴾ من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ عناية إلهية وتوفيقا وتثبيتا على الحق.

﴿جامِعُ النَّاسِ﴾ جمع الناس : حشرهم للحساب والجزاء ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك في وقوعه ، وهو يوم القيامة ؛ لأنك أخبرت به ، وقولك الحق ، فتجازي الناس بأعمالهم ، كما وعدت بذلك. ﴿إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ موعده بالبعث فيه. فيه التفات عن الخطاب إلى الغيبة. والغرض من الدعاء بذلك : بيان أن همهم أمر الآخرة ، ولذلك سألوا الثبات على الهداية ، لينالوا ثوابها.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى أن في القرآن آيات محكمات وآيات متشابهة في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فالمحكم العبارة : هو الواضح الدلالة التي لا التباس فيها

على أحد ، والمتشابه : هو الذي لم يظهر معناه ولم يتضح المراد منه بسبب التعارض بين ظاهر اللفظ والمعنى المراد منه ، أو هو ما استأثر الله بعلمه من أحوال الآخرة. وهذا الإخبار للرد على النصارى الذين يستدلون ببعض آيات القرآن التي يفيد ظاهرها تميز عيسى على غيره من البشر. والمراد بالكتاب هنا : القرآن باتفاق المفسرين.

والمحكم :

مثل قوله تعالى : ﴿قُلْ : تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ وما بعدها من الآيات [الأنعام ٦ / ١٥١ . ١٥٣] ، وقوله تعالى : ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ والآيات الثلاث بعدها من سورة [الإسراء ١٧ / ٢٣ . ٢٦] وقوله عزّوجلّ في شأن عيسى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٥٩]. فهذه الآيات وأمثالها وهي تمثل أغلب القرآن في تبيان أحكام الفرائض وأصول الاعتقاد والأمر والنهي والحلال والحرام ، كلها واضحة الدلالة على المعنى المراد ولا تحتمل أي معنى آخر ، هي أم الكتاب أي أصل القرآن وعماده ومعظمه ، وغيرها متفرع عنها تابع لها ، فإن اشتبه علينا آية منها ، ردت إلى المحكم وحملت عليه ، كقوله تعالى في شأن عيسى : ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء ٤ / ١٧١] يحمل على قوله : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٥٩] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران ٣ / ٥٩] أي أننا نؤمن بأن كل الآيات من عند الله ، وأنه لا ينافي الأصل المحكم.

والمتشابه :

مثل قوله تعالى في عيسى عليه‌السلام ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء ٤ / ١٧١] ، وقوله : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران ٣ / ٥٥]

وقوله تعالى عن ذاته : ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ [طه ٢٠ / ٥] وقوله : ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح ٤٨ / ١٠].

فهذه الآيات تحتمل عدة معان ، ويخالف ظاهر اللفظ فيها المعنى المراد ، فربما وافقت المحكم ، وربما وافقت شيئا آخر من حيث اللفظ والتركيب ، لا من حيث المراد.

فليس لكم أيها النصارى الاحتجاج بأمثال هذه الآيات التي هي من المتشابه الذي يحتمل أكثر من معنى ، وإنما عليكم الوقوف عند محكم التنزيل ، مثل قوله تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ ، وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء ٤ / ١٧٢].

ومعنى المتشابه والمحكم هنا يختلف عن معناه في آيات أخرى ، فقد وصف القرآن كله بالمحكم في قوله تعالى : ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ﴾ [هود ١١ / ١] والمراد أنه ليس فيه عيب وأنه كلام حق فصيح الألفاظ صحيح المعاني ، أحكم نظمه وأتقن ، واشتمل على الحكمة ، ووصف القرآن أيضا بالمتشابه في قوله : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً﴾ [الزمر ٣٩ / ٢٣] والمعنى أنه يشبه بعضه بعضا في الحسن والصدق والهداية ، والسلامة من التناقض والاختلاف ، كما قال : ﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ ، لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء ٤ / ٨٢].

فأما الذين في قلوبهم زيغ ، أي ضلال وميل عن الحق إلى الباطل ، فيتبعون أهواءهم ، فيأخذون بالمتشابه الذي يتمسكون به ، ويمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، ويتركون المحكم الذي لا التباس فيه ، بقصد إيقاع الناس في الفتنة في الدين وإضلال أتباعهم ، إيهاما لهم أنهم يحتجون على مزاعمهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وتركوا الاحتجاج بقوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ

﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٥٩] وبقوله : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران ٣ / ٥٩].

وهم يفعلون ذلك أيضا بقصد تأويل القرآن على غير حقيقته ، وتحريفه على ما يريدون ، متبعين أهواءهم وتقاليدهم وموروثاتهم ، وتاركين الأصل المحكم الذي بني عليه الاعتقاد ، وهو عبودية عيسى لله وإطاعته إياه.

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ ، مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ ، هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ ، وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ﴾ الآية ، ثم قال : «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمّاهم الله ، فاحذروهم». وروى ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه ، فآمنوا به».

وما يعلم تأويل المتشابه إلا الله ، فهو مما استأثر الله بعلمه ، أو ما خالف ظاهر اللفظ فيه المراد منه ، فلا يعلم حقيقته إلا الله.

ويرى جماعة من الصحابة كأبي بن كعب وعائشة وابن عباس وابن عمر الوقوف على لفظ الجلالة ، فلا يعلم تأويل المتشابه إلا الله ، وأما الراسخون في العلم فكلام مستأنف ، يقولون : آمنا به ؛ لأنه تعالى وصفهم بالتسليم المطلق لله تعالى ، والعارف بالشيء لا يعبر عنه بالتسليم المطلق أو المحض.

ويرى جمهرة من الصحابة كابن عباس ، وتبعهم كثير من المفسرين [1] وأهل

---

(١) هذا رأي ابن كثير ، وعكس القرطبي الأمر ، فقال : مذهب أكثر العلماء الوقوف التام عند لفظ الجلالة ، وتم الكلام عند قوله : «إلا الله». والراسخون مقطوع مما قبله ، وهو استئناف كلام آخر.

الأصول أنه لا يوقف على لفظ الجلالة ، والراسخون معطوف عليه ، على معنى : لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم. قال ابن عباس : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. فالمتشابه يعلمه الراسخون ؛ لأن الله تعالى ذم الذين يبتغون التأويل بقصد الفتنة والإضلال ، ذاهبين فيه إلى ما يخالف المحكم ، والراسخون في العلم ليسوا كذلك ، فهم أهل اليقين الثابت الذي لا اضطراب فيه ، إذ يفهمون المتشابه بما يتفق مع المحكم.

وأما قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ : آمَنَّا﴾ فهو كلام مستأنف ، لا ينافي العلم ، فهم يجعلون المحكم هو الأساس ، ويؤمنون بأن كلا من المحكم والمتشابه من عند الله ، وكلاهما حق وصدق ، وكل واحد منهما يصدق الآخر ، ويدل لذلك أن النبي ﷺ دعا لابن عباس بقوله : «اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل».

والحكمة من وجود المتشابه مع العلم بأن القرآن نزل هاديا للناس : هو تمييز الصادق الإيمان من ضعيفة ، وبيان فضيلة الراسخين في العلم الذين ينظرون ويبحثون ؛ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به ، وإن لم يعلموا بحقائق الأشياء ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها الصحيح أولو العقول السليمة ، والفهوم المستقيمة. ووصف النبي ﷺ الراسخين في العلم. فيما يرويه ابن أبي حاتم عن عبيد الله بن يزيد التابعي الذي أدرك أنسا وأبا أمامة وأبا الدرداء : أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين في العلم ، فقال : «من برت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، ومن عف بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين في العلم».

ثم ذكر دعاء هؤلاء الراسخين للثبات على فهم المتشابه وهو :

١ - ﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا ..﴾ الآية ، أي إن الراسخين في العلم المؤمنين بالمتشابه يطلبون من الله الثبات على الهداية ، والحفظ من الزيغ بعد الهداية ،

وهبة الرحمة والفضل من الله ، والتوفيق إلى الخير والسداد ، إنك أنت الوهاب.

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يدعو : «يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك» قلت : يا رسول الله ، ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء ، فقال : «ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه».

٢ ـ ﴿رَبَّنا ، إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ ...﴾ أي ربنا إنك تجمع الناس للجزاء في يوم لا شك فيه ، ووعدك الحق الذي لا يخلف. وتعليمنا هذا الدعاء لنشعر بالخوف من تسرّب الزيغ الذي يسلب الرحمة في ذلك اليوم. وفي هذا إقرار بالبعث يوم القيامة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أن آيات القرآن أكثرها محكم ، وبعضها متشابه ، وأن المتشابه لا يعلم المراد منه إلا الله والمتمكنون من العلم ، لكن علمهم الله طريق العصمة من الزيغ في فهم المتشابه بدعاءين : ﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا ... رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ ...﴾ وأما الزائغون فيتبعون المتشابه.

وقد أوردت أمثلة من المحكم والمتشابه ، وأبنت المراد منهما على الأصح ، وسأذكر أمثلة أخرى للمتشابه.

نماذج من المتشابه :

روى البخاري عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس : إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي ، قال : ما هو؟ قال : ﴿فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١٠١] وقال : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ﴾ [الصافات ٣٧ / ٢٧]. وقال : ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾ [النساء ٤ / ٤٢] وقال :

﴿وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٣] فقد كتموا في هذه الآية. وفي النازعات : ﴿أَمِ السَّماءُ بَناها ...﴾ [النازعات ٧٩ / ٢٧] إلى قوله : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾ [النازعات ٧٩ / ٣٠] ، فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ، ثم قال : ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ...﴾ [فصلت ٤١ / ٩] إلى قوله : ﴿أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ فذكر في هذا خلق الأرض قبل خلق السماء. وقال : ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾. ﴿وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾. ﴿وَكانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ فكأنه كان ثم مضى.

فقال ابن عباس : ﴿فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ﴾ في النفخة الأولى ، ثم ينفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، فلا أنساب بينهم في ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وأما قوله : ﴿ما كُنَّا مُشْرِكِينَ وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، وقال المشركون : تعالوا نقول : لم نكن مشركين ؛ فختم الله على أفواههم ، فتنطق جوارحهم بأعمالهم ، فعند ذلك عرف أن الله لا يكتم حديثا ، وعنده يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين.

وخلق الله الأرض في يومين ، ثم استوى إلى السماء ، فسوّاهن سبع سماوات في يومين ، ثم دحا الأرض أي بسطها ، فأخرج منها الماء والمرعى ، وخلق فيها الجبال والأشجار والآكام وما بينها في يومين آخرين ؛ فذلك قوله : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾. فخلقت الأرض في أربعة أيام ، وخلقت السماء في يومين. وقوله : ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ يريد نفسه ذلك ، أي لم يزل ولا يزال كذلك ؛ فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذي أراد. ويحك! فلا يختلف عليك القرآن ، فإن كلا من عند الله [١].

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ١٢.

متبعو المتشابه :

متبعو المتشابه إما أن يتبعوه طلبا للتشكيك في القرآن وإضلال العوامّ ، كما فعلته الزنادقة والقرامطة [١] الطاعنون في القرآن ؛ وإما أن يتبعوه طلبا لاعتقاد ظواهر المتشابه ، كما فعلته المجسّمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسنة ، مما ظاهره الجسمية ، حتى اعتقدوا أن البارئ تعالى جسم مجسم ، وصورة مصوّرة ذات وجه وعين ويد وجنب ورجل وأصبع ، تعالى الله عن ذلك!

أو يتبعوه على جهة إبداء تأويلاتها وإيضاح معانيها.

أو يكثروا السؤال عنها.

فهذه أربعة أقسام : أما القسم الأول : فلا شك في كفرهم ، ويقتلون في رأي المالكية من غير استتابة ، وأما القسم الثاني : فالصحيح القول بتكفيرهم ، إذ لا فرق بينهم وبين عباد الأصنام ، وحكمهم كالمرتدين ، يستتابون ، فإن تابوا وإلا قتلوا.

وأما القسم الثالث : فاختلفوا في جواز تأويلها ، فمذهب السلف ترك التعرض لتأويلها مع قطعهم باستحالة ظواهرها ، ويؤمنون بها كما جاءت وهو الأولى. ومذهب آخرين : إبداء تأويلاتها وحملها على مقتضى اللسان العربي من غير قطع بتعيين مجمل منها. وقد قيل : مذهب السلف أسلم ، ومذهب الخلف أعلم.

وأما القسم الرابع : فيعزرون تعزيرا بليغا.

---

(١) القرامطة : فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة الذين يعتقدون نبوّة زرادشت ومزدك وماني ، وكانوا يبيحون المحرمات.

عاقبة الكفار المغرورين بالمال والولد ومثال ذلك

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ (١٢) قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (١٣)﴾

الإعراب :

﴿كَدَأْبِ ...﴾ الكاف إما مرفوع خبر مبتدأ محذوف وتقديره : دأبهم كدأب ، وإما منصوب بفعل مقدر تقديره : يتوقّدون توقّد آل فرعون ، دل عليه ما قبله وهو : فأولئك هم وقود النار.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إما مرفوع مبتدأ والخبر : ﴿كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ ، وإما مجرور بالعطف على ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾.

﴿فِئَةٌ﴾ إما مرفوع خبر مبتدأ محذوف تقديره : إحداهما فئة ، وإما مجرور بدل من ﴿فِئَتَيْنِ وَأُخْرى﴾ يجوز فيه الرفع والجر بالعطف على ﴿فِئَةٌ﴾ بالرفع ولأجر. وجملة ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ حال من كاف ﴿لَكُمْ﴾ أو صفة لأخرى بالرفع أو الجر

البلاغة :

﴿مِنَ اللهِ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من عذاب الله ﴿شَيْئاً﴾ التنكير للتقليل ، أي لن تنفعهم أي نفع ولو قليلا. ﴿وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ الجملة اسمية للدلالة على ثبوت الأمر وتحققه. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ﴾ التفات من الحضور إلى الغيبة ، والأصل : (فأخذناهم). ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ قدم الجار والمجرور للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر. وتنكير آية للتفخيم والتهويل ، أي آية عظيمة ، ومثله تنكير «ورضوان». ويوجد جناس اشتقاق بين ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ و ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿لَنْ تُغْنِيَ﴾ تنفع. ﴿مِنَ اللهِ﴾ أي من عذاب الله. ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ : ما توقد به النار من حطب أو فحم ونحوهما. ﴿كَدَأْبِ﴾ كعادة ، أي دأبهم كدأب. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أهلكهم بها ، والجملة مفسرة لما قبلها. ﴿الْمِهادُ﴾ الفراش.

﴿آيَةٌ﴾ علامة على صدق ما يقول الرسول.

﴿الْتَقَتا﴾ يوم بدر للقتال. ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾ ضعفي المسلمين ، بل أكثر منهم ، إذ كانوا نحو ألف ، والمسلمون ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا. ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي رؤية ظاهرة معاينة. ﴿يُؤَيِّدُ﴾ يقوي. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ المذكور. ﴿لِأُولِي الْأَبْصارِ﴾ لذوي البصائر ، أفلا تعتبرون بذلك فتؤمنوا.

سبب النزول : نزول الآية (١٢ ـ ١٣):

روى أبو داود في سننه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ، لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع ، وقال : يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا ، فقالوا : يا محمد ، لا يغرّنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش ، كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، إنك ، والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ إلى قوله : ﴿لِأُولِي الْأَبْصارِ﴾[١]

المناسبة :

ذكر الله تعالى في مطلع السورة مبدأ التوحيد والكتب الناطقة به وبخاصة القرآن وإيمان العلماء الراسخين به كله ، ثم ذكر حال الكفرة وسبب كفرهم وهو اغترارهم في الدنيا بالمال والولد ، وبيّن أنها لن تغني عنهم شيئا في الآخرة والدنيا.

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٣٩٢

وضرب على ذلك المثل بغزوة بدر حيث التقى جند الإيمان والرحمن بجند الكفر والشيطان ، فانتصرت الفئة المؤمنة القليلة على الفئة الكثيرة ، فلم تنفعهم كثرة الأموال والأولاد والسلاح.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار يوم القيامة ، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه ، كما قال تعالى : ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ ، إِنَّما يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ ، وَهُمْ كافِرُونَ﴾ [التوبة ٩ / ٨٥]. وقد كانوا يقولون : نحن أكثر أموالا وأولادا ، وما نحن بمعذبين ، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً﴾ [سبأ ٣٤ / ٣٧].

ومعنى قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي كذبوا بآياته ورسله وخالفوا كتابه ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ، وذلك يشمل وفد نجران والنصارى واليهود والمشركين ، وكل كافر.

فهؤلاء كلهم لن تنجيهم أموالهم ولا أولادهم ، وأولئك المبعدون هم وقود النار وأهلها ، وحطبها الذي تسجر به وتوقد به ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ، أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٩٨].

وصنيعهم وحالهم في تكذيب محمد ﷺ وشريعته كحال آل فرعون ومن قبلهم من المؤتفكات كقبائل عاد وثمود ، كذبوا بآيات الله ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، والله شديد العقاب قوي العذاب.

ثم هددهم الله وتوعدهم بالعقاب في الدنيا ، فقال : قل يا محمد للكافرين ومنهم اليهود ستغلبون في الدنيا ، وتحشرون يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد الذي

مهدتم لأنفسكم ، أي يا معشر اليهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر ، قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم ، فقد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم.

والآية أي الدلالة والعلامة على أنكم مغلوبون ، وأن الله معزّ دينه ، وناصر رسوله : التقاء جماعتين ، إحداهما معتزة بكثرة مالها ، مغترة بعددها ، كافرة بالله ، تقاتل في سبيل الشيطان ، وهم مشركو قريش يوم بدر ؛ والأخرى فئة قليلة العدد ، مؤمنة بالله ، تقاتل في سبيل الله ، وهم المسلمون في معركة بدر.

فقد كان المؤمنون ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، معهم فرسان ، وست أدرع ، وثمانية سيوف ، وأكثرهم رجالة مشاة. وكان الكافرون نحو ألف ، أي ثلاثة أمثال المسلمين في الواقع. روى محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ ، لما سأل ذلك العبد الأسود لبني الحجاج عن عدّة قريش ، قال : كثير ، قال : «كم تنحرون كل يوم؟» قال : يوما تسعا ويوما عشرا ، قال النبي ﷺ : «القوم : ما بين تسعمائة إلى ألف».

لكن في رأي العين . وهي الرؤية المكشوفة الظاهرة لهم كسائر المعاينات . دلت الآية على أن الكافرين كانوا مثلي المسلمين فقط ، أي ضعفيهم في العدد ، وإن كانوا ثلاثة أمثالهم في العدد ، لأن الله قللهم في أعينهم ، حتى يقاتل الرجل المسلم رجلين ، كما في قوله تعالى : ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ ، بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الانفعال ٨ / ٦٦] أي أن الله تعالى أراهم الكفار على غير عدتهم ، لتقوى قلوبهم بذلك ، وليطلبوا الإعانة من ربهم عزّوجلّ ؛ ورأى المشركون المؤمنين مثلي عددهم ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع.

هذا في بدر ، أيد الله المؤمنين بنصره ، وكذلك صدق الله وعده ، فقتل

المسلمون يهود بني قريظة الذين خانوا العهد ، ونقضوا الميثاق ، ودخلوا مع المشركين في غزوة الأحزاب (أو الخندق) ؛ وأجلى المسلمون بني النضير المعتدين على حرمات الإسلام والمسلمين ، وفتحوا خيبر ، وفرضوا الجزية على من عداهم حينما قاتلوا المسلمين وبدؤوهم بالعدوان.

والله دائما يؤيد ويدعم بمعونته من يشاء ، كما أيد أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو ، وتقليل الأعداء في عين المسلمين ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً ، وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ، لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً﴾(١)﴿، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال ٨ / ٤٤] وقال : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ..﴾ [آل عمران ٣ / ١٢٣].

إن في هذا النصر الحاصل في بدر مع قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم عظة لمن عقل وتدبر ، وأعمل البصيرة والفكر ، ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في الدنيا والآخرة ، بشرط نصرة دين الله ، كقوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ [محمد ٤٧ / ٧] وقوله : ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم ٣٠ / ٤٧] والمؤمن : هو من يشهد له القرآن بإيمانه ، لا من يدعي الإيمان بلسانه ، وأخلاقه وأعماله تكذب دعواه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشد الآيات إلى مبادئ ثلاثة كبرى في ميزان الله وهي :

١ ـ تأكد وقوع العذاب للكفار في نار جهنم ، دون أن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا.

---

(١) أي ليفرق بين الحق والباطل ، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان ، ويعز المؤمنين ، ويذل الكافرين.

٢ ـ الشأن والعادة المقررة : توجيه المؤاخذة وإيقاع العقاب الشديد بسبب الذنوب والتكذيب بآيات الله المتلوة ، فلا يختلف الحكم بين كفار قريش وبين آل فرعون ومن قبله من قوم لوط وعاد وثمود غيرهم ، كما قال تعالى : ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا ..﴾ وقال : ﴿وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ [غافر ٤٠ / ٤٥ ـ ٤٦] وقال : ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..﴾ [الانفعال ٨ / ٥٤].

٣ ـ النصر منوط بإرادة الله على وفق الحكمة الإلهية ، ولمكافأة المؤمنين الممتثلين أوامر ربهم ، وليست موازين النصر بالكثرة العددية أو بالتفوق في السلاح ، وإنما بمقدار الإيمان والثقة بالله ، فقد ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة : ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٤٩] ودلت الآية على صحة نبوة النبي ﷺ من وجهين :

الأول ـ غلبة الفئة القليلة العدد الفئة الكثيرة العدد ، وذلك على خلاف مجرى العادة ، لما أمدهم الله به من الملائكة.

والثاني ـ أن الله تعالى كان قد وعدهم إحدى الطائفتين ، وأخبر النبي ﷺ المسلمين قبل اللقاء بالظفر والغلبة ، وقال : هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ، وكان كما وعد الله وأخبر به النبي ﷺ.

محبة الشهوات في الدنيا

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ

﴿الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾

الإعراب :

﴿وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ : الله مبتدأ مرفوع ، وحسن : مبتدأ ثاني ، وعنده : خبر المبتدأ الثاني. والمبتدأ الثاني وخبره : خبر عن المبتدأ الأول. والمآب : مضاف إليه ، أصله مأوب على وزن مفعل : من آب يئوب ، إلا أنه نقلت حركة الواو إلى الهمزة ، فتحركت الواو وانفتح ما قبلها وقلبت ألفا نحو : مقام ومقال.

البلاغة :

﴿حُبُّ الشَّهَواتِ﴾ أي المشتهيات ، وعبّر بالشهوات عن الأعيان المشتهاة ، مبالغة في كونها مشتهاة ، محروصا على الاستمتاع بها. والقصد تخسيسها ، وأن المزيّن لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير. ويوجد جناس ناقص بين ﴿الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿زُيِّنَ﴾ حبّب لهم ، والمزين : هو الله للابتلاء ، أو الشيطان بوسوسته وتحسينه الميل إليها ﴿الشَّهَواتِ﴾ جمع شهوة : وهي ما تشتهيه النفس وتميل إليه وتستلذه ، والمراد بها المشتهيات ، كما يقال : شهوة فلان : الطعام ، أي ما يشتهيه. ﴿وَالْقَناطِيرِ﴾ جمع قنطار : وهو المال الكثير ، وعن سعيد بن جبير : مائة ألف دينار. ولقد جاء الإسلام وفي مكة : مائة رجل قد قنطروا ﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾ المجمعة ﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾ الحسان المعلمة ، من السومة : وهي العلامة ، أو المرعية في المروج والمراعي : من أسام الدابة وسوّمها : رعاها ﴿وَالْأَنْعامِ﴾ : الإبل والبقر والمعز والغنم ﴿وَالْحَرْثِ﴾ الزرع والنبات ﴿ذلِكَ﴾ أي المذكور أو المتقدم ذكره ﴿مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ يتمتع به فيها ثم يفنى ﴿وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ المرجع وهو الجنة ، فينبغي الرغبة فيه دون غيره.

المناسبة :

ذكر في الآيات السابقة عاقبة الغرور بالمال والولد ، ثم ذكر هنا وجه الغرور وسببه ، تحذيرا للناس من استعباد الشهوات لأنفسهم ، والانشغال بها عن أعمال الآخرة.

التفسير والبيان :

حببت الشهوات للناس وحسّنت في أعينهم وقلوبهم ، حتى صار حبها غريزة أو فطرة عندهم ، فمن أحب شيئا ولم يزين له ، يوشك أن يعدل عنه يوما ما ، ومن زين له حبه ، فلا يكاد يعدل عنه. ولقد عبر القرآن عن الأشياء المشتهاة بالشهوة ذاتها مبالغة في كونها مشتهاة مرغوبا فيها ، وإشارة إلى أن الشهوة مذمومة حتى يعتدل الإنسان في حبه لها ، ويعدّل غريزته نحوها ، ولا يحمله حبّه الدنيا حبا أعمى ، وتعلقه بالزعامة الموقوتة ، والمال الزائل على طمس معالم الحق وعدم الإيمان بدين الحق ، الذي عرفوه كما عرفوا أبناءهم ، مثل وفد نصارى نجران وغيرهم من زعماء الكفر.

ومن المزين للشهوات؟ قيل : المزين هو الله للابتلاء والاختبار ، بمعنى أن الله فطر الناس على حب هذه الشهوات ، كما قال : ﴿إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف ١٨ / ٧] وقال : ﴿كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام ٦ / ١٠٨].

وقيل : المزين هو الشيطان بالوسوسة وتحسين الميل للشهوات للإضلال ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ﴾ [الأنفال ٨ / ٤٨].

وعلى أي حال ، الإسلام دين ودنيا ، فلا يقصد من هذه الآية المنع من مجرد حب معتدل للشهوات ، وإنما الممنوع المبالغة في الحب والإسراف في الشهوات ، والاشتغال بها ، حتى تطغى على العقيدة والدين ، ويهمل أمر الآخرة ، بدليل قوله تعالى : ﴿قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٢].

ثم ذكر الله تعالى أصنافا ستة من المشتهيات والملاذ وهي :

١ . النساء :

فإن الرجل متعلق بالمرأة ، ميال إليها ، فهي مطمح النظر ، وموضع العناية ، وإليها تسكن نفسه : ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم ٣٠ / ٢١] وعليها ينفق ماله بسخاء. وبدأ بالنساء ؛ لأن الفتنة بهن أشد ، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» (١).

وقدم النساء على الأولاد مع أن حبهنّ قد يزول ، وحب الأولاد لا يزول ؛ لأن حب الولد لا غلو ولا إسراف فيه ، كحب المرأة.

أما إذا كان القصد بتعلق الرجل بالمرأة هو الإعفاف وكثرة الأولاد ، فهو مطلوب ، مرغب فيه ، مندوب إليه شرعا ، قوله ﷺ : «الدنيا كلها متاع ، وخير متاع الدنيا : المرأة الصالحة»(٢). وفي رواية : «الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة : إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله». ولم يمنع النبي ﷺ من حب المرأة حبا معقولا فقال : «حبّب إلي من دنياكم : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة» (٣).

٢ . البنون :

أي الأولاد مطلقا ، فهم فلذة الأكباد ، وقرة الأعين. لكنهم مع الأموال فتنة تتطلب الحذر ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن ٦٤ / ١٥] والفتنة بالأولاد : الابتلاء بجمع المال لأجلهم.

---

(١) رواه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه (الجماعة) عن أسامة بن زيد.

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي عن أنس بن مالك.

وسبب حب الأولاد والزوجات واحد : هو بقاء النوع الإنساني ، وحب بقاء الأثر والسمعة والذّكر.

وعبر بالبنين ويشمل البنات من باب التغليب ؛ إذ أن حب الابن عادة أقوى من حب البنت ؛ لأن بقاء الذّكر والسمعة بين الناس يكون عن طريق البنين ، ولأن الأنثى تنفصل من عشيرتها وتلتحق بعشيرة أخرى ، ولأن الأمل بدعم الولد لوالده وكفالته له حين الحاجة يتعلق بالابن ، ولأن مخاطر الأنثى أكثر من مخاطر الذكر.

٣ . القناطير المقنطرة من الذهب والفضة :

المراد المال الكثير ؛ لأن العرب تريد بالقناطر المال الكثير ، والمقنطرة تأكيد. وحب المال غريزة في البشر ؛ لأنه وسيلة لتحقيق الحوائج وتلبية الرغبات.

جاء في السنة : «لو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيا ، ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب» (١).

وذم المال ليس لذاته ، فهو نعمة من الله ، وإنما لما يؤديه من طغيان وتكبر وفسوق كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾ [العلق ٩٦ / ٦ ـ ٧] ، أما إذا أدى المسلم فيه حقوق الله والناس ، وشكر النعمة ، ووصل به الرحم ، وأنفق منه في سبيل الله ، كان خيرا وسببا للسعادة والتقرب من الله ، جاء في الحديث الثابت المتقدم : «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

---

(١) رواه أحمد والشيخان والترمذي عن أنس بن مالك ، ورواه أحمد والشيخان أيضا عن ابن عباس.

٤ . الخيل المسوّمة :

المعلمة أو التي ترعى في المراعي أو المطهّمة الحسان الأصيلة التي يقتنيها السادة والأغنياء : من المتع التي يفاخر بها الناس بعضهم ، ويتنافسون فيها ، وهي مذمومة إن كانت سببا للشر والبعد عن الله وإهمال واجبات الله. وتكون محمودة إن استخدمت للجهاد في سبيل الله ، عملا بقوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال ٨ / ٦٠]. قال العلماء أخذا بحديث : حب الخيل على ثلاثة أقسام : تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله ، فهؤلاء يثابون. وتارة تربط فخرا لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر ، وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها ، فهذه لصاحبها ستر.

٥ . الأنعام :

وهي ثروة الناس الأصلية إلى عهد قريب ، وبها معايشهم ، وتفاخرهم وتكاثرهم ، وهي زينة ، فإن اقتناها صاحبها بقصد المعيشة كانت خيرا ، وإن اقتناها مفاخرة ورياء ، كانت شرا.

٦ . الحرث :

الزرع والنبات : هو مصدر دائم للحياة في البادية والحضر ، والحاجة إليه أشد من الحاجة لما سواه من الأنواع السابقة ، فإن قصد به نفع العباد ، كان صاحبه مأجورا ، وإن قصد به التكثر والبطر كان عليه شرا.

ثم وصف الله تلك الأصناف الستة وصفا عاما وهو أنها متاع يتمتع به في الدنيا ، والله عنده حسن المآب أي المرجع في الحياة الآخرة. فعلى المؤمن ألا يغتر بهذه الشهوات ، وإنما يعتني بها بجعلها مجرد وسيلة للمعيشة في الدنيا ، ولا تشغله عن واجباته الدينية نحو الآخرة ، فالمؤمن يعمل لسعادة الدارين ، كما قال تعالى :

﴿رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾ [البقرة ٢ / ٢٠١].

فقه الحياة أو الأحكام :

الآية توبيخ لمعاصري محمد ﷺ من اليهود وغيرهم ، ممن صرفتهم الأهواء والشهوات عن اتباع دعوة الإسلام ، فإذا أراد الإنسان النجاة من حساب الله يوم القيامة ، ابتعد عن مزالق الشهوات الممنوعة ، فإن اتباع الشهوات مرد في النار ومهلكة ، جاء في صحيح مسلم عن أنس : «حفّت الجنة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات» والمعنى أن الجنة لا تنال إلا بتجاوز المكاره وبالصبر عليها ، وأن النار لا ينجى منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها.

والشهوات المذكورة في الآية هي التي يحدث فيها الإفراط أو المغالاة أو التي تكون سببا للتفريط في الواجبات الدينية ، فإن قصدت ضمن الحدود المعتدلة المعقولة لم تكن وبالأعلى صاحبها ، وقد تكون سببا للثواب وزيادة الأجرة إن قصد بها الخير والصون والعفاف وتسخيرها في سبيل الله ومرضاته. قال العلماء : ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال ، كل نوع من المال يتموّل به صنف من الناس : أما الذهب والفضة فيتموّل بها التجار ، وأما الخيل المسوّمة فيتمول بها الملوك ، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي ، وأما الحرث فيتمول بها أهل الريف والقرى.

ودل قوله تعالى : ﴿ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ أي ما يتمتع به فيها ثم يذهب ولا يبقى ، على تزهيد الناس في الدنيا وتحقيرها ، والترغيب في الآخرة ، روى ابن ماجه وغيره عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «إنما الدنيا متاع ، وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة». وثبت في الحديث الصحيح : «ازهد في الدنيا يحبّك الله» أي ازهد في متاعها من الجاه والمال الزائد

على الضروري ، وأخرج الترمذي عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال : «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يواري عورته ، وجلف (١) الخبز والماء».

وأما قوله تعالى : ﴿وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ فيدل على تقليل الدنيا وتحقيرها والترغيب في حسن المرجع إلى الله تعالى في الآخرة.

الجنات التي هي خير من الدنيا ومفاتنها

﴿قُلْ أَأُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَذابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ (١٧)﴾

الإعراب :

﴿جَنَّاتٌ﴾ : مبتدأ ، وخبره المقدم : للذين اتقوا ، كقولك : لله الحمد. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ : جملة فعلية في موضع رفع صفة : جنات. ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ منصوب على الحال من ﴿الَّذِينَ﴾ المجرور باللام.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ الذين : بدل مجرور من قوله : ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

﴿الصَّابِرِينَ﴾ إما منصوب على المدح ، وتقديره : أمدح الصابرين ، وإما مجرور بدل من

الذين ، أو وصف للذين أو وصف للعباد.

(١) الجلف : الخبز وحده لا أدم معه.

البلاغة :

﴿أَأُنَبِّئُكُمْ﴾ استفهام تقرير.

﴿بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ﴾ إبهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق لمعرفته.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ عبّر بكلمة الرب ، وأضافها لضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم.

المفردات اللغوية :

﴿أَأُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم ﴿مِنْ ذلِكُمْ﴾ المذكور من الشهوات ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ طاهرات من الفواحش والحيض والنفاس ﴿وَرِضْوانٌ﴾ رضا كثير ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ عالم بهم ، فيجازي كلا منهم بعمله.

﴿الصَّابِرِينَ﴾ على الطاعة وعن المعصية ، والصبر : حبس النفس عند كل مكروه يشق عليها احتماله ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في الإيمان. والصدق يكون في القول والعمل ، والصفة كالحب ﴿وَالْقانِتِينَ﴾ المداومين على الطاعة والعبادة.

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ﴾ أي المصلين وقت السحر ، القائلين : اللهم اغفر لنا. ﴿بِالْأَسْحارِ﴾ أواخر الليل ، جمع سحر : وهو الوقت الذي يختلط فيه ظلام آخر الليل بضياء النهار.

المناسبة :

هذه الآية تفضيل وتفصيل ، فهي تبين الأفضل من زخارف الدنيا وزينتها التي تشتمل على فضيلة إن استعملت في خير وحق ولم تؤد إلى إهمال الواجب نحو الله. وهي تفصل المراد من قوله تعالى : ﴿وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ الذي أبهم فيه الخير تفخيما لشأنه وتشويقا إليه ، ثم وضح بقوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾.

التفسير والبيان :

قل لهم يا محمد : أأخبركم بما هو خير من جميع الأصناف المذكورة للشهوات؟

وعبر بالاستفهام التقريري لاجتذاب الأنظار وتشويق النفوس إلى الجواب. ثم أجاب عن الاستفهام: للمتقين : جنات تجري من تحتها الأنهار ، ماكثين فيها أبدا ، وزوجات طاهرات من النقائص والفواحش والشوائب كالحيض والنفاس. وهذا نعيم جسدي مادي : وهو الجنة ، ولهم أيضا نعيم روحاني وهو رضوان الله الذي لا يشوبه شيء ، وهو أعظم وأكبر من كل نعمة ولذة مادية. وقد بدأ بذكر المقر وهو الجنات ، ثم ذكر ما يحصل به الأنس التام من الأزواج المطهرة ، ثم ذكر ما هو أعظم الأشياء وهو رضا الله عنهم ، فحصل بمجموع ذلك اللذة الجسمانية والفرح الروحاني حيث علم برضا الله عنه.

وقوله : للذين اتقوا عند ربهم جنات : جواب عن الاستفهام ، وكلام مستأنف فيه دلالة على بيان ما هو خير من أصناف الشهوات ، سواء استعملت في محالها ومواضعها التي خلقت من أجله : وهي تحقيق حوائج الناس ، أو أسيء استعمالها ، وقرن بها الشر والفساد ، كما تقول : هل أدلك على رجل عالم ، أو تاجر صدوق في السوق؟ هو فلان.

هذه الآية التي اشتملت على بيان نوعين من الجزاء : المادي وهو الجنة والأزواج ، والروحي وهو رضوان الله ، تشبه قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، خالِدِينَ فِيها ، وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ، ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة ٩ / ٧٢] وقوله : ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ ، وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد ٥٧ / ٢٠].

ثم ختمت الآية بقوله : ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ أي خبير بأحوالهم ، وبأسرارهم ، وحقيقة تقواهم ، فيجازي كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، وفي هذا إيماء ليحاسب كل إنسان نفسه على التقوى ، فليست التقوى بالمظاهر ، وإنما

المتقي : من يعلم منه ربه التقوى. وهذه الجملة وعد ووعيد. ولما ذكر المتقين ذكر شيئا من صفاتهم.

فذكر الله تعالى أوصاف المتقين ، وهم الذين يقولون : ربنا إننا آمنا بما أنزلته على رسلك إيمانا ثابتا راسخا في القلب ، مهيمنا على كل أعمالنا ، فاستر ذنوبنا بعفوك ، وادفع عنا عذاب النار ، إنك أنت الغفور الرحيم.

وهم أيضا الصابرون على أداء الطاعات وترك المعاصي ، الراضون بقضاء الله وقدره ، ولا شك أن الصبر يقوي الإرادة ، ويعصم النفس عن الانزلاق في الأهواء والشهوات والمنكرات.

وهم الصادقون في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم ، يترجمون عنه بكل شيء حميد وخلق عال ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ ، وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ. لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٣٣ ـ ٣٤].

وهم القانتون المداومون على الخشوع والطاعة والضراعة إلى الله ، وذلك لب العبادة وروحها. والمنفقون أموالهم في سبيل الله نفقة واجبة أو مستحبة. والمستغفرون بالأسحار بالتهجد في آخر الليل ، والدعاء بالمغفرة والرضا. والاستغفار المطلوب : ما يقرن بالتوبة النصوح والعمل على وفق حدود الدين ، ولا يكفي الاستغفار باللسان مع الإقامة على المعصية ، فإن المستغفر من الذنب ، وهو مقيم على معصيته ، كالمستهزئ بربه.

وأفضل صيغة للاستغفار : ما رواه البخاري عن النبي ﷺ قال : سيد الاستغفار أن تقول : «اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

فقه الحياة أو الأحكام :

إن نظرة الإنسان في الغالب آنية وقتية ، لا ينظر إلى المستقبل البعيد ، ولا يقارن بين الباقي الدائم والمنقطع الموقت ، لذا كان القرآن أكبر مساعد للعقل على التزام جادة التفكير السوي والاستقامة. فإن الخالد المستمر أفضل من الذي يزول بسرعة ، وهكذا كانت هذه الآية مع الآية السابقة مقارنة مبينة ما هو الأصلح للإنسان ، تسلية عن الدنيا وتقوية لنفوس تاركيها.

وهذه الآية والتي قبلها نظير قوله عليه الصلاة والسلام : «تنكح المرأة لأربع : لما لها وحسبها وجمالها ودينها ، فاظفر بذات الدين ، تربت يداك» (١).

والذي هو خير من الدنيا وشهواتها وكل ما فيها هو جنان الخلد وما فيها من متع خالصة كالحور العين والولدان المخلدين ، وعبر عن الحور بالأزواج المطهرة المبرأة من عيوب نساء الدنيا خلقا وخلقا ، وهو أيضا الفوز برضوان الله ، وهو أعظم المتع كلها في الآخرة عند أهل التقوى ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى لهم : «تريدون شيئا أزيدكم؟» فيقولون : يا ربنا ، وأي شيء أفضل من هذا؟ فيقول : «رضاي ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا» (٢).

والجمع بين الجنات والرضوان الإلهي يشير إلى أن أهل الجنة درجات ، كما أن أهل النار في دركات ، فمن أهل الجنة : من يرغب في لذات الدنيا الحسية ، ومنهم من ارتقى إدراكه واشتد اهتمامه بقربه من ربه ، فيتمنى رضاه ويفضله على أي شيء سواه.

---

(١) أخرجه مسلم وغيره عن أبي هريرة ، ومعنى : تربت يداك : افتقرت ، ولا يراد بها الدعاء ، وإنما يراد الحث والتحريض.

(٢) أخرجه مسلم.

والقصد من قوله : ﴿آمَنَّا﴾ في دعاء المتقين : الإيمان الصحيح الذي تصدر عنه آثاره من ترك المعاصي وفعل الصالحات ، إذا الإيمان : اعتقاد وقول وعمل.

وصرحت الآية بصفات المتقين : وهي الإيمان ، والصبر ، والصدق ، والقنوت (الخشوع والطاعة) والإنفاق في سبيل الله ، والاستغفار بالأسحار : وهو الصلاة في آخر الليل (أي التهجد) وسؤال المغفرة ، فإن المستغفرين بالأسحار يصلون ويستغفرون. وخص السحر بالذكر ؛ لأنه مظانّ القبول ووقت إجابة الدعاء. سأل النبي ﷺ جبريل : «أي الليل أسمع؟» فقال : «لا أدري غير أن العرش يهتزّ عند السحر». والسحر : من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر ، وقيل : هو سدس الليل الأخير. والأصح من هذا : ما روى الأئمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «ينزل الله عَزَّوَجَلَّ إلى سماء الدنيا كل ليلة ، حين يمضي ثلث الليل الأول ، فيقول : أنا الملك ، أنا الملك ، من ذا الذي يدعوني ، فأستجيب له ، من ذا الذي يسألني فأعطيه ، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر» [(١)]. ووضحت وقت السحر رواية النسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد : «إن الله عَزَّوَجَلَّ يمهل ، حتى يمضي شطر الليل الأول ..» وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ، ثم يقول : يا نافع ، هل جاء السحر؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح [(٢)].

والاستغفار : طلب المغفرة باللسان مع حضور القلب ؛ لأن الله لا يستجيب دعاء غافل ، لاه ، معرض قلبه عن الله.

---

(١) هذا لفظ مسلم ، وتأول القرطبي أول الحديث : «ينزل الله ..» بأنه من باب حذف المضاف ، أي ينزل ملك ربنا ، فيقول. ويرى أهل السلف : أن هناك نزولا يليق بذات الله من غير تحديد بمكان وكيفية ، وهو أولى.

(٢) رواه ابن أبي حاتم.

الشهادة بوحدانية الله وقيامه بالعدل ونوع الدين المقبول عند الله

﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (٢٠)﴾

الإعراب :

﴿قائِماً بِالْقِسْطِ﴾ حال مؤكدة من ﴿هُوَ﴾.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ﴾ الدين اسم إن والإسلام خبره. ومن قرأ ﴿إِنَ﴾ بفتحها ، فهي بدل منصوب من قوله : ﴿أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدل الشيء من الشيء ، ويجوز أن يكون بدل الاشتمال ، على تقدير اشتمال الثاني على الأول ؛ لأن الإسلام يشتمل على شرائع كثيرة ، منها التوحيد ، ويجوز كونها بدلا مجرورا من ﴿بِالْقِسْطِ﴾ في قوله : ﴿قائِماً بِالْقِسْطِ﴾ بدل الشيء من الشيء.

﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ في نصبه وجهان : إما لأنه مفعول لأجله أو لأنه حال من الذين.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ﴾ من : شرطية مبتدأ ، وخبره : جملة ، فإن الله سريع الحساب ، والعائد من الجملة إلى المبتدأ مقدر ، وتقديره : فإن الله سريع الحساب لهم.

﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ إما مرفوع بالعطف على تاء ﴿أَسْلَمْتُ﴾ أو مبتدأ وخبره محذوف ، وتقديره : ومن اتبعن أسلم وجهه لله متبعا.

﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ لفظة استفهام ، والمراد به الأمر ، أي أسلموا ، مثل ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ أي انتهوا.

البلاغة :

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ﴾ الجملة معرفة الطرفين ، فتفيد الحصر ، أي لا دين إلا الإسلام.

﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ التعبير بذلك عن أهل الكتاب لزيادة التشنيع والتقبيح عليهم.

﴿بِآياتِ اللهِ ، فَإِنَّ اللهَ﴾ إظهار لفظ الجلالة لتربية المهابة وإلقاء الروعة في النفوس.

﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾ أطلق الوجه ، وأراد الكل ، فهو مجاز مرسل ، من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

المفردات اللغوية :

﴿شَهِدَ اللهُ﴾ الشهادة : الإخبار المقرون بالعلم والإظهار والبيان إما بالمشاهدة الحسية ، وإما بالمشاهدة المعنوية وهي الحجة والبرهان. والمراد : بيّن وأعلم الله تعالى لخلقه بالدلائل والآيات والبراهين [1]﴿أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود في الوجود بحق إلا هو ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ هم أهل البرهان القادرون على الإقناع ، وهم الأنبياء والمؤمنون ، بالاعتقاد واللفظ ﴿قائِماً﴾ بتدبير مصنوعاته ، أي تفرد ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل في الدين والشريعة وفي الكون والطبيعة ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرره تأكيدا ﴿الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ أي الملة والشرع ، والمراد : الدين المرضي هو «الإسلام» أي الشرع المبعوث به الرسل المبني على التوحيد.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ اليهود والنصارى ، في الدين ، بأن وحّد بعض وكفر بعض ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بالتوحيد ﴿بَغْياً﴾ حسدا أو ظلما من الكافرين ﴿سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ المجازاة له.

﴿حَاجُّوكَ﴾ خاصمك الكفار يا محمد في الدين ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ انقدت له ، وخص الوجه بالذكر ، لشرفه ، فغيره أولى ﴿أُوتُوا الْكِتابَ﴾ اليهود والنصارى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ مشركي

---

(١) قال الواحدي : شهادة الله : بيانه وإظهاره ، والشاهد : هو العالم الذي بين ما علمه ، والله تعال بيّن دلالات التوحيد بجميع ما خلق.

العرب ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ أي أسلموا ﴿الْبَلاغُ﴾ التبليغ للرسالة ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ خبير بأعمالهم ، فيجازيهم عليها ، وهذا من قبيل الأمر بالقتال.

سبب النزول :

لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة ، قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام ، فلما أبصرا المدينة ، قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان ، فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والنعت ، فقالا له : أنت محمد؟ قال : نعم ، قالا : وأنت أحمد؟ قال : نعم ، قالا : إنا نسألك عن شهادة ، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك ، فقال لهما رسول الله ﷺ : سلاني ، فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله؟ فأنزل الله تعالى على نبيه : ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ فأسلم الرجلان ، وصدّقا برسول الله ﷺ (١).

التفسير والبيان :

بيّن الله تعالى لجميع الخلائق وحدانيته أو أنه المتفرد بالألوهية بالدلائل التكوينية والتصرفية في الآفاق والأنفس. وأخبر الملائكة الرسل بهذا ، وشهدوا شهادة مؤيدة بعلم بدهي ، وكذلك أخبر أولو العلم بذلك ، وبينوه وشهدوا به شهادة مقرونة بالدليل والحجة ، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام. قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به ، وأستودع الله هذه الشهادة ، وهي لي عند الله وديعة.

وأنه القائم بالعدل في جميع الأحوال من العقائد والعبادات والآداب والأعمال وفي الكون والخليقة ، ومن صفة العدل أنه يأمر حقا بالعدل في الأحكام ، كما تقرر في نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ [النحل ١٦ / ٩٠] وقوله :

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري : ص ٥٤

﴿وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء ٤ / ٥٨] ، فالله عادل في الشريعة وفي الكون ، حيث إنه أتقن نظام الكون وعدل بين القوى الروحية والمادية ، وأقام التوازن الدقيق في الأحكام بين الإنسان والخالق ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الإنسان وأخيه ، وبين فئات الناس في مجتمع ما ، بين الغني والفقير ونحو ذلك.

ثم أكد سبحانه انفراده بالألوهية بقوله : ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والعزيز : هو القوي الذي لا يغلب ، الكامل القدرة ، السامي العظمة والكبرياء. والحكيم : الذي يضع كل شيء في موضعه الصحيح ، سواء في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

ثم ذكر نوع الدين الذي ارتضاه لعباده من بدء الخليقة إلى يوم القيامة : وهو دين الإسلام لا غيره ، فهذا إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد ، سوى الإسلام : وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين ، حتى ختموا بمحمد ﷺ ، أي اتباع الملل والشرائع التي جاء بها الأنبياء والمرسلون ، فهم إن اختلفوا في الفروع ، لم يختلفوا في الأصول وجوهر الدين : وهو التوحيد والسلام ، والعدل في كل شيء. فمن لقي الله بعد بعثه محمد ﷺ بدين على غير شريعته ، فليس بمتقبل ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ٨٥].

ومعنى الإسلام : السلام والصلح ، والخضوع والانقياد لله ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً﴾ [النساء ٤ / ١٢٥].

وتشريع الدين له هدفان : تصحيح الاعتقاد وحصر معنى الألوهية والربوبية بالله تعالى ، وإصلاح النفوس بالنية الخالصة لله وللناس وبالعمل الصالح.

ثم أخبر الله تعالى بأن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم ، وبأن محمدا هو خاتم الأنبياء وهو المبشر به عندهم : ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ﴾ [البقرة ٢ / ١٤٦].

فصاروا شيعا ومذاهب يقتتلون في الدين ، وتفرقت كلمتهم في شأن محمد ﷺ بعد ما جاءهم العلم اليقيني بنبوته ، وبأن الدين واحد لا مجال للاختلاف فيه ، إلا بسبب البغي والحسد ، فكان ذلك سببا للفرقة ، وكان اختلافهم في شأن محمد حسدا من عند أنفسهم ، وبغيا بينهم ، وحرصا على الدنيا وما فيها.

والخلاصة : أن اختلافهم في أصل الدين الحق وفي نبوة محمد ﷺ كان بسبب بغي بعضهم على بعض ، وتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم ، فخالف بعضهم البعض الآخر في جميع أقواله وأفعاله ، وإن كانت حقا.

ثم هدد تعالى بأن من أنكر آيات الله التكوينية في الأنفس والآفاق وجحد ما أنزل الله في كتابه مما يوجب الاعتصام بالدين ووحدته ، فإن الله سيجازيه على ذلك ، ويحاسبه على تكذيبه ، ويعاقبه على مخالفته كتابه.

ثم حسم الله تعالى مجادلة أهل الكتاب وغيرهم في التوحيد ، فقال : فإن جادلك أهل الكتاب أو غيرهم في التوحيد ، فقل : أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ، ولا ندّ له ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له ، وهذا مبدئي ومبدأ من اتبعني على ديني من المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ : هذِهِ سَبِيلِي ، أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف ١٢ / ١٠٨] فلا فائدة في الجدل مع أمثال هؤلاء ، بعد أن قامت الأدلة على وجود الله ووحدانيته ، وبطلت شبهات الضالين.

ثم قال تعالى آمرا عبده ورسوله محمدا ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه والدخول في شرعه وما بعثه الله به ، أهل الكتاب ومشركي العرب ، فيقول لهم :

أسلموا ، فإن أسلموا فقد اهتدوا إلى الصراط المستقيم ، وتركوا الضلال ، وإن أعرضوا عن الاعتراف بما سألتهم عنه ، فلن يضيرك شيء ، إذ ما عليك إلا البلاغ فقط ، والله خبير بعابده عليم بحالهم وبمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة ، فيحاسبهم ويجازيهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

موضوع الآية (١٨) : إثبات وحدانية الله بالأدلة التكوينية التي أباها الله في الآفاق والأنفس وإنزال آيات التشريع ، وأخبر الملائكة والعلماء بذلك وبينوه ، قال القرطبي : دلت الآية على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم ، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته ، كما قرن اسم العلماء. ويؤكده أنه تعالى أمر نبيه ﷺ أن يستزيد من العلم ، بقوله : ﴿وَقُلْ : رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾. وقال ﷺ فيما جاء في السنن : «العلماء ورثة الأنبياء» وقال : «العلماء : أمناء الله على خلقه» [١]. وهذا شرف للعلماء عظيم ، ومحلّ لهم في الدّين خطير [٢]. روى أنس عن النبي ﷺ أنه قال : «من قرأ : ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ، عند منامه ، خلق الله له سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة».

وأعلنت الآية (١٩) أن الدين المرضي عند الله هو الإسلام فقط ، والإسلام هو الإيمان بالله وإطاعة أوامره ، وهو شيء واحد متفق عليه بين جميع الأنبياء. وأما الخلاف في الدين أي الملة فحاصل من قبل الأتباع والأنصار ، حسدا وظلما. ويكون القصد من الآية نبذ الفرقة والخلاف في الدين ، والابتعاد عن التفرق فيه إلى شيع ومذاهب ؛ لأن اختلاف أهل الكتاب في نبوة محمد ﷺ كان على علم منهم بالحقائق ، وأنه كان بغيا وطلبا للدنيا ، فقد أبانت كتبهم صفته ونبوته ،

---

(١) رواه القضاعي وابن عساكر عن أنس ، وهو حسن.

(٢) تفسير القرطبي : ٤ / ٤١

وأوضحت أن الله إله واحد ، وأن جميع الخلائق عبيده ، لذا وجب على أهل الإيمان الصادق نبذ الاختلاف والشقاق ، والعودة إلى الوحدة والاتفاق بين أتباع الدين ، بالاعتقاد بوحدانية الله ، والتصديق برسالة محمد ﷺ .

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع البشر ، كما دل عليه القرآن والسنة في غير ما آية وحديث ، منها قوله تعالى : ﴿قُلْ : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٨] ومنها أيضا : ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ ، لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ١]. وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة : أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بني آدم ، من عربهم وعجمهم ، كتابيهم ومشركهم ، امتثالا لأمر الله بذلك. وروى مسلم وعبد الرزاق عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، يهودي ولا نصراني ، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار». وقال ﷺ في الحديث الثابت : «بعثت إلى الأحمر والأسود» وقال فيما رواه الشيخان والنسائي عن جابر : «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة». وروى البخاري عن أنس : أن غلاما يهوديا كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ، ويناوله نعليه ، فمرض ، فأتاه النبي ﷺ ، فدخل عليه ، وأبوه قاعد عند رأسه ، فقال له النبي ﷺ : «يا فلان ، قل : لا إله إلا الله» فنظر إلى أبيه ، فسكت أبوه ، فأعاد عليه النبي ﷺ ، فنظر إلى أبيه ، فقال أبوه : أطع أبا القاسم ، فقال الغلام : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول : «الحمد لله الذي أخرجه بي من النار».

جزاء قتل الأنبياء

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٢)﴾

الإعراب :

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ خبر : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾. ودخلت الفاء في الخبر ، لشبه اسمها الموصول بالشرط ، أي ضمّن معنى الشرط ، أو للإبهام الذي في ﴿الَّذِينَ﴾ مع كون صلته جملة فعلية. ولا يجوز أن تدخل الفاء في خبر الذي إذا وقع مبتدأ حتى يكون صلته جملة فعلية ، ولم يغيّر العامل معناها. فلو كانت صلته جملة اسمية نحو : الذي أبوه منطلق فقائم ، أو غيّر العامل معناها نحو : ليت الذي انطلق أبوه فقائم ، لم يجز دخول الفاء في خبره.

البلاغة :

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ استعمل البشارة في الشّر ، والأصل أن تكون في الخير ، للتهكم ويسمى «الأسلوب التهكمي» مثل قوله : ﴿بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ حيث نزل الإنذار منزلة البشارة.

المفردات اللغوية :

﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ المراد بهم اليهود خاصة. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي بغير شبهة لديهم. ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل. ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ وهم اليهود ، روي أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبيّا ، فنهاهم مائة وسبعون من عبّادهم ، فقتلوهم من يومهم كما ذكر السيوطي. ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ أعلمهم ، والبشارة : الخبر السّارّ ، واستعمالها في الشّر من باب التّهكم بهم والسّخرية. ﴿بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم.

﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت. ﴿أَعْمالُهُمْ﴾ ما عملوا من خير ، كصدقة وصلة رحم.

﴿وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ مانعين من العذاب.

سبب النزول :

قال أبو العباس المبرد : كان ناس من بني إسرائيل ، جاءهم النّبيون يدعونهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، فقتلوهم ، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين ، فأمروهم بالإسلام ، فقتلوهم ؛ ففيهم نزلت هذه الآية.

وروى أبو عبيدة بن الجراح أن النّبي ﷺ قال : «قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيّا من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عبّاد بني إسرائيل ، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، فقتلوا جميعا في آخر النهار من ذلك اليوم ، وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية. ذكره المهدي وغيره.

فهذه الآية جاءت وعيدا لمن كان في زمانه ﷺ.

التفسير والبيان :

كانت الآيات السابقة في تبيان اختلاف أهل الكتاب الذي نشأ من البغي بعد أن جاءهم العلم اليقيني ، وفي محاجّة أهل الكتاب والمشركين للنّبي ﷺ ، ثم ذكر هنا موقف اليهود من الأنبياء ، ومنهم النّبي محمد ﷺ الذي همّوا أيضا بقتله زمن نزول الآية ، ويتمثّل موقفهم فيما يأتي :

إن الذين يجحدون من اليهود بآيات الله بعد معرفتها في كتبهم ، ويقتلون الأنبياء ، كما فعلوا بزكريا ويحيى عليهما السلام بغير شبهة لديهم ، ولا حق ولا ذنب إلا أنهم قالوا : ربّنا الله ، وجهروا بالحق ، وبلغوا الرّسالة ، ويقتلون الحكماء الذين يأمرون الناس بالعدل والقسط ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ومرتبة هؤلاء في الإرشاد تلي مرتبة الأنبياء ، أنبئ هؤلاء بالعذاب الأليم في الدّنيا والآخرة. هؤلاء الذين ارتكبوا هذه الجرائم الشنيعة ، البعيدون في الضلال ، بطلت أعمالهم في الدّنيا والآخرة ، وما لهم في الآخرة من ناصرين ينصرونهم من

بأس الله وعذابه ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٨٨].

والإخبار عن اليهود السابقين ، ونسبة الكفر إلى اليهود المعاصرين للنّبي ﷺ ؛ لأنهم راضون عنه ، بل إنهم همّوا بمثل فعل آبائهم بقتل النّبي ﷺ إمعانا في الفساد والضلال.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى وقائع خطيرة وأحكام مهمة متعلقة باليهود وغيرهم :

١ ـ اليهود كانوا قتلة الأنبياء والحكماء أو العلماء ، وكفروا بآيات الله وشرائعه التي بلّغتها إياهم الرّسل ، استكبارا عليهم وعنادا لهم ، وتعاظما على الحق ، واستنكافا عن اتّباعه ، فذمّهم الله على مآثمهم.

٢ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجبا في الأمم المتقدمة ، وهو فائدة الرسالة وخلافة النّبوة. قال الحسن : قال النّبي ﷺ : «من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر ، فهو خليفة الله في أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه».

وجعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فارقا بين المؤمنين والمنافقين ، فقال : ﴿الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة ٩ / ٦٧]. ثم قال : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة ٩ / ٧١]. فدلّ على أن أخصّ أوصاف المؤمن : الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، ورأسها الدعوة إلى الإسلام والقتال عليه.

وهناك أحكام أخرى متعلقة بمبدإ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها :

أ ـ ليس من شرط النّاهي أن يكون عدلا ، عند أهل السّنة ؛ لأن الأمر

بالمعروف والنّهي عن المنكر عام في جميع الناس.

ب ـ أجمع المسلمون ـ فيما ذكر ابن عبد البر ـ أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه ، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذي لا يتعدّى إلى الأذى ، فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره ، فإن لم يقدر فبلسانه ، فإن لم يقدر فبقلبه ، ليس عليه أكثر من ذلك. وإذا أنكر بقلبه ، فقد أدّى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك. والأحاديث في هذا المبدأ ومراحل تطبيقه كثيرة جدا ، ولكنها مقيدة بالاستطاعة. روى الأئمة عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان». قال العلماء : الأمر بالمعروف باليد على الأمراء ، وباللسان على العلماء ، وبالقلب على الضعفاء ، يعني عوامّ الناس.

ويبدأ بإزالة المنكر بالأخف فالأخف ، باللسان أولا ، ثم بالعقوبة ، أو بالقتل. وعليه بنى العلماء أنه إذا دفع الصائل على النفس أو على المال عن نفسه أو عن ماله أو نفس غيره ، فله ذلك ولا شيء عليه.

ج ـ متى يترك؟ أخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول الله ، متى نترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؟ قال : «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم» ، قلنا : يا رسول الله ، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال : «الملك في صغاركم ، والفاحشة في كباركم ، والعلم في رذالتكم» ، قال زيد : تفسير معنى قول النّبي ﷺ : «والعلم في رذالتكم» إذا كان العلم في الفسّاق.

٣ ـ قد جعل الله وعيد الكفار ومنهم اليهود ثلاثة أنواع :

أ ـ إيقاع العذاب الأليم في الدّنيا والآخرة ، الألم والقلق والاضطراب في الدّنيا ، ونار جهنم في الآخرة.

ب ـ إحباط الأعمال في الدّنيا والآخرة ، ففي الدّنيا الذّم والخزي واللعن ،

وفي الآخرة العذاب كما قال تعالى : ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٢٣].

ج ـ دوام هذا العذاب لقوله تعالى : ﴿وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾.

والخلاصة : ذكرت هذه الآية ثلاثة أوصاف لليهود :

أولها ـ الكفر بآيات الله ، وهو أقوى الأسباب في عدم المبالاة بما يقع من الأفعال القبيحة.

وثانيها ـ قتل من أظهر آيات الله واستدلّ بها.

وثالثها ـ قتل أتباعهم ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر [١].

إعراض أهل الكتاب عن حكم الله

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾

الإعراب :

﴿فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ كيف : استفهام عن الحال ، وهو هاهنا بمعنى التهديد والوعيد ، وهي منصوبة بفعل مقدّر ، وتقديره : في أي حال يكونون إذا جمعناهم.

وإذا : منصوب

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٤١٣

على الظرف. و ﴿لِيَوْمٍ﴾ اللام تتعلق بجمعناهم. و ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ في موضع جرّ صفة ليوم.

المفردات اللغوية :

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام للتعجب من حالهم. ﴿نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ﴾ حظّاً من التّوراة ، والمراد : أحبار اليهود أو اليهود أنفسهم ، ومن : إما للتبعيض ، وإما للبيان. ﴿يُدْعَوْنَ﴾ يطلبون ، وهو حال والداعي هو النّبي ﷺ ﴿كِتابِ اللهِ﴾ التوراة أو القرآن. ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليفصل بين اليهود. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ يعرض بالبدن أو بالقلب. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن قبول حكمه. ﴿ذلِكَ﴾ التولي والإعراض. ﴿يَفْتَرُونَ﴾ يختلقون ويكذبون. ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكّ فيه ، وهو يوم القيامة. ﴿ما كَسَبَتْ﴾ عملت من خير أو شرّ. ﴿وَهُمْ﴾ أي الناس. ﴿لا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص حسنة أو زيادة سيئة.

سبب النزول : نزول الآية (٢٣ ـ ٢٤):

أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر وابن إسحاق عن ابن عباس قال : دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس [١] على جماعة من اليهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ قال : «على ملّة إبراهيم ودينه» ، قالا : فإن إبراهيم كان يهوديا ، فقال لهما رسول الله ﷺ : «فهلمّا إلى التّوراة ، فهي بيننا وبينكم» فأبيا عليه ، فأنزل الله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ﴾ إلى قوله : ﴿يَفْتَرُونَ﴾.

المناسبة :

الآيات استمرار في تعداد قبائح اليهود ، ولكنها خطاب إلى الرسول ﷺ يستدعي التّعجب من شأنهم ، وهو أنهم يرفضون التّحاكم إلى كتابهم ، بدافع الغرور والكبرياء ، واغترارهم باتّصال نسبهم بالأنبياء ، وزعمهم النّجاة من عذاب الله يوم القيامة ، فردّ الله عليهم بأن الجزاء على الأعمال ، لا على الأنساب.

---

(١) مدرسة اليهود لدراسة التّوراة.

التفسير والبيان :

انظر يا محمد وتعجّب من صنع هؤلاء اليهود الذين يحفظون بعض كتابهم الذي أوحاه الله لنبيّهم موسى عليه السلام ، وفقدوا سائره أو حرّفوه وغيّروه ؛ لأن التّوراة كتبت بعد موسى بخمسمائة سنة ، وبقي الجزء الذي فيه بشارة محمد ﷺ ، وموضع العجب : أنهم يرفضون قبول حكم كتابهم ، حينما زنى بعض أشرافهم ، وحكّموا النّبي ﷺ ، فحكم بمثل حكم التّوراة ، فتولّوا وأعرضوا عن قبول حكمه. وعمم ابن كثير الآية وجعلها إنكارا على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم ، وهما التّوراة والإنجيل [1].

فإذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم أي بعد تردّد في قبول الحكم ، ثم أدبروا وهم معرضون. وفي قوله : ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى أن منهم طائفة متمسكة بالحق كعبد الله بن سلام وغيره ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٩]. وفي قوله : ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ إشارة إلى دوام إعراضهم.

ثم ذكر الله تعالى سبب هذا التّولي والإعراض أو العناد والجحود : وهو اعتقادهم النّجاة ، فاليهودي يعتقد أنه مهما فعل لن يدخل النار إلا أياما معدودة ، ثم يدخل الجنة ، فلم يبالوا بارتكاب المعاصي والذنوب ، اعتمادا على اتّصال نسبهم بالأنبياء. وهذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿وَقالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً ، قُلْ : أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً ، فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ؟﴾ [البقرة ٢ / ٨٠].

ولم يثبت في عدد الأيام التي يدخلون فيها النار شيء ، وقيل : هي أربعون يوما ، وهي مدّة عبادتهم للعجل.

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٥٥

وغرهم افتراؤهم في الدين أي خدعهم ما كانوا يختلقونه في الدّين ، كقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وسيشفع لنا الأنبياء ، ونحن أولاد الأنبياء ، وشعب الله المختار ، وإن الله وعد يعقوب ألا يعذّب أبناءه إلا تحلّة القسم أي مدّة قصيرة.

فكيف يصنعون إذا جمعناهم للجزاء في يوم لا شك فيه ، يوم تتقطع فيه الأنساب ، ولا ينفع فيه مال ولا بنون ، يوم توفّى كل نفس ما عملت من خير أو شرّ ، دون نقص ، وهم لا يظلمون فلا يزاد في العذاب شيء ، كما قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها ، وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٤٧].

فقه الحياة أو الأحكام :

توجب الآيات الالتزام في الأحكام الشرعية وأحكام القضاء بما أمر الله به في كتابه ، وتندّد بفعل اليهود وغيرهم الذين إذا دعوا إلى التّحاكم بكتاب الله ، وما فيه من اتّباع محمدصلى‌الله‌عليه‌وسلم ، تولوا وهم معرضون عن حكم الله. وهذا في غاية ما يكون من ذمّهم ووصفهم بالمخالفة والعناد.

وتندّد الآيات أيضا بمزاعم اليهود أنهم ناجون يوم القيامة من النّار ، وأنهم يعتمدون على الأنساب ، وكونهم من سلالة الأنبياء ، وأنهم شعب الله المختار. والحقيقة أن الجزاء يكون على قدر العمل من خير أو شرّ.

وفي الآية دليل على أن من دعي إلى مجلس الحاكم ليحكم بينه وبين خصمه بكتاب الله ، وجب عليه أن يجيب ، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق ، أو يعلم عداوه من المدعي والمدعى عليه ، فإن لم يجب زجر وعزر.

واستنبط المالكية من الآية أنها تدلّ على أن شرع من قبلنا شرع لنا ، إلا ما علمنا نسخه ، وأنه يجب علينا الحكم بشرائع الأنبياء قبلنا إذا ثبتت من طريق المسلمين بنقل صحيح. وإنما لا نقرأ التوراة ولا نعمل بما فيها ؛ لأن من هي في يده

غير أمين عليها ، وقد غيّرها وبدّلها ، بل ولم يثبت نقلها إلى موسى عليه السلام ، وإنما كتبت بعده بخمسة قرون. ولو علمنا أن شيئا منها لم يتغيّر ولم يتبدّل ، جاز لنا قراءته.

والبرهان القاطع الساطع المصادم أن هؤلاء الكتابيين المعتمدين على مجرد الأوهام والمزاعم والأباطيل ، كيف يصنعون إذا حشروا يوم القيامة ، واضمحلت عنهم تلك الزخارف التي ادّعوها في الدّنيا ، وجوزوا بما اكتسبوه من كفرهم واجترائهم وقبيح أعمالهم. وهذا تهديد ووعيد.

دلائل قدرة الله وعظمته وتصرفه في خلقه والتفويض إليه

﴿قُلِ اللهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٢٧)﴾

الإعراب :

الجمل كلها في الآية الأولى جمل فعلية في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿مالِكَ﴾ ، ويجوز كونها في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره : أنت تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء. وكذلك الجمل في الآية الثانية مثل الآية الأولى في النصب والرفع.

البلاغة :

يوجد طباق بين ﴿تُؤْتِي﴾ و ﴿تَنْزِعُ﴾ ، و ﴿تُعِزُّ﴾ و ﴿تُذِلُّ﴾ ، و ﴿اللَّيْلَ﴾ و ﴿النَّهارِ﴾ ، و ﴿الْحَيَ﴾ و ﴿الْمَيِّتِ﴾. ويوجد جناس ناقص بين ﴿مالِكَ﴾ و ﴿الْمُلْكِ﴾.

وهناك ما يسمى بردّ العجز على الصدر في ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ﴾ و ﴿وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾.

والتّكرار في جمل ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ﴾ للتفخيم والتعظيم.

والإيجاز بالحذف في قوله : ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ﴾ أي من تشاء أن تؤتيه. وكذا في قوله : ﴿تَنْزِعُ﴾ و ﴿تُعِزُّ﴾ و ﴿تُذِلُ﴾.

وفي قوله : ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾ استعارة لإدخال هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فما ينقصه الليل يزيده في النهار والعكس. ولفظ الإيلاج أبلغ في التعبير عن الإدخال.

﴿الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ...﴾ الحيّ والميّت مجاز عن المؤمن والكافر ، شبه المؤمن بالحيّ والكافر بالميّت.

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ أي والشر خلقا وتقديرا : ﴿قُلْ : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ ، ولكنه ذكر الخير دون الشّر تأدّبا مع الله ، فلا ينسب له الشّر أدبا.

المفردات اللغوية :

﴿اللهُمَ﴾ أي يا الله. ﴿الْمُلْكِ﴾ السلطة والتصرف في الأمور. ﴿تُؤْتِي﴾ تعطي. ﴿تَنْزِعُ﴾ تقلع وتخلع. ﴿مَنْ تَشاءُ﴾ أي من خلقك. ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ﴾ بإيتائه. ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ﴾ بنزعه منه. ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ بقدرتك الخير ، أي والشرّ خلقا وتقديرا ، لا كسبا وعملا.

﴿تُولِجُ﴾ تدخل ، ويراد به زيادة زمان النهار في الليل وبالعكس بحسب الفصول والبلاد ، فيزيد كلّ منهما بما نقص في الآخر.

قال السيوطي : ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كإخراج الإنسان من النطفة ، والطائر من البيضة. ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ كالنطفة والبيضة. ﴿بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ أي رزقا واسعا.

سبب النزول :

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ سأل ربّه أن يجعل ملك الرّوم وفارس في أمته ، فأنزل الله : ﴿قُلِ اللهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ﴾ الآية.

وقال ابن عباس وأنس بن مالك : لما افتتح رسول الله ﷺ مكّة ، ووعد أمته ملك فارس والرّوم ، قالت المنافقون واليهود : هيهات هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والرّوم؟ هم أعزّ وأمنع من ذلك ، ألم يكف محمدا مكة والمدينة ، حتى طمع في ملك فارس والرّوم؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

المناسبة :

هذه الآية بقصد تسلية النّبي ﷺ أمام موقف المشركين وأهل الكتاب بإنكار دعوته فيما ذكرته الآيات السابقة ، والتذكير له بقدرته تعالى على نصرة دينه وإعلاء كلمته ، فكان المشركون ينكرون النّبوة لرجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وأهل الكتاب ينكرون النّبوة في غير بني إسرائيل.

التفسير والبيان :

إذا أعرض المشركون وأهل الكتاب كوفد نجران عن قبول دعوتك يا محمد ، فالجأ إلى الله مالك الملك وصاحب الأمر ، وتوجه إليه وقل : يا الله ، يا مالك الملك ، لك السلطان المطلق ، وأنت المتصرف في خلقك ، الفعّال لما تريد ، ومدبّر الأمور على وفق حكمتك ، فأنت المعطي وأنت المانع ، تؤتي الملك والنّبوة من تشاء من عبادك ، وتنزع الملك ممن تشاء من خلقك ، كما نزعت النّبوة من بني إسرائيل ببعثة رسولك العربي القرشي الأمي المكي خاتم الأنبياء على الإطلاق ، ورسول الله إلى جميع الثقلين : الإنس والجن.

والظاهر المتبادر أن المراد بالملك : السلطة والتصرف في الأمور ، وأنه تعالى صاحب السلطان المطلق في تدبير الأمور وتحقيق التوازن في الكائنات.

والله يعطي من يشاء إما النّبوة فقط كهود ولوط ، وإما الملك فقط كالملوك الغابرين والمعاصرين ، وإما الملك والنّبوة كآل إبراهيم ومنهم داود وسليمان :

﴿فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ [النساء ٤ / ٥٤] ، وهكذا يعطي النّبوة لمن يريد ، كما قال تعالى : ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٤] ، وقال : ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾ [الإسراء ١٧ / ٢١].

وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء ، وللعزّة والذلّة مظاهر وآثار ، ولا يتوقف ذلك على الملك أو المال ، فكم من ملك ذليل ، وكم من غني مهين ، وكم من فقير عزيز. ولا عبرة بكثرة عدد الأمة وقلّتها ، فقد كان المشركون في مكة واليهود ومنافقو العرب في المدينة يغترون بكثرتهم على النّبيﷺ والفئة القليلة المؤمنة ، ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئا ، كما قال تعالى : ﴿يَقُولُونَ : لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون ٦٣ / ٨].

بقدرتك وحدك الخير كلّه ، تتصرّف فيه بحسب مشيئتك ، فكل ما كان أو يكون فيه الخير والنعمة إما لصاحبه أو للجماعة ، إنك صاحب القدرة المطلقة على كل شيء ، خير أو شرّ ، فأنت المفوض إليك كل شيء ، ونحن المتوكّلون عليك.

وذكر الخير ، مع أنّ كلّا من الخير والشّر بقدرته ، لمناسبته للمقام ، بتحويل النّبوة والملك من قوم إلى قوم ومن شخص إلى شخص.

والخير : شامل للنصر والغنيمة والعزّة والجاه والمال ونحو ذلك مما يرغب به الإنسان ويحرص عليه : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

ومن مظاهر القدرة الإلهية وإبراز تمام الملك والعظمة إدخال الليل في النهار ، زيادة ونقصا ، فتأخذ من طول هذا ، فتزيده في قصر هذا ، فيعتدلان ، ثم تأخذ من هذا في هذا ، فيتفاوتان ، ثم يعتدلان ، وقد يطول التفاوت جدا في بعض البلاد والأوقات ، وهكذا يتفاوت طول الليل والنهار وقصره بحسب فصول

السنة ربيعا وصيفا وخريفا وشتاء ، وبحسب مواقع البلدان الجغرافية ، فقد يكون الليل ستة أشهر والنهار كذلك ، وقد يطول النهار إلى ثماني عشرة أو عشرين ساعة ، وقد تطلع الشمس في بعض البلاد والأزمان بعد غروبها بساعة أو أكثر. بيده تعالى أمر الزمان ، كما قال : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٦٧]. وهو الذي خلق الأرض مكورة يلف عليها الليل والنهار : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر ٣٩ / ٥] ، والتّكوير : اللف على الجسم المستدير ، وجعل الشمس دليلا على النّهار.

وتخرج الحيّ من الميّت إما إخراجا ماديا كالنخلة من النواة ، والزرع من الحب ، والإنسان من النّطفة ، والطائر من البيضة ، أو إخراجا معنويا كالعالم من الجاهل والمؤمن من الكافر.

وتخرج الميّت من الحيّ ماديا ومعنويا أيضا كالنّواة من النّخلة ، والبيضة من الطائر ، والجاهل من العالم ، والكافر من المؤمن.

وفسّر بعض الأطباء إخراج الحيّ من الميّت : بأن الحيّ ينمو بأكل أشياء ميتة ، فالصغير يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره ، والغذاء شيء ميّت. وأما إخراج الميت من الحيّ فهو الإفرازات مثل اللبن ، فهو سائل ليس فيه حياة ، ومثله اللحوم ومنتجات الزروع والنباتات ، بخلاف النّطفة فإن فيها حيوانات حيّة ، وهكذا ينمو الحيّ من الميّت ، ويخرج الميّت من الحيّ.

وترزق من تشاء بغير حساب ، أي تعطي من شئت من المال والرّزق بغير عدّ ولا حصر ولا إحصاء ، ولا إعياء ولا تعب [1] ، فلك خزائن السّموات والأرض ،

---

(١) كلمة الحساب في القرآن : إما بمعنى العدد ، مثل : ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ ، وإما بمعنى التعب في هذه الآية ، وإما بمعنى المطالبة ، مثل : ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾.

وتقتّر على آخرين على وفق حكمتك وإرادتك ومشيئتك. فقوله : ﴿بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ أي بغير تضييق ولا تقتير ، كما تقول : فلان يعطي بغير حساب ، كأنه لا يحسب ما يعطي.

وأنت القادر على انتزاع الملك من العجم إلى العرب ، والنّبوة من بني إسرائيل إلى العرب.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على أن الله تعالى صاحب السلطان المطلق ، والقدرة الشاملة ، والإرادة والمشيئة العليا ، بيده الخير والشّر خلقا وتقديرا ، لا كسبا ، فالخير منه مطلقا ، والشّر لا ينسب إليه أدبا ، وإنما ينسب لفاعله.

وإنّ النّبوة والملك والرّزق بيده تعالى ، يمنحها بحسب الإرادة ومقتضى الحكمة البالغة ، والحجة التامة.

وإنّ إدخال الليل بالنهار وإدخال النهار بالليل دليل على كروية الأرض ودورانها ؛ لأن تعاقب الليل والنهار ، وتفاوت مقدارهما بحسب الفصول والأزمنة والأمكنة يشير إلى الكروية والدوران.

ويخرج الله الحيّ من الميّت ، والميّت من الحيّ بكلّ من المعنى المادي والمعنوي المتقدم. وإنعامه عام يتولى من يشاء ، والرزق على الله مضمون ، يعطي منه ما يشاء ويمنع بمقتضى الحكمة والإرادة والمشيئة.

روى الطبراني عن ابن عباس عن النّبي ﷺ قال : «اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب : في هذه الآية من آل عمران : ﴿قُلِ اللهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾».

موالاة الكافرين والتحذير من الآخرة

﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (٣٠)﴾

الإعراب :

﴿لا يَتَّخِذِ﴾ لا ناهية ، فالفعل مجزوم ، أو نافية ، فالفعل مرفوع ، وتكون الجملة خبرية في معنى النهي.

﴿فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي ليس من دين الله أو ثواب الله في شيء ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. ﴿مِنَ اللهِ﴾ في موضع نصب على الحال ؛ لأن التقدير : فليس في شيء كائن من دين الله. فلما قدم صفة النكرة عليها انتصب على الحال. و ﴿فِي شَيْءٍ﴾ : في موضع نصب ، خبر ليس. و ﴿تُقاةً﴾ منصوبة على المصدر. وأصلها وقية فأبدل الواو تاء ومن الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فصارت تقاة.

﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾ يوم : منصوب بفعل مقدر ، وتقديره : اذكر يوم تجد كل نفس.

﴿وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ ما : إما بمعنى الذي ، وهي معطوفة بالنصب على ﴿ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ﴾ وجملة : تودّ منصوبة على الحال ، أو هي مرفوعة مبتدأ وخبره : ﴿تَوَدُّ﴾. وإما أن تكون ﴿ما﴾ شرطية مبتدأ ، وعملت : فعل الشرط ، و ﴿تَوَدُّ﴾ : جواب الشرط خبر المبتدأ.

البلاغة :

يوجد طباق في ﴿تُخْفُوا﴾ و ﴿تُبْدُوهُ﴾ ، وفي ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ و ﴿مِنْ سُوءٍ﴾ ، وفي ﴿مُحْضَراً﴾ و ﴿بَعِيداً﴾.

المفردات اللغوية :

﴿أَوْلِياءَ﴾ مفرده ولي وهو النصير والمعين. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ﴾ أي يواليهم. ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللهِ﴾ أي ليس من دين الله في شيء. ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً﴾ مصدر تقية ، أي تخافوا مخافة ، فلكم موالاتهم باللسان دون القلب. وهذا في حال ضعف المسلم بأن يكون في بلد ليس قويا فيها. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ يخوّفكم الله أن يغضب عليكم إن واليتموهم. ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع ، فيجازيكم. ﴿مُحْضَراً﴾ حاضرا لديها. ﴿أَمَداً بَعِيداً﴾ الأمد : المدة التي لها حدّ محدود ، والمراد : غاية في نهاية البعد ، فلا يصل إليها. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ كرر للتأكيد.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٨):

أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال : كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف ، وابن أبي الحقيق ، وقيس بن زيد ـ وهؤلاء كانوا من اليهود ـ قد بطنوا (لازموا) بنفر من الأنصار ، ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر ، وعبد الله بن جبير ، وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود ، واحذروا مباطنتهم (ملازمتهم) ، لا يفتنوكم عن دينكم ، فأبوا ، فأنزل الله فيهم : ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ ..﴾ الآية.

أي أن هذه الآية نزلت في جماعة من المؤمنين كانوا يوالون رجالا من اليهود ، فحذرهم جماعة من المؤمنين من تلك الموالاة أو المخالطة والمصاحبة ، فأبوا النصيحة ، وظلّوا على ملازمة اليهود ومباطنتهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وروي أيضا عن ابن عباس : نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري البدري النقيب ، وكان له حلفاء من اليهود ، فلما خرج النّبي صلّى الله عليه وسلّم يوم الأحزاب ، قال عبادة : يا نبي الله ، إن معي خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معي ، فأستظهر بهم على العدو ، فأنزل الله تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ﴾ الآية.

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى أن الأمر بيد الله ، وأنه مالك الملك ، المعزّ والمذلّ ، المعطي والمانع ، وأنه على كلّ شيء قدير ، نبّه المؤمنين إلى أنه يجب الالتجاء إليه وحده والاستعانة بأوليائه دون أعدائه ، وأنه لا ينبغي لهم أن يوالوا أعداءه ، أو يستعينوا بهم لقرابة أو صداقة قديمة.

وقد جاء في هذا المعنى آيات كثيرة ، منها : ﴿لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً﴾ [آل عمران ٣ / ١١٨] ، ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة ٥٨ / ٢٢] ، ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة ٥ / ٥١] ، ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً﴾ [النساء ٤ / ١٤٤] ، ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ...﴾إلى قوله : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة ٦٠ / ١] ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال ٨ / ٧٣].

وفي مقابل ذلك قال تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة ٩ / ٧١].

التفسير والبيان :

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين ، ثم توعّد على ذلك بقوله : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾ فلا يحلّ للمؤمنين اتّخاذ الكافرين أولياء لقرابة أو صداقة أو جوار ونحو ذلك ، يطلعونهم على أسرارهم ، ويودونهم ، ويقدمون مصلحتهم على مصلحة المؤمنين ، وإن كان في ذلك مصلحة خاصة ،

فالمصلحة العامة أولى وأحقّ بالمراعاة. فإن كانت الموالاة والمحالفة لمصلحة المسلمين ، فلا مانع منها ، فقد حالف النّبي ﷺ خزاعة ، وهم على شركهم.

وإنما الواجب موالاة المؤمنين بعضهم بعضها ، والاعتماد عليهم في الشؤون العامة. قال ابن عباس : نهى الله أن يلاطفوا الكفار ، فيتّخذوهم أولياء.

ومعنى الموالاة الممنوعة : الاستنصار بهم والتعاون معهم والاستعانة بهم لقرابة أو محبة ، مع اعتقاد بطلان دينهم ؛ لأن الموالاة قد تجرّ إلى استحسان طريقتهم ، والموالاة بمعنى الرّضا بكفرهم كفر ، لأن الرّضا بالكفر كفر.

أما الموالاة بمعنى المعاشرة الجميلة في الدّنيا بحسب الظاهر ، مع عدم الرّضا عن حالهم ، فليس ممنوعا منه.

ومن يوالي الكافرين من غير المؤمنين أي يتجاوز المؤمنين إلى الكفار ، كأن يكون جاسوسا للكفار ، فليس من دين الله ولا من حزبه أو من ولاية الله في شيء ، أي يكون بينه وبين الله غاية البعد ، ويطرد من رحمته ، ويكون منهم ، ولا يكون مطيعا لدينه ، كما قال : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ ، وقوله : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ﴾ : إشارة إلى اتّخاذهم أولياء ، وهذا يدلّ على المبالغة في ترك الموالاة ؛ إذ نفى عن متوليهم أن يكون في شيء من الله.

ثم استثنى سبحانه حالة تجوز فيها موالاة الكفار ، وهي حالة الخوف من شيء ، يجب اتّقاؤه منهم ، كالقتل مثلا أي حال اتّقاء الضّرر ؛ فتجوز موالاتهم حينئذ ؛ لأن «درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح». وإذا جازت موالاتهم لدفع الضّرر ، فتجوز لنفع الإسلام والمسلمين. ويكون ذلك للضّرورة ، مثل النّطق بالكفر حال الإكراه : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ﴾ [النحل ١٦ / ١٠٦].

ويحذركم الله عقابه ، وفي ذكر ﴿نَفْسَهُ﴾ إشارة إلى أن الوعيد صادر منه

تعالى ، وأنه القادر على إنفاذه ، ولا يعجزه شيء عنه. وهذا تهديد شديد على المخالفة.

وإلى الله مرجع الخلق وجزاؤهم ، فيحاسب كل امرئ بما عمل ، ويجازيه بما فعل.

ثم بيّن تعالى سعة علمه بالمخلوقات ، فإن تخفوا ما صدوركم وتكتموه ، أو تبدوه وتظهروه ، فالله يعلمه ويجازي عليه ، وهو يعلم كل شيء في السّموات والأرض ، ومنه الميل إلى الكفار أو البعد عنهم.

والله قدير على عقوبتكم ، فلا تعصوا نواهيه ، إذ ما من معصية ظاهرة أو خفية إلا يعلمها.

واحذروا يوم الآخرة الذي تجد فيه كل نفس ما عملت في الدّنيا من خير حاضرا لديها ، فتسرّ وتنعم بما عملت ، وتجد ما عملت من شرّ صغر أو كبر حاضرا أيضا ، فتساء وتندم ، وادّة أن يكون بينها وبين عملها بعد طويل ومسافة كبعد المشرقين.

ثم أكّد تعالى تحذيره ، فيحذركم الله عقابه وسخطه من ارتكاب المخالفات ، وعليكم ترجيح جانب الخير على الشّر. والله بهذا التحذير والتهديد رؤف بعباده ، إذ أنذرهم عاقبة أمرهم ، وعرّفهم جزاءهم ومصيرهم. قال الحسن البصري : ومن رأفته أن حذّرهم نفسه ، وعرّفهم كمال علمه وقدرته ؛ لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة ، دعاهم ذلك إلى طلب رضاه ، واجتناب سخطه.

فقه الحياة أو الأحكام :

١ ـ دلّت الآية على تحريم الاطمئنان إلى الكفار أو الثقة بهم والرّكون إليهم في أمر عام ، والتّجسس لهم ، واطّلاعهم على أسرار المسلمين الخاصة بمصلحة

الدّين ، واتّخاذهم أولياء وأنصارا في شيء تقدّم فيه مصلحتهم على مصلحة المؤمنين ، كما فعل حاطب بن أبي بلتعة ؛ لأن فيه إعانة للكفر على الإيمان.

وقصة حاطب المسندة في الصحيحين وغيرهما ملخصها : «أن حاطبا كتب كتابا لقريش يخبرهم فيه باستعداد النّبي ﷺ للزّحف على مكة ، إذ كان يتجهّز لفتحها ، وكان يكتم ذلك ، ليبغت قريشا على غير استعداد منها ، فتضطر إلى قبول الصلح . وما كان يريد حربا . وأرسل حاطب كتابه مع جارية وضعته في عقاص شعرها ، فأعلم الله نبيّه بذلك ، فأرسل في أثرها عليّا والزّبير والمقداد ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإنّ بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها ، فلما أتي به ، قال :

يا حاطب ما هذا؟ فقال : يا رسول الله ، لا تعجل عليّ! إنّي كنت حليفا لقريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النّسب فيهم أن أتّخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله ارتدادا عن ديني ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : «أما إنه قد صدقكم» ، واستأذن عمر النّبي ﷺ في قتله فلم يأذن له ، قالوا : وفي ذلك نزل قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ، وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة ٦٠ / ١].

أي أن آية : ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ ..﴾ لم تنزل في قصة حاطب ، وإنما هذه الآية وما نزل في قصة حاطب يشتركان في النهي عن موالاة الكافرين.

ولا تمنع هاتان الآيتان وأمثالهما التّحالف أو الاتّفاق بين المسلمين وغيرهم ، وإن كان التّحالف أو الاتّفاق لمصلحة غير المسلمين ؛ لأن النّبي ﷺ كان محالفا خزاعة ، وهم على شركهم.

كما لا تمنع الآيات في هذا الموضوع موادّة ومجاملة غير الحربيين من غير المسلمين في الظاهر مع عدم الرّضا بكفرهم في الحقيقة والباطن ، ولا تمنع معاملة غير المسلم أو معاشرته أو الثقة به في أمر خاص من الأمور ، لا يمسّ مصلحة المسلمين العامة ، بدليل آيات : ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ، وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ* لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّما يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة ٦٠ / ٧ ـ ٩].

فالكفار الحربيون الذين آذوا المسلمين أو ظاهروا على إخراجهم من بلادهم أو اغتصبوا بعض بلادنا كفلسطين ، لا تحلّ موالاتهم بل تجب معاداتهم ، للآية المتقدّمة.

٢ ـ وفي الآية دليل على أنه لا يجوز الاستعانة بالكفار في الحرب ، وإليه ذهب بعض المالكية ، ولقوله ﷺ ـ فيما رواه مسلم عن عائشة ـ لرجل تبعه يوم بدر : «ارجع فلن أستعين بمشرك» ، ولأنه لا يؤمن غدرهم ، إذ العداوة الدينية تحملهم على الغدر إلا عند الاضطرار.

وأجاز الأكثرون من أتباع المذاهب الأربعة الاستعانة بالكافر على الكفار ، إذا كان الكافر حسن الرأي بالمسلمين ، وقيّد الشافعية ذلك أيضا بالحاجة ؛ لأن النّبي ﷺ ـ فيما رواه مسلم ـ استعان بصفوان بن أمية يوم حنين لحرب هوازن ، وتعاونت خزاعة مع النّبي ﷺ عام فتح مكة ، وخرج قزمان ـ وهو من المنافقين ـ مع الصحابة يوم أحد ، وهو مشرك. وأما حديث «ارجع فلن أستعين بمشرك» فهو منسوخ بدليل استعانته ﷺ بيهود قينقاع وقسمه لهم من الغنيمة.

٣ ـ وفي الآية أيضا دليل على مشروعية التّقية : وهي المحافظة على النفس أو العرض أو المال من شرّ الأعداء.

والواقع أن التّقية نوعان بحسب نوع العدوّ : عدو في الدّين ، وعدوّ في الأغراض الدّنيوية كالمال والمتاع والإمارة.

أما النوع الأول : فكل مؤمن وجد في مكان لا يقدر فيه على إظهار دينه ، وهذا يجب عليه الهجرة من ذلك المكان إلى مكان يستطيع إظهار دينه فيه. أما إن كان من المستضعفين وهم الصبيان والنساء والعجزة فيجوز له البقاء في ديار الكفر وموافقة الكافرين في الظاهر بقدر الضرورة ، مع السّعي في حيلة للخروج والفرار بدينه ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ؟ قالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها ، فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ ، وَساءَتْ مَصِيراً* إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً* فَأُولئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُوراً﴾ [النساء ٤ / ٩٧ ـ ٩٩].

والموافقة حينئذ للكفار رخصة ، وإظهار ما في قلبه عزيمة ، فلو مات فهو شهيد ، بدليل ما روي أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال : نعم ، ثم قال له : أتشهد أني رسول الله؟ قال : نعم ، فتركه ؛ ثم دعا الثاني وقال : أتشهد أنّ محمدا رسول الله؟ قال : نعم ، فقال له : أتشهد أني رسول الله؟ قال : إني أصم ، قالها ثلاثا ، فضرب عنقه ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : «أما هذا المقتول ، فقد مضى على صدقه ويقينه ، وأخذ بفضيلة فهنيئا له ، وأما الآخر ، فقبل رخصة الله ، فلا تبعة عليه» [١].

وأما النوع الثاني ـ وهو من كانت عداوته بسبب المال ونحوه ، فقد اختلف

---

(١) التلخيص الحبير : ٤ / ١٠٣

العلماء في وجوب هجرة صاحبه من ديار الأعداء ، فقال بعضهم : تجب لقوله تعالى : ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٥] وللنهي عن إضاعة المال ، ولقوله ﷺ فيما رواه أحمد وأصحاب السنن إلا ابن ماجه ، وابن حبان عن سعيد بن زيد : «من قتل دون ماله فهو شهيد». وقال آخرون : لا تجب ؛ لأنها مصلحة دنيويّة ولا تضرّ بالدّين. ولكن الراجح أن الهجرة قد تجب هنا أيضا إذا خاف هلاك نفسه أو أقاربه أو هتك عرضه.

٤ ـ مداراة الناس بإظهار المحبة والولاء والموافقة : إن كانت فيما لا يؤدي إلى ضرر الغير ، كما أنها لا تخالف أصول الدّين ، فهي جائزة. وإن كانت تؤدي إلى ضرر الغير كالقتل والسرقة وشهادة الزّور ، فلا تجوز. قال الحسن البصري : التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة ، ولا تقية في القتل.

٥ ـ ينبغي دوام الحذر من عقاب الله وغضبه ، حتى يكون الإنسان على طهر من المعاصي ، ويحرص على زيادة القربات إلى ربّه ، فهي التي تنفعه يوم القيامة ، فيجازي كل إنسان بعمله : إن خيرا فخير ، وإن شرّا فشرّ.

٦ ـ علم الله واسع شامل ، يعلم كل شيء كبيرا أو صغيرا ، ويعلم ما في السموات والأرض ، ويعلم خفيات النفوس وجلياتها ، فسواء أظهر الإنسان شيئا أو أخفاه في صدره ، فإن الله تعالى عالم به علما دقيقا تامّا ، لا يختلف عليه شيء.

محبّة الله باتّباع الرّسول وطاعته

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (٣٢)﴾

البلاغة :

﴿فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ﴾ أقام الظاهر وهو اسم الجلالة مقام المضمر ، لتربية المهابة والرّوعة وتعظيم الله في النفوس.

ويوجد جناس مماثل في ﴿تُحِبُّونَ﴾ و ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾ ، وجناس مغاير في ﴿تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً﴾ وفي ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ و ﴿غَفُورٌ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿تُحِبُّونَ اللهَ﴾ المحبّة : ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه ، قال ابن عرفة : المحبّة عند العرب : إرادة الشيء على قصد له. وقال الأزهري : محبّة العبد لله ورسوله : طاعته لهما واتّباعه أمرهما ، ومحبّة الله للعباد : إنعامه عليهم بالغفران ، قال الله تعالى : ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ﴾ أي لا يغفر لهم.

﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ أي يثيبكم. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي يتجاوز عن سيئاتكم وأباطيلكم.

﴿أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ فيما يأمركم به من التوحيد. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الطاعة ، ولم يجيبوا دعوتك ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ﴾ أي يعاقبهم.

سبب النزول :

نزول الآية (٣١) :

أخرج ابن المنذر عن الحسن البصري قال : قال أقوام على عهد نبيّنا : والله يا محمد ، إنا لنحبّ ربّنا ، فأنزل الله : ﴿قُلْ : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ الآية.

وقال محمد بن جعفر بن الزبير : نزلت في وفد نجران إذ زعموا أن ما ادّعوه في عيسى حبّ لله عزوجل .

وقال ابن عباس : إن اليهود لما قالوا : ﴿نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أنزل الله تعالى هذه الآية ، فلما نزلت عرضها رسول الله ﷺ على اليهود ، فأبوا أن يقبلوها.

وعلى كلّ فالخطاب في الآية عام يشمل كل من ادّعى حبّ الله ، أي طاعته واتّباع أمره ، ولم يتّبع رسول الله ﷺ ، قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادّعى محبّة الله ، وليس هو على الطريقة المحمديّة ، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر ، حتى يتّبع الشّرع المحمدي والدّين النّبوي في جميع أقواله وأفعاله ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ».

المناسبة :

بعد أن نهى الله المؤمنين عن موالاة الكافرين ، أوضح هنا أن طريق محبّة الله تعالى متابعة رسوله ﷺ وامتثال أوامره واجتناب ما نهى عنه.

التفسير والبيان :

قل يا محمد لهم : إن كنتم تطيعون الله وترغبون في ثوابه ، فامتثلوا ما أنزل الله علي من الوحي ، يرض الله عنكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبّتكم إياه ، وهو محبّته إياكم ، وهو أعظم من الأوّل.

والله غفور لمن أطاعه ، واتّبع دينه ، رحيم به في الدّنيا والآخرة ، والطاعة تكون باتّباع الرّسول ﷺ .

روي أنه لما نزل قوله : ﴿قُلْ : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ ..﴾ قال عبد الله بن أبيّ زعيم المنافقين: إنّ محمدا يجعل طاعته كطاعة الله تعالى ، ويأمرنا أن نحبّه ، كما أحبّ النصارى عيسى ، فنزل قوله: ﴿قُلْ : أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾.

أي قل لهم : أطيعوا الله باتّباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وأطيعوا الرّسول باتّباع سنّته والاهتداء بهديه واقتفاء أثره. وهذا يدلّ على أنّ الله إنما أوجب عليكم متابعة نبيّه ؛ لأنه رسوله ، لا كما يقول النّصارى في عيسى عليه السلام .

فإن تولوا وأعرضوا ، وخالفوا أمره ، ولم يجيبوا دعوته غرورا منهم ، بادّعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه ، أي محبون لله ، فإنّ الله يجازي الكافرين ولا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم ويغضب عليهم ؛ لأنهم اتّبعوا أهواءهم ، ولم يهتدوا إلى الدّين الحنيف. وهذا دليل على أنّ مخالفة النّبي ﷺ في الطريقة والمنهج كفر ، والله لا يحبّ من اتّصف بذلك ، وإن ادّعى وزعم في نفسه أنه محبّ لله ويتقرّب إليه.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن محبّة الله والرّسول تتجلّى في اتّباع الإسلام وإطاعة رسول الله ﷺ والعمل بشريعته ، واتّباع أوامره واجتناب نواهيه.

ومحبة الرّسول ﷺ لا لذاته وإنما لكونه رسولا مرسلا من عند الله إلى جميع الثقلين : الجنّ والإنس.

فاتّباع شرع النّبي محمد ﷺ هو دليل الحبّ الصادق ، كما قال الورّاق :

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبّك صادقا لأطعته ... إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

وقال سهل بن عبد الله : علامة حبّ الله : حبّ القرآن ، وعلامة حبّ القرآن : حبّ النّبي ﷺ ، وعلامة حبّ النّبي ﷺ : حبّ السّنّة ، وعلامة حبّ الله وحبّ القرآن وحبّ النّبي وحبّ السّنّة : حبّ الآخرة ، وعلامة حبّ الآخرة : أن يحبّ نفسه ، وعلامة حبّ نفسه : أن يبغض الدّنيا ، وعلامة بغض الدّنيا : ألا يأخذ منها إلا الزّاد والبلغة.

وروى مسلم في صحيحة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله إذا أحبّ عبدا دعا جبريل فقال : إني أحبّ فلانا فأحبّه ، قال : فيحبّه جبريل ، ثم ينادي في السماء ، فيقول : إن الله يحبّ فلانا فأحبّوه ، قال : فيحبّه أهل السماء ، وإذا

أبغض عبدا دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلانا فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

اصطفاء الأنبياء وقصة نذر امرأة عمران ما في بطنها لعبادة الله

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَاللهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٧)﴾

الإعراب :

﴿ذُرِّيَّةً﴾ منصوب على الحال من الأسماء المتقدمة. ﴿إِذْ﴾ ظرف منصوب متعلق بفعل مقدر تقديره : اذكر يا محمد إذ قالت ، أو متعلق بقوله : ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿مُحَرَّراً﴾ حال من ﴿ما﴾. وعبر ب ﴿ما﴾ عمن يعقل للإبهام ، مثل : ﴿فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ﴾.

﴿وَضَعَتْها﴾ الهاء عائدة على «ما» حملا على المعنى ، ومعناها التأنيث.

﴿أُنْثى﴾ منصوب على الحال من ضمير ﴿وَضَعَتْها﴾.

﴿وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا﴾ بالتشديد ، وزكريا مفعول به ، ومن قرأها بالتخفيف رفع زكرياء ؛ لأنه فاعل. والهمزة في زكرياء للتأنيث.

البلاغة :

﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى﴾ جملتان معترضتان لتعظيم الأمر.

﴿أُعِيذُها﴾ التعبير بالمضارع للدلالة على الاستمرار والتجديد.

﴿وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً﴾ شبه تربيتها الصالحة ونموها بالزرع الذي ينمو شيئا فشيئا عن طريق الاستعارة التبعية ، بحذف المشبه والإتيان بشيء من لوازمه.

المفردات اللغوية :

﴿اصْطَفى﴾ اختار. ﴿ذُرِّيَّةً﴾ الذرية في الأصل : صغار الأولاد ، ثم استعملت في الصغار والكبار ، وللواحد والكثير ، والمراد : ذرية يشبه بعضها بعضا. ﴿امْرَأَتُ عِمْرانَ﴾ اسمها حنة بنت فاقود. ﴿مُحَرَّراً﴾ عتيقا خالصا من شواغل الدنيا ، مخصصا للعبادة وخدمة البيت المقدس (المسجد الأقصى). ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ خذه على وجه الرضا والقبول.

﴿أُعِيذُها بِكَ﴾ أي أمنعها وأحفظها بحفظك ، وأصل التعوذ والاستعاذة بالله : الالتجاء إليه ، والاستجارة به ، واللجوء إليه بالدعاء والرجاء. ﴿مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ﴾ المطرود.

﴿مَرْيَمَ﴾ بالعبرية : خادم الرب أي العابدة. ﴿وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً﴾ رباها بما يصلح أحوالها.

﴿وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا﴾ جعل زكريا كافلا لها. وزكريا : من ولد سليمان بن داود عليهما‌السلام .

﴿الْمِحْرابَ﴾ : الغرفة وهي أشرف المجالس ، وتسمى عند أهل الكتاب بالمذبح : وهي مقصورة في مقدم المعبد ، ذات باب يصعد إليه بسلم ذي درجات قليلة يكون من فيه محجوبا عمن في المعبد. ﴿أَنَّى لَكِ هذا﴾ من أين لك هذا ، والزمان زمان قحط وجدب. ﴿مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ يأتيني به من الجنة. ﴿بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ أي بغير عدّ ولا إحصاء لكثرته ، فهو رزق واسع بلا تبعة.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أن محبته تستلزم محبة رسوله واتباعه وطاعته ، وأن طاعة الله مقترنة بطاعة الرسول ، ناسب أن يذكر من أحبهم واصطفاهم من الرسل وذرياتهم الذين يبينون للناس طريق المحبة : وهي الإيمان بالله مع طاعته وطاعة رسله الكرام.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض ، وجعلهم صفوة العالمين بجعل النبوة فيهم ، فاختار آدم أبا البشر ، خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد الملائكة له ، وعلمه أسماء الأشياء ، وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة ، وتاب عليه واجتباه ، كما قال : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ، فَتابَ عَلَيْهِ ، وَهَدى﴾ [طه ٢٠ / ١٢٢] وكان من ذريته الأنبياء والمرسلون.

واصطفى من بعده نوحا أبا البشر الثاني ، الذي جعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض فهو شيخ المرسلين ، لما عبدوا الأوثان ، وانتقم له بإغراقهم بالطوفان ، ونجاه هو ومن تبعه من المؤمنين في الفلك العظيم ، وكان من ذريته كثير من الأنبياء والمرسلين ، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر القرابات.

واصطفى آل إبراهيم ، ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط. واصطفى من ذرية إبراهيم آل عمران : وهم عيسى وأمه مريم بنت عمران التي ينتهي نسبها إلى يعقوب عليه السلام .

والمراد بعمران هذا : هو والد مريم أم عيسى عليه السلام ، وهو عمران بن

ياشم ، ابن ميشا بن حزقيا بن إبراهيم ، وينتهي نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السلام . فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم.

اختار الله هؤلاء وجعلهم صفوة الخلق وجعل النبوة والرسالة فيهم. فهم ذرية واحدة وسلالة واحدة ، ويشبه بعضها بعضا في الفضل والمزية والتناصر في الدين ، فآل إبراهيم وهم إسماعيل وإسحاق وأولادهما من نسل إبراهيم ، وإبراهيم من نسل نوح ، ونوح من آدم. وآل عمران : وهم موسى وهرون وعيسى وأمه من ذرية إبراهيم ونوح وآدم. واصطفاؤهم على جميع الخلق كلهم ، فهم صفوة الخلق ، فأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جازت مرتبته الاصطفاء ؛ لأنه حبيب ورحمة ، قال الله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ فالرسل خلقوا للرحمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم خلق بنفسه رحمة ، فلذلك صار أمانا للخلق ، وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الحاكم وابن عساكر عن أبي هريرة : «إنما أنا رحمة مهداة» يخبر أنه بنفسه رحمة للخلق من الله ، وقوله «مهداة» أي هدية من الله للخلق.

هذه الذرية هم المذكورون بمناسبة الكلام عن إبراهيم : ﴿وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنا ..﴾ [الأنعام ٦ / ٨٤ ـ ٨٧].

وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء ؛ لأن جميع الأنبياء والرسل من نسلهم.

والله سميع لأقوال العباد ، عليم بنياتهم وضمائرهم.

واذكر وقت أن قالت امرأة عمران (وهي أم مريم واسمها حنّة بنت فاقود) وكانت عاقرا لم تلد ، واشتاقت للولد ، فدعت الله تعالى أن يهبها ولدا ، فاستجاب الله دعاءها ، فلما تحققت الحمل قالت : رب إني نذرت لك ما في بطني خالصا لوجهك الكريم ، متفرغا للعبادة وخدمة بيت المقدس وكان ذلك جائزا في شريعتهم ، وكان على الولد الطاعة. ودعت الله أن يتقبل منها هذا النذر ، وهو

السميع لكل قول ودعاء ، العليم بنية صاحبه وإخلاصه ، وهذا يستدعي تقبل الدعاء ، فضلا منه وإحسانا ، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكر أم أنثى. والنذر : هو ما أوجبه المكلف على نفسه من العبادات مما لو لم يوجبه لم يلزمه. فهو لا يلزم العبد إلا بأن يلزمه نفسه.

ويلاحظ أن المراد بعمران أولا في قوله : ﴿آلَ عِمْرانَ﴾ هو أبو موسى عليه السلام ، وثانيا في قوله ﴿امْرَأَتُ عِمْرانَ﴾ هو أبو مريم ، وبينهما نحو ألف وثمانمائة عام (١٨٠٠) تقريبا.

فلما وضعت بنتا ، قالت متحسرة حزينة : إني وضعتها أنثى ، وذلك أنه ما كان يؤخذ لخدمة البيت إلا الذكور ؛ لأن الأنثى تحيض وتلد ، فلا تصلح لهذا ، والله أعلم بما وضعت وبمكانتها ، وفي هذا تعظيم لشأن الأنثى ، وليس الذكر الذي طلبت وتمنت كالأنثى أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ، بل هذه الأنثى خير مما كانت ترجو من الذكر. أما قوله : ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ﴾ فهو من كلام الله عزّ وجلّ. وقرئ بضم تاء «وضعت» فيكون من كلام امرأة عمران عن طريق التعظيم والتنزيه لله تعالى. وأما : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى﴾ فهو من كلام الله بالمعنى المذكور. ويجوز كونه من كلام امرأة عمران ، قالته معتذرة إلى ربها من ولادة أنثى على خلاف ما قصدته من خدمة المسجد ؛ لأنه أنثى لا تصلح للخدمة بسبب كونها عورة.

وقالت امرأة عمران : إني سميتها مريم ، أي خادمة الرب ، وإني أجيرها وأعيذها بحفظك ورعايتك من شر الشيطان المطرود من الخير ، وأدعوك أن تقيها وذريتها وهو عيسى عليه السلام من الشيطان وسلطانه عليهما ، فاستجاب الله دعاءها. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : «كل بني آدم

يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها» [١] أي أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود بحيث يؤثر فيه إلا مريم وابنها.

فتقبل الله مريم من أمها بأبلغ قبول حسن ، ورضي أن تكون محررة خالصة للعبادة وخدمة البيت على صغرها وأنوثتها ، ورباها ونماها بما يصلح أحوالها تربية عالية تشمل الجسد والروح ، كما يربى النبات في الأرض الصالحة بعد تعهد الزارع إياه بالسقي والتسميد والعزق وقلع الأعشاب الضارة من حوله.

وجعل زكريا . وكان زوج وخالتها وكان معروفا بالخلق والتقوى . كافلا لها وراعيا مصالحها حتى شبت وترعرعت. وإنما قدر الله كون زكريا كفيلها لسعادتها ، لتقتبس منه علما جما نافعا وعملا صالحا.

وكان كلما دخل زكريا عليها المحراب ، وجد عندها خيرا كثيرا ورزقا وافرا ، وألوانا من الطعام لا توجد في مثل ذلك الوقت ، قال جماعة من مفسري التابعين : كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف.

فيقول لها : يا مريم ، من أين لك هذا؟ والأيام أيام جدب وقحط ، قالت : هو من عند الله الذي يرزق الناس جميعا ، بتسخير بعضهم لبعض ، إن الله يرزق من يشاء من عباده بغير حساب. قيل : هو من قول مريم ، ويجوز أن يكون كلاما مستأنفا ، فكان ذلك سبب دعاء زكريا وسؤاله الولد.

فقه الحياة أو الأحكام :

كان المشركون وأهل الكتاب ينكرون نبوة النبي ﷺ ؛ لأنه بشر مثلهم ، ولأنه ليس من بني إسرائيل ، فرد الله عليهم : إن الله اصطفى آدم أبا البشر.

---

(١) وفي لفظ : «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد ، فيستهل صارخا من مسّه إياه ، إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ﴾.

ونوحا الأب الثاني ، واصطفى من ذريتهما آل إبراهيم ، واختار آل عمران من آل إبراهيم. وآل عمران هم من سلالة بني إسرائيل حفيد إبراهيم. فإذا كان الاصطفاء لله فهو يصطفي أيضا نبيا من العرب وهو سليل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

فكانت هذه القصة لتقرير نبوة النبي العربي ﷺ ، ودحض شبهة أهل الكتاب الذين حصروا النبوة في بني إسرائيل ، وإبطال شبهة المشركين الذين تصوروا كون النبي غير بشر ، وهو لا يكون إلا بشرا من جنس المبعوث إليهم.

وفي القصة إرهاص بنبوة عيسى ، إذ ولدت أمه من أم عاقر كبيرة السن ، على خلاف المعهود ، وقبلت الأنثى في خدمة بيت المقدس ، لتكون سيرتها الطاهرة عنوانا على كون ولدها من روح الله وكلمته.

ودل قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ على جواز التسمية يوم الولادة ، وهو شرع من قبلنا ، وأكده ما ثبت في السنة عند البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ حيث قال : «ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي : إبراهيم».

وكان من أثر دعاء امرأة عمران الذي قبله الله بصون مولودها وذريتها من مس الشيطان أن صان عيسى عليه السلام من إغواءات الشيطان ، كما يصون الله تعالى سائر أنبيائه الكرام من وساوس الشياطين وسلطانهم ، فكم تعرّض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ، ومع ذلك فعصمهم الله مما يرومه الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ [الحجر ١٥ / ٤٢ والإسراء ١٧ / ٦٥].

ووجود الرزق الكثير عند مريم مما ليس كالعادة دليل على كرامات الأولياء ، كما ذكر ابن كثير (١).

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٦٠

قصة زكريا ويحيى

(دعاء زكريا وطلبه الولد الصالح وإنجاب يحيى)

﴿هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ (٣٨) فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (٤٠) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (٤١)﴾

الإعراب :

﴿هُنالِكَ﴾ الأصل أن يكون ظرف مكان ، ولكنه استعمل هنا ظرف زمان ، وقيل : بهما في هذه الآية أي في ذلك المكان والوقت ، وهو متعلق بدعاء أي دعا زكريا في ذلك الوقت ، وهذا الاستعمال جائز على سبيل التوسع ، ويعرف المراد بدلالة الحال ، وقد تجيء ﴿هُنالِكَ﴾ محتملة الزمان والمكان ، كما في قوله تعالى : ﴿هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِ﴾. والظرف منه «هنا» واللام للتأكيد ، والكاف للخطاب ، لا موضع لها من الإعراب.

﴿فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ﴾ أي جماعة الملائكة. ومن قرأ «فناداه» أراد جمع الملائكة ؛ إذ يجوز في فعل الجماعة التذكير والتأنيث ، سواء كانت الجماعة للمذكر أو المؤنث ، نحو : قال الرجال وقالت الرجال ، وقال النساء وقالت النساء ، فالتذكير بالحمل على معنى الجمع ، والتأنيث بالحمل على معنى الجماعة. ﴿وَهُوَ قائِمٌ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من هاء ﴿فَنادَتْهُ﴾. ﴿أَنَّ اللهَ﴾ مفعول ثان لنادته ، ومن قرأها بالكسر فعلى الابتداء ، على تقدير : قال : إن الله يبشرك. ﴿مُصَدِّقاً﴾ حال من يحيى ، وكذلك : ﴿سَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا﴾. ﴿وَامْرَأَتِي عاقِرٌ﴾ إنما جاء بغير تاء ؛ لأنه أراد النّسب ، أي : ذات عقر أي عقم ، مثل طالق وحائض.

البلاغة :

﴿فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ﴾ المنادي جبريل ، وعبر عنه باسم الجماعة تعظيما له ؛ لأنه رئيسهم.

﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ﴾ فيه طباق وهو أحد المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية :

﴿هُنالِكَ﴾ أي لما رأى زكريا ذلك ، وعلم أن القادر على الإتيان بالشيء من غير حينه قادر على الإتيان بالولد على الكبر ، وكان أهل بيته انقرضوا ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ ولدا صالحا مباركا. الذرية : الولد ، وتقع على الواحد والكثير وهو هنا واحد ، والطيب : ما تستطاب أفعاله ﴿سَمِيعُ الدُّعاءِ﴾ أي مجيبه وقابله ، كما يقال : سمع الله لمن حمده ، إذ من لم يجب ، فكأنه لم يسمع ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ أي يصدق بعيسى أنه روح الله ، فهو قد وجد بكلمة كائنة من الله ، وكلمة الله : عيسى عليه‌السلام ، وسمي كلمة ؛ لأنه خلق بكلمة : كن ، قال الربيع بن أنس : هو أول من صدق بعيسى بن مريم. ﴿وَسَيِّداً﴾ السيد : الرئيس المتبوع الذي يسود قومه. ﴿وَحَصُوراً﴾ قال السيوطي وغيره : ممنوعا من النساء ، من الحصر : وهو المنع ، فهو لا يأتي النساء مع القدرة على إتيانهن تعففا وزهدا. وقال آخرون : منوعا نفسه من ارتكاب ما يعاب عليه ، أو أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها ، كأنه حصور عنها ، كما قال القاضي عياض. ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من أصلابهم ، روي أنه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها ﴿أَنَّى﴾ كيف ﴿غُلامٌ﴾ ولد ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي بلغت نهاية السن ، مائة وعشرين سنة ﴿وَامْرَأَتِي عاقِرٌ﴾ عقيم لا تلد بلغت ثمانيا وتسعين سنة. ﴿كَذلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ، أي من خلق الله غلاما منكما ﴿اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾ : لا يعجزه عنه شيء.

﴿آيَةً﴾ علامة على حمل امرأتي أي علامة أعرف بها ميقات الحمل إذا حدث لأتلقى النعمة بالشكر ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ أي تمتنع من كلامهم ما عدا ذكر الله تعالى ﴿رَمْزاً﴾ إشارة بيد أو رأس أو غيرهما ، وسمي الرمز كلاما ؛ لأنه يفيد ما يفيده الكلام ويدل على ما دل عليه ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ الوقت من الزوال إلى الليل. ﴿وَالْإِبْكارِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى ، فشمل قوله : بالعشي والإبكار : أواخر النهار وأوائله.

التفسير والبيان :

حينما رأى زكريا حال مريم وتفرغها للعبادة وتفضل الله عليها بالأرزاق الوفيرة ، دعا ربه أن يرزقه ولدا صالحا مثلها من ولد يعقوب عليه‌السلام ،

قائلا : إنك يا رب سميع لكل قول ، مجيب لكل دعاء صالح ؛ لأن رؤية الأولاد النجباء تشوق النفس لو يكون له مثلهم.

فخاطبته الملائكة شفاها ، والمخاطب في رأي الجمهور : هو جبريل عليه‌السلام [1] ، والأظهر في رأي القرطبي : ناداه جميع الملائكة ، أي جاء النداء من قبلهم.

وهو قائم يدعو الله ويصلي في محراب عبادته ، وقالت له : إن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى : ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى﴾ [مريم ١٩ / ٧] وهو معرّب يوحنا ، ويطلق عليه في إنجيل متى : «يوحنا المعمداني» لأنه كان يعمّد الناس في زمانه. وهو أول من يصدق بعيسى بن مريم عليه‌السلام المسمى (كلمة الله) ؛ لأنه ولد ونشأ بكلمة الله : ﴿كُنْ﴾ ، لا بالطريقة المعتادة من الولادة من أب وأم.

ويحيى أيضا سيد قومه ، ومعصوم من الذنوب ، ومانع نفسه من شهواتها ، ونبي يوحى إليه. وهذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته ، وهي أعلى من الأولى. وهو صالح ناشئ من أصلاب الصالحين : أنبياء الله الكرام صلوات الله عليهم.

ولكن زكريا تعجب قائلا : كيف يكون لي غلام ، وقد أصبحت كبير السن ، وامرأتي عقيم لا تلد ، فأجابه الله تعالى من طريق الملائكة : كذلك الله يفعل ما يشاء ، أي مثل ذلك الخلق غير المعتاد الحاصل مع امرأة عمران ، يفعل

---

(١) في التنزيل : يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ يعني جبريل ، والروح : الوحي. وجائز في العربية : أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع. وجاء في التنزيل : الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ يعني : نعيم بن مسعود.

الله ما يشاء في الكون ، فمتى شاء أمرا أوجده ، سواء بسبب معروف أو بغير سبب ، ومنه إيجاد الولد والمرأة عاقر.

فطلب زكريا من ربه أن يجعل له علامة تدله على الحمل ووجود الولد منه ، استعجالا للسرور ، أو ليشكر تلك النعمة ، فجعل الله علامة ذلك ألا يقدر على كلام الناس مدة ثلاثة أيام متوالية إلا بالإشارة والرمز بيد أو رأس أو نحوهما. وأمره بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال طوال الوقت ، وعلى التخصيص في الصباح والمساء.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت هذه الآية على مشروعية طلب الولد ، وهي سنة المرسلين والصدّيقين ، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد ١٣ / ٣٨] وقال : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان ٢٥ / ٧٤] وقال مخبرا عن إبراهيم الخليل : ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٨٤] ، وروي من حديث أنس قال : قال النبي ﷺ : «أيّ رجل مات ، وترك ذرّية طيبة ، أجرى الله له مثل أجر عملهم ، ولم ينقص من أجورهم شيئا». وخرّج ابن ماجه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «النكاح من سنّتي ، فمن لم يعمل بسنتي فليس مني ، وتزوّجوا فإني مكاثر بكم الأمم ، ومن كان ذا طول فلينكح ، ومن لم يجد فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء». وأخرج أبو داود من قوله ﷺ : «تزوجوا الولود الودود ، فإني مكاثر بكم الأمم». والأخبار في هذا المعنى كثيرة ، تحث على طلب الولد وتندب إليه ؛ لما يرجوه الإنسان من نفعه في حياته وبعد موته ، روى مسلم وغيره أنه ﷺ قال : «إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث فذكر : أو ولد صالح يدعو له» ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية.

ودلت الآية أيضا على أن الواجب على الإنسان أن يتضرع إلى خالقه في هداية ولده وزوجه وطلب التوفيق لهما ، والهداية والصلاح والعفاف والرعاية ، وأن يكونوا معينين له على دينه ودنياه حتى تعظم منفعته بهما في أولاه وأخراه. ألا ترى قول زكريا : ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم ١٩ / ٦] وقال : ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ وقال : ﴿رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان ٢٥ / ٧٤] ، ودعا رسول الله ﷺ لأنس ، فقال فيما رواه البخاري ومسلم : «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه».

ومن مهام الملائكة البشارة ، كما بشرت بيحيى عليه‌السلام ، والأنبياء معصومون من الذنوب والمعاصي الكبيرة والصغيرة قبل النبوة وبعدها ، وقد يعصمون ويمنعون عن الشهوات المباحة ، كما حصل ليحيي عليه‌السلام أنه كان حصورا ، ولعل هذا كان شرعه ، فأما شرعنا فالنكاح. وكان يحيي أول من آمن بعيسى عليهما‌السلام وصدّقه ، وكان يحيي أكبر من عيسى بثلاث سنين ، ويقال بستة أشهر.

واستبعاد زكريا عليه‌السلام وتعجبه كان على وفق المعتاد أن حاله وحال امرأته لا يولد لمثلهما ، لا أن ذلك ليس من مقدور الله. وقد طلب إتمام النعمة بأن يجعل له آية تكون دليلا على زيادة النعمة والكرامة.

وفي هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام ، وذلك موجود في كثير من السنة ، وآكد الإشارات : ما حكم به النبي ﷺ من أمر السوداء حين قال لها : «أين الله؟» فأشارت برأسها إلى السماء ، فقال : «أعتقها فإنها مؤمنة» فأجاز الإسلام بالإشارة الذي هو أصل الديانة الذي يحرز الدم والمال ، وتستحق به الجنة ، وينجى به من النار ، وحكم بإيمانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك.

وهذا قول عامة الفقهاء ، قال مالك : إن الأخرس إذا أشار بالطلاق إنه

يلزمه. وقال الشافعي في الرجل يمرض فيختل لسانه ، فهو كالأخرس في الرجعة والطلاق. وقال أبو حنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف ، وإن شك فيها فهي باطل ، وليس ذلك بقياس ، وإنما هو استحسان.

وقد منع زكريا الكلام بآفة دخلت عليه منعته إياه ، وتلك الآفة عدم القدرة على الكلام مع الصحة. أما عن ذكر الله فلا ، فقد أمره الله بألا يترك الذكر في نفسه مع اعتقال لسانه. قال محمد بن كعب القرظي : لو رخص لأحد في ترك الذكر ، لرخص لزكريا بقول الله عزّجلّ : ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً﴾ ولرخص للرجل يكون في الحرب بقول الله عزّجلّ : ﴿إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً﴾ [الأنفال ٨ / ٤٥].

وكذلك الصلاة لا تترك ؛ لأن معنى قوله : ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي صلّ ، سميت الصلاة سبحة ، لما فيها من تنزيه الله تعالى عن السوء.

قصة زكريا عليه‌السلام :

ذكر زكريا في القرآن الكريم ثماني مرات في آل عمران وفي الأنعام وفي مريم وفي الأنبياء. ويظهر أن لزكريا أبي يحيى شركة في خدمة الهيكل ، فهو «لاوي» وهو زوج خالة «مريم».

لما رأى زكريا آيات الله الباهرات وإكرامه تعالى لمريم ورزقها من حيث لا تحتسب ، فدعا ربه ليرزقه ذرية طيبة مباركة تلي أمور بني إسرائيل ؛ لأنه كان يخشى ابتلاءهم بمواليه الذين لم يكونوا متمسكين بالشريعة ، فحملت زوجه بيحيى وبشره الله بنبوته ، وأعلمه أن آية ذلك أن يعجز عن الكلام مع الناس ثلاثة أيام لا يكلمهم إلا رمزا. وقتل زكريا وابنه يحيى في حادث واحد.

قصة يحيى عليه السلام :

ذكر يحيى في مواضع أربعة من القرآن الكريم : في آل عمران ، وفي الأنعام ، وفي مريم ، وفي الأنبياء.

وحملت زوجة زكريا ، واسمها «اليصابات» في الزمن الذي حملت فيه مريم بعيسى ، وولد يحيي ثم شب ونشأ بارعا في الشريعة الموسوية ومرجعا مهما لكل من يستفتي في أحكامها.

وكان «هيرودس» أحد حكام فلسطين ، وله بنت أخ تسمى «هيروديا» بارعة الجمال ، أراد أن يتزوج منها ، وأرادت البنت وأمها ذلك ، فلم يرض يحيي عن هذا الزواج ؛ لأنه حرام. فانتهزت الأم ليلة الزفاف بين العم وابنة أخيه ، فرقصت العروس في زينتها أمامه ، فسر منها ، وطلب منها أن تقول ما تتمناه ، ليعمله لها ، فطلبت منه ـ عملا بمشورة أمها ـ رأس يحيي بن زكريا في هذا الطبق ، فوفى لها عمها الحاكم بذلك وقتل يحيي.

وامتاز يحيي منذ صباه بأكمل أوصاف الصلاح والتقوى ، وأوتي النبوة وهو صبي قبل بلوغ الثلاثين ، كما قال تعالى : ﴿وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم ١٩ / ١٢] وكان يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب ، وكان يعمّدهم أي يغسلهم في نهر الأردن للتوبة من الخطايا ، وقد عمّد المسيح ، ويسميه المسيحيون «يوحنا المعمدان». ولما قتل يحيي ، جهر المسيح بدعوته ، وبدأ في وعظ الناس.

قصة مريم

﴿وَإِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ (٤٢)

يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾

الإعراب :

﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ مبتدأ وخبر ، والجملة منصوبة بفعل مقدر ، تقديره : ينظرون أيهم يكفل مريم.

البلاغة :

﴿وَإِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ﴾ المراد جبريل ، على سبيل المجاز المرسل من إطلاق الكل ، وإرادة البعض.

﴿اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ﴾ تكرار لفظ ﴿اصْطَفاكِ﴾ ولفظ ﴿مَرْيَمَ﴾ من باب الإطناب.

المفردات اللغوية :

﴿إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ﴾ أي جبريل ﴿يا مَرْيَمُ﴾ مريم في لغتهم : العابدة ، وسميت بذلك تفاؤلا لها بالخير. ﴿اصْطَفاكِ﴾ اختارك. ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الحيض والنفاس ، ومن مسيس الرجال ، ومن سفساك الأخلاق. ﴿وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ﴾ أي أهل زمانك. والاصطفاء الأول: قبولها محررة لخدمة بيت المقدس ، وكان ذلك خاصا بالرجال. والاصطفاء الثاني : الاختصاص بولادة نبي من غير أن يمسها رجل ، وذلك بمعنى أنها مهيأة ومعدة له ، وفيه شهادة ببراءتها مما قذفها به اليهود.

﴿اقْنُتِي﴾ أطيعي ، والقنوت : الطاعة مع الخضوع. ﴿وَاسْجُدِي﴾ تذللي. ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ صلي مع المصلين ، والمراد من السجود والركوع لازمه وهو التواضع والخشوع في العبادة.

﴿نُوحِيهِ﴾ الوحي : تعريف الموحى إليه بأمر خفي ، وقد جاء الوحي في القرآن لمعان : لكلام جبريل للأنبياء كما هنا ، ومثل : ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ ، وللإلهام مثل : ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى﴾ [القصص ٢٨ / ٧] ولإلقاء المعنى المراد مثل : ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها﴾ [الزلزلة ٩٩ / ٥] وللإشارة مثل : ﴿فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم ١٩ / ١١].

﴿أَنْباءِ الْغَيْبِ﴾ أخبار ما غاب عنك. ﴿أَقْلامَهُمْ﴾ قداحهم المبرية التي يقترعون بها ،

وتسمى السهام. أما الأزلام : فهي التي يضربون بها القرعة ويقامرون بها.

﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ يتنازعون في كفالتها.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصة ولادة يحيى من أب كبير وأم عاقر ، وذلك شيء خارق للعادة ، أعقبه بذكر قصة ولادة عيسى من غير أب ، وهو شيء أغرب من الأول. وغاية القصة : الرد على النصارى الذين ادعوا ألوهية عيسى ، فذكر ولادته من مريم ليدل على بشريته.

التفسير والبيان :

أخبرت الملائكة مريم عليها السلام أن الله اختارها لكثرة عبادتها وزهدها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس ومن سفساف الأخلاق وذميم الصفات (وهو التطهير المعنوي) ثم اصطفاها ثانيا بالتطهير الحسي كعدم الحيض والنفاس والولادة من غير جماع ، وفضلها على نساء عالمي زمانها ، فهي طاهرة من الأدناس والأرجاس من الحيض والنفاس وغيرهما ، ومن العيوب والنقائص البشرية الحسية والمعنوية. ومثلها السيدة فاطمة الزهراء التي ما كانت تحيض ، ولذلك لقبت بالزهراء.

يا مريم الزمي الطاعة مع الخضوع لله ، واسجدي له مع الخشوع ، وصلي جماعة مع المصلين ، لا وحدك. فالقنوت : الطاعة في خشوع ، كما قال تعالى : ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٦]. والسجود : التذلل ، والركوع : الانحناء ، والمراد : ما يلزمه وهو التواضع والخشوع في العبادة.

تلك القصص التي أخبرناك عنها من أخبار زكريا ويحيى ومريم ، هي من أخبار الغيب التي لم تطلع عليها أنت ولا أحد من قومك ، وإنما هي بالوحي

الذي نوحيه إليك على يد جبريل الروح الأمين ، لتكون دليلا على صحة نبوتك ، وإلزام المعاندين لك. فهذا تقرير وتثبيت أن ما علمه من ذلك إنما هو بوحي من الله تعالى ، والمعلم به قصتان : قصة مريم ، وقصة زكريا.

وما كنت حاضرا معهم حينما جاءت امرأة عمران ، وألقت مريم في بيت المقدس ، وتنافس الأحبار في رعايتها وخدمتها ، فهي بنت سيدهم وكبيرهم ، وأخذوا يستهمون (يقترعون) في ذلك ، فجاءت القرعة لزكريا ، فكان كافلها.

وما كنت شاهدا عليهم إذ يتنازعون ويتخاصمون في كفالتها ، ولم يتفقوا عليها إلا بعد القرعة. وإذ لم تعلم بهذه القصة ولا قومك لأنك أمي مثلهم ، فلم يبق لك طريق للعلم إلا الوحي من الله تعالى. أما المشاهدة للخصومة فقد نفاها الله تعالى على سبيل التهكم. وهي كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ، ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا﴾ [هود ١١ / ٤٩].

وأما تعليم البشر ـ كما زعموا ـ فرده الله تعالى بقوله : ﴿لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل ١٦ / ١٠٣] وهو النبي الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب.

وهذه الآية مثل المذكور عقب قصة نوح عليه‌السلام : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ، ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا﴾ [هود ١١ / ٤٩] والمذكور بعد قصة موسى وشعيب : ﴿وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص ٢٨ / ٤٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى تفضيل السيدة مريم عليها‌السلام على نساء العالمين أجمع في قول الزجاج وغيره ، وعلى عالمي زمانها في قول أكثر المفسرين. وكرر الاصطفاء ؛ لأن معنى الأول : الاصطفاء لعبادته ، ومعنى الثاني لولادة عيسى.

روى مسلم والجماعة إلا أبا داود عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران ، وآسية امرأة عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». والكمال : هو التناهي والتمام ، وكمال كل شيء بحسبه ، والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة. ولا شك أن أكمل نوع الإنسان : الأنبياء ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين.

وروي من طرق صحيحة أنه عليه الصلاة والسلام ـ فيما رواه الترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة وأنس بن مالك : «خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد» وفي رواية أخرى : «سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم : فاطمة وخديجة». فهذه الأحاديث تدل على فضيلة مريم وأن روح القدس كلمها ، وظهر لها ، ونفخ في درعها ، ودنا منها للنفخة ، وصدقت بكلمات ربها ، ولذلك سماها الله في تنزيله صدّيقة فقال : ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ وقال : ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ ، وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ﴾ [التحريم ٦٦ / ١٢].

ودلت الآية على أن مريم كانت كثيرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل ، مما هيأها لمحنة لها ورفعة في الدارين.

ودل قوله تعالى : ﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ على نبوة محمد ﷺ ، حيث أخبره الله عن قصة زكريا ومريم ، ولم يكن قرأ الكتب ، وأخبر الناس عن ذلك ، وصدّقه أهل الكتاب بذلك. والإيحاء هنا : الإرسال إلى النبيّ ﷺ.

واستدل بعض علماء المالكية بهذه الآية ﴿وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ ...﴾ على إثبات القرعة ، وهي في أصل شرعنا لكل من أراد العدل في القسمة ، وهي

سنة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجة ليعدل بينهم ، وتطمئن قلوبهم ، وترتفع الظنّة عمن يتولى قسمتهم ، ولا يفضل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد اتباعا للكتاب والسنة. وردّ العمل بالقرعة أبو حنيفة وأصحابه ، وردوا الأحاديث الواردة فيها ، وأنها تشبه الأزلام التي نهى الله عنها. وأجيبوا بالآثار والسنة ، قال أبو عبيد : وقد عمل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء : يونس وزكريا ونبينا محمد ﷺ. وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا» (١) وكان النبي ﷺ إذا أراد السفر أقرع بين نسائه.

ودلت الآية أيضا على أن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدّة ، وقد قضى النبي ﷺ في ابنة حمزة ـ واسمها أمة الله ـ لجعفر ، وكانت عنده خالتها ، وقال فيما رواه الترمذي والشيخان عن البراء : «الخالة بمنزلة الأم» وكان زكريا قد قال لأحبار بيت المقدس:ادفعوها لي فإن خالتها تحتي ، فأبوا واقترعوا عليها بأقلامهم التي يكتبون بها التوراة فقرعهم زكريا ، فكفلها.

وكيف تمت القرعة؟ لما نذرت امرأة عمران والدة مريم ما في بطنها لخدمة الهيكل ، جاءت بها إلى خدام الهيكل ، فكل واحد منهم أراد أن يكفلها وألقوا قرعة على ذلك ، فكانت مريم نصيب زكريا ، فقام بأمرها كما قال تعالى : ﴿وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا﴾.

قال بعض العلماء : الحكمة في أنّ الله لم يذكر في القرآن امرأة باسمها إلا (مريم) : هي الإشارة من طرف خفي إلى رد ما قاله النصارى من أنها زوجته ، فإن العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس ، ولينسب إليها عيسى باعتبار عدم وجود أب له ، ولهذا قال في الآية التالية : ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

---

(١) حديث صحيح رواه أحمد والشيخان والنسائي.

قصة عيسى عليه‌السلام

﴿إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)﴾

الإعراب :

﴿إِذْ﴾ ظرف زمان ماض ، وهو بدل من قوله : ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في الآية السابقة.

﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى﴾ اسمه المسيح : جملة اسمية في موضع صفة لكلمة. و ﴿عِيسَى﴾: بدل من المسيح.

﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إما بدل من ﴿عِيسَى﴾ أو خبر مبتدأ محذوف وتقديره : هو ابن مريم ، ولا يجوز أن يكون وصفا لعيسى ؛ لأن اسمه عيسى فقط ، وليس اسمه : عيسى بن مريم. وإذا كان كذلك وجب إثبات الألف في الخط من قوله : ابن مريم ؛ لأن الألف من ﴿ابْنُ﴾ إنما تسقط إذا وقعت وصفا بين علمين ، ولا يجوز أن يكون هاهنا وصفا ، فوجب أن تثبت.

﴿وَجِيهاً وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ : كل ذلك أحوال من عيسى.

﴿أَنِّي أَخْلُقُ﴾ فيه ثلاثة أوجه : الجر بدلا من ﴿بِآيَةٍ﴾ والرفع خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو أني أخلق ، والنصب بدلا من «أن» في قوله : ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ وهي في موضع نصب ، وتقديره : جئتكم بأني قد جئتكم ، فحذف حرف الجر ، فاتصل الفعل به.

﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ الكاف في موضع نصب ؛ لأنها صفة مصدر محذوف وتقديره : خلقا مثل هيئة الطير. وهاء ﴿فِيهِ﴾ إما أن تعود على الهيئة وهي الصورة بمعنى المهيأ ، أو تعود على المخلوق لدلالة : أخلق عليه ، أو تعود على الكاف في : كهيئة الطير ؛ لأنها بمعنى «مثل».

﴿وَمُصَدِّقاً﴾ منصوب على الحال من تاء ﴿جِئْتُكُمْ﴾ أي جئتكم مصدقا.

البلاغة :

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ كناية عن الجماع ، مثل الكناية عنه بالحرث واللباس والمباشرة.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يوجد طباق بين لفظي ﴿لِأُحِلَّ﴾ و ﴿حُرِّمَ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ المراد بها عيسى ، وسمي بالكلمة لأنه وجد بكلمة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

﴿الْمَسِيحُ﴾ لفظ معرب من العبرانية ، وأصله : مشيحا ؛ لأنه مسح بالبركة أو بالدهن الذي يمسح به الأنبياء ، وهو دهن طيب الرائحة. وعيسى : معرب يسوع بالعبرانية.

﴿وَجِيهاً﴾ ذا جاه وكرامة في الدارين ﴿فِي الدُّنْيا﴾ بالنبوة ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالشفاعة والدرجات العلا ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ مقر الصبي حين الرضاع ﴿وَكَهْلاً﴾ الكهل : الرجل التام السوي ، وهو من بلغ الأربعين فأكثر ﴿قَضى﴾ أراد شيئا ﴿الْكِتابَ﴾ الكتابة والخط ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ العلم النافع وهو الذي يبصّر الإنسان بفقه الأحكام وسر التشريع.

﴿وَالتَّوْراةَ﴾ كتاب موسى ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ كتاب عيسى الذي أوحي إليه به.

﴿أَنِّي أَخْلُقُ﴾ أصور ، والخلق : التصوير والتكوين على مقدار معين ، لا الإنشاء والاختراع ﴿كَهَيْئَةِ﴾ مثل صورة الطير ﴿الْأَكْمَهَ﴾ : من ولد أعمى ﴿الْأَبْرَصَ﴾ : الذي به برص أي بياض في الجلد يتطير به ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ بإرادته.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصة زكريا ويحيى أقارب عيسى ، وذكر قصة أمه ، ناسب أن يذكر قصة عيسى وكيفية ولادته.

التفسير والبيان :

اذكر يا محمد لقومك وقت أن قال جبريل من الملائكة : إن الله يبشرك يا مريم بعيسى الموصوف بالكلمة على معنى : نبشرك بمكون منه أو بموجود من الله ، إيذانا بأنه خلق خلقا غير عادي ، استحق أن يوصف بهذه الصفة ، وإن كان في الواقع أن جميع الكائنات وجدت بكلمة الله كما ذكر عقب خلق عيسى بقوله : ﴿إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ وذكر في مكان آخر : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس ٣٦ / ٨٢] لكن في العرف تنسب الأشياء الأخرى إلى الأسباب العادية ، وأطلق اسم الكلمة على عيسى مجازا كما قال تعالى : ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ﴾ [النساء ٤ / ١٧١].

والمراد من الملائكة هنا جبريل ، لقوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا ، فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا﴾ [مريم ١٩ / ١٧] وذكر بلفظ الجمع ؛ لأنه رئيسهم.

اسمه المسيح الذي جاء لرفع الظلم وهداية الناس وإشاعة الأخوة الصادقة فيما بينهم ، وكانت مملكته روحانية لا جسدية. والمسيح : لقب الملك عندهم ، فهو من ألقاب المدح. وقال القرطبي : معناه الصدّيق.

وإنما قيل : ابن مريم ، مع أن الخطاب لها ، إشارة إلى أنه ينسب لها ، لولادته من غير أب ، وليظل هذا الوصف ثابتا مقررا في الأذهان في كل زمان ،

وردا على من ألّهه ، وبيانا لمكانتها وتكريما لها.

وهو ذو وجاهة في الدنيا لما له من مكانة عند أتباعه والمؤمنين ، وفي الآخرة بين الناس ، ومن المقربين إلى الله يوم القيامة.

ويمتاز أيضا بأنه يكلم الناس وهو رضيع في المهد ، وفي حال الكهولة وتمام الرجولة ، كلاما متزنا معقولا. وهذا يشير إلى أنه سيكون رجلا سويا. قال ابن عباس : كان كلامه في المهد لحظة بما قصة الله علينا ، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام. وكانت العادة أن من تكلم في المهد لم يعش.

وهو كذلك من الصالحين الذين أنعم الله عليهم بالنبوة والاستقامة وصلاح الحال. ولما بشرت مريم بعيسى المتصف بما ذكر ، قالت متعجبة : كيف يكون لي ولد ، وليس لي زوج؟ فأجابها الله : مثل هذا الخلق المتعجب منه وهو خلق الولد بغير أب ، يخلق الله ما شاء ، فخلق السماء والأرض ، وخلق آدم من تراب بلا أب ولا أم ، وخلق جميع الموجودات في الأصل من غير سبب ظاهر.

وسبب التعبير في قصة زكريا وابنه يحيى بقوله تعالى : ﴿كَذلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾ وفي قصة خلق عيسى بقوله : ﴿كَذلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ : هو أن إيجاد يحيى من شيخين عجوزين كإيجاد سائر الناس في العادة ، فعبر عنه بالفعل ، وأما إيجاد عيسى فهو من أم بلا أب ، خلافا للمعتاد في التوالد ، بل بمحض القدرة الإلهية ، وهو أبلغ من إيجاد يحيى ، فناسب التعبير عنه بالخلق والإيجاد والإبداع ، لكونه من غير سبب عادي.

ثم أعقبه بما يناسبه ويؤكده فقال : إذا أراد شيئا قال له : كن فيكون ، والمراد بالأمر هنا الأمر التكويني ، لا الأمر التكليفي في مثل قوله تعالى : ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وهذا تبيان لعظمة الله ، ونفاذ أمره ومشيئته ، وسرعة إنجاز مطلوبه ، تقريبا للأذهان ، وإلا فالإيجاد أسرع مما هو قائم بين حرفي

﴿كُنْ﴾. وهو يشبه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ ، فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ : ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قالَتا : أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ [فصلت ٤١ / ١١].

وهناك خلق آخر أعظم من خلق عيسى وهو خلق آدم من غير أب ولا أم : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران ٣ / ٥٩].

فهذه الأحوال في الخلق على نحو غير عادي دليل على قدرة الله المطلقة ، وإرادة تكميل الكون بعجائب المخلوقات.

ومن أوصاف عيسى : أن الله يعلمه الكتابة والخط ، والعلم النافع الذي يبعث النفس إلى تنفيذ الفعل ويرشد إلى أسرار الأحكام ، ويعرفه التوراة التي أنزلت على موسى ، والإنجيل الذي أوحي إليه.

وأنه رسول مرسل إلى بني إسرائيل ، مؤيد بآيات تدل على صدق رسالته وهي :

١ ـ أنه يصور من الطين صورة على قدر معين كصورة الطير ، لا ينشئ ويخترع من الطين هيئة جديدة ، فينفخ فيه ، فيكون طيرا بقدرة الله ومشيئته ، لا بقدرته وأمره ، فإنه مخلوق لا يقدر على هذا.

روي أنهم طالبوه بخلق خفّاش ، فأخذ طينا وصوره ونفخ فيه ، فإذا هو يطير ، وهم ينظرونه ، فإذا غاب عن أعينهم ، سقط ميتا ، ليتميز فعل المخلوق من فعل الخالق وهو الله تعالى ، وليعلم أن الكمال لله. قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عن أعينهم ، سقط ميتا ، ليتميز من خلق الله.

٢ ، ٣ ـ ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله : وتخصيصهما بالذكر ؛ لأن مداواتهما أعيت الأطباء ، علما بأن الطب كان متقدما في زمن عيسى ، فأراهم

الله المعجزة من جنس الطب. قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب في مصر على زمان موسى عليه‌السلام السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار ، وحيرت كل سحّار ، فلما استيقنوا أنها من عند الله العظيم الجبار ، انقادوا للإسلام ، وصاروا من عباد الله الأبرار. وأما عيسى عليه‌السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه ، إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو في قبره. وقد أحيا صديقا له اسمه عازر ، وابن العجوز ، وابن العاشر ، فعاشوا وولد لهم ، وأحيا سام بن نوح ومات في الحال.

وكذلك محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتحليق الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله عزوجل ، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله ، لم يستطيعوا أبدا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وما ذاك إلا أن كلام الرب عزوجل لا يشبه كلام الخلق أبدا.

٤ ـ وأخبركم بما تأكلونه ، وما تخبئونه وتحفظونه للمستقبل في بيوتكم.

والفرق بين إخبار النبي بالمغيباب وإخبار المنجمين والكهنة : أن النبي يخبر بإعلام الله من غير اعتماد على شيء آخر ، أما الكاهن والمنجم فيعتمد على طرق الاحتيال واستخدام بعض الأسباب المؤدية إلى معرفته كالنجوم والجن وبعض الإنس.

إن في ذلك لدليلا قاطعا على صدق رسالتي ، إن كنتم مصدقين بآيات الله الباهرة ، مقرين بتوحيده وبقدرته الكاملة على كل شيء.

٥ ـ وجئتكم مصدقا لما تقدم من التوراة ، لا ناسخا لها ، ولا مخالفا أحكامها إلا ما خفف الله في الإنجيل مما كان مشددا عليهم فيها ، كما قال تعالى : ﴿وَلِأُحِلَ

﴿لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي بعض الطيبات التي كانت محرمة على بني إسرائيل بظلمهم ، كما قال تعالى : ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء ٤ / ١٦٠] قيل : من ذلك : السمك ولحوم الإبل والشحوم والعمل يوم السبت.

وما عدا ذلك جئت متفقا مع التوراة في أصول الدين كالتوحيد والبعث وفضائل الأخلاق ، جاء في الإنجيل على لسان عيسى عليه‌السلام : «ما جئت لأنقض الناموس ـ أي شريعة التوراة ـ ولكن لأكمله».

٦ ـ وجئتكم بآية بعد آية من ربكم شاهدة على صدقي وصحة رسالتي. كرر ذلك للتأكيد وليبني عليه الأمر بالتقوى. وقد وحد الآية وهي آيات ؛ لأنها جنس واحد في الدلالة على رسالته.

فاتقوا الله في المخالفة ، وأطيعوا فيما أدعوكم إليه وهو توحيد الإله : إن الله ربي وربكم ، فاعبدوه ، وهذا هو الطريق السوي الذي اتفقت عليه الرسل قاطبة ، وهو المؤدي إلى خيري الدنيا والآخرة ، فمن تعدى ذلك فهو في ضلال.

ففي هذا تلخيص لمهمة الرسالة وهي الأمر بالتقوى وإطاعة الله ، والإقرار بالتوحيد : توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، والاعتراف بالعبودية والخضوع لله ، وهو منهج الحق المبين في مريم وابنها.

وهذا موجود في الإنجيل ؛ لأن فيه : إني ذاهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم. والأب : السيد في تلك اللغة ، بدليل أنه قال : وأبي وأبيكم ، فعلم أنه لم يرد به الأبوة المقتضية للبنوة.

فقه الحياة أو الأحكام :

ذكرت الآيات بشارة الملائكة لمريم عليها‌السلام بأنه سيوجد منها ولد

عظيم ، له شأن كبير ، يكون وجوده بكلمة من الله أي يقول له : كن فيكون ، واسمه المسيح مشهور في الدنيا يعرفه المؤمنون ، وله وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة وينزله عليه من الكتاب والحكمة ، وله وجاهة في الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه ، فيقبل منه أسوة بإخوانه أولي العزم من الرسل عليهم‌السلام .

ويدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره ، وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه ، وهو صالح القول والعمل. روى محمد بن إسحاق عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «ما تكلم أحد في صغره إلا عيسى وصاحب جريج». وروى مسلم وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : «لم يتكلم في المهد إلا ثلاث : عيسى ، وصبي كان في زمن جريج ، وصبي آخر».

وهذا حصر نسبي في وقت ما ، ثم أخبر الله نبيه في وقت آخر بآخرين ، ومجموعهم سبعة : شاهد يوسف ، وصبي ماشطة امرأة فرعون ، وعيسى ، ويحيى ، وصاحب جريج ، وصاحب الجبار ، وصبي قصة الأخدود : وهو ـ كما في مسلم وغيره ـ أن امرأة جيء بها لتلقى في النار على إيمانها ومعها صبي يرضع ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال الغلام : يا أمّه ، اصبري ، فإنك على الحق.

ودل قوله تعالى : (كَذلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ) على أن أمر الله عظيم لا يعجزه شيء. وأكده بقوله : (إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ) فلا يتأخر شيئا ، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة ، كقوله : (وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) [القمر ٥٤ / ٥٠]. أي إنما نأمر مرة واحدة دون تكرار ولا تثنية ، فيكون ذلك الشيء سريعا كلمح البصر.

ودلت الآيات على خصائص عيسى عليه‌السلام وما أيده الله به من معجزات

خارقة للعادة ، وهي كلها من صنع الله مباشرة ، ومعناها سنة جديدة بخلاف كل ما نراه يوميا من عظة وعظمة.

وكان عيسى أحد الرسل إلى بني إسرائيل. روي أن الوحي أتاه وهو ابن ثلاثين سنة ، وكانت نبوته ثلاث سنين ، ثم رفع إلى السماء.

ولا تختلف دعوة عيسى عن دعوات سائر الأنبياء ، كما أوضحت هذه الآيات ، فهو يدعو إلى تقوى الله وطاعته فيما جاء به عنه ، ويأمر بالتوحيد والاعتراف بالعبودية لله ، وذلك هو الصراط المستقيم أي أقرب طريق موصل إلى الله تعالى.

عيسى مع قومه المؤمنين والكفار

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (٥٤) إِذْ قالَ اللهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)﴾

الإعراب :

﴿إِذْ قَالَ اللهُ﴾ إذ : تتعلق بفعل مقدر ، تقديره : اذكر أني متوفيك ورافعك إليّ ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه وجهان : إما أنه معطوف على ما قبله ، وهو خطاب للنبي ﷺ وما قبله خطاب لعيسى ، وإما أنه معطوف على ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ وكلاهما لعيسى.

﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ حال من الهاء في ﴿نَتْلُوهُ﴾ وعامله ما في ذلك من معنى الإشارة.

البلاغة :

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾ استعارة ، إذ الكفر ليس بمحسوس وإنما يعلم ويفطن به.

﴿وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ من باب المشاكلة. ويوجد جناس اشتقاق بين ﴿مَكَرُوا﴾ و ﴿الْمَاكِرِينَ﴾.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ فيه التفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة ، تنويعا للفصاحة.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب.

المفردات اللغوية :

﴿أَحَسَّ﴾ علم علما لا شبهة فيه ، كعلم ما يدرك بالحواس. واستعمالها في إدراك الأمور المعنوية مجاز ﴿مَنْ أَنْصَارِي﴾ أعواني ﴿إِلَى اللهِ﴾ أي مع الله ، فإلى بمعنى مع ، أو من أعواني في السبيل إلى الله ؛ لأنه دعاهم إلى الله عزوجل ، أو من يضم نصرته إلى نصرة الله عزوجل.

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ : واحدهم حواري ، وحواري الرجل : صفيّه وناصره ، فالحواريون : هم أصحاب عيسى وأنصاره وأصفياؤه. والحور : البياض الخالص ، وصفوا به لبياض قلوبهم وصفاء سريرتهم (١). ورد في الصحيحين : «لكل نبي حواري ، وحواريّ الزبير».

﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ أعوان دينه ، وهم أول من آمن به ، وكانوا اثني عشر رجلا.

﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ منقادون لما تريده منا ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق.

---

(١) وقيل : كانوا قصارين يحورون الثياب ، أي : يبيضونها.

﴿وَمَكَرُوا﴾ المكر: تدبير خفي يفضي بالممكور به إلى ما لم يكن يحتسب، وغلب استعماله في التدبير السيء. ﴿وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾ أعلمهم به وأعرفهم بالتدابير، وهو المجازي على المكر. وكان مكر كفار بني إسرائيل بعيسى: أن وكلوا به من يقتله غيلة، ولكن الله ألقى شبه عيسى على من قصد قتله، فقتلوه، ورفع عيسى إلى السماء.

﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ التوفي: أخذ الشيء وافيا تاما، ثم استعمل بمعنى الإماتة، كما قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾ [الزمر ٣٩ / ٤٢] فمعنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ قابضك. ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ من الدنيا من غير موت، فإذا كان عيسى حيا حين الرفع كان في الآية تقديم وتأخير، وتقديره: أني رافعك إليّ ومتوفيك، والواو لا تدل على الترتيب. وقيل: معنى: إني متوفيك: قابضك ورافعك إلي، أي إلى كرامتي.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مبعدك، وتطهيره من الذين كفروا: براءته مما كانوا يزمونه به بتهمة أمه بالزنا. ﴿وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ صدقوا بنبوتك من المسلمين والنصارى ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وهم اليهود، والفوقية بمعنى العلو عليهم بالحجة والسيف. ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يشمل المسيح والمختلفين معه والاختلاف بين أتباعه والكافرين به.

﴿عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا﴾ بالقتل والسبي والجزية ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالنار ﴿ناصِرِينَ﴾ مانعين منه ﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي يعاقبهم ﴿ذلِكَ﴾ المذكور من أمر عيسى ﴿نَتْلُوهُ﴾ نقصه ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ المحكم أي القرآن.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٨):

أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال: أتى رسول الله ﷺ راهبا نجران، فقال أحدهما: من أبو عيسى؟ وكان رسول الله ﷺ لا يعجل حتى يؤامر ربه، فنزل عليه ﴿ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾. وسيأتي بيان روايات أخرى في بيان سبب نزول آية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ إلى قوله ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى معجزات وخصائص عيسى عليه السلام، ذكر هنا

قصته مع قومه ، حيث دعاهم للإيمان ، فآمن به بعضهم ، وأعرض الآخرون ، وما لقيه منهم من إيذاء وعزم على قتله ، وإنجائه منهم برفعه إليه ، وإنذار الكافرين بالعذاب الشديد ، ومجازاة المؤمنين الذين عملوا الصالحات. وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ وبيان أن الأدلة وحدها لا تؤدي إلى الإيمان ، وإنما لا بد من هداية الله وتوفيقه.

التفسير والبيان :

لما شعر عيسى من قومه بني إسرائيل بالتصميم على الكفر ، والاستمرار على الضلال ، وتحقق من ذلك ، أراد التعرف صراحة عن المؤمنين بدعوته ، فقال : من يتبعني إلى الله ، ومن ينصرني ملتجئا إلى الله؟ والظاهر أنه يريد : من أنصاري في الدعوة إلى الله ، كما كان النبي ﷺ يقول في مراسم الحج قبل أن يهاجر : «من رجل يؤويني حتى أبلّغ كلام ربي ، فإن قريشا قد منعوني أن أبلّغ كلام ربي؟» فوجد الأنصار ، فآووه ونصروه وهاجر إليهم ، فواسوه ومنعوه من الأعداء.

وهكذا عيسى انتدب طائفة من بني إسرائيل لنصرته ، فآمنوا به وآزروه ونصروه ، كما جاء في آية أخرى : «﴿كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ : مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ؟﴾ [الصف ٦١ / ١٤].

قال الحواريون أي الأنصار : نحن أنصار دين الله وجنوده المخلصون المؤيدون دعوتك ، آمنا بوجود الله وبوحدانيته إيمانا صادقا ، واشهد بأنا مسلمون ، أي خاضعون منقادون لأوامره ، وجوهر الإسلام متفق عليه بين كل الأديان.

ثم تضرعوا إلى الله قائلين : ربنا آمنا وصدقنا بما أنزلت في كتابك واتبعنا الرسول عيسى ابن مريم ، فاكتبنا مع الشاهدين الذين يشهدون لأنبيائك

بالصدق. وذكر الاتباع في قولهم دليل على صحة الإيمان ، لأن الإيمان يقتضي العمل.

ثم أخبر الله تعالى عن مؤامرة جماعة من بني إسرائيل على قتل عيسى ، فوشوا به إلى ملك ذلك الزمان ، وكان كافرا : أن هنا رجلا يضل الناس ، ويصدهم عن طاعة الملك ، ويفسد الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه ، وهذا هو مكرهم بتوكيل من يقتله غيلة ، فأبطل الله مكرهم وأفسد تدابيرهم ، إذ بعث الملك في طلبه لأخذه وصلبه والتنكيل به ، فلما أحاطوا بمنزله ، وظنوا أنهم قد ظفروا به ، بإلقاء شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل ، نجّاه الله تعالى من بينهم ، ورفعه إلى السماء.

والله خير المدبرين ، وأنفذهم خطة ، وأحكمهم وأقواهم صنعا ، وأقدرهم على إضرارهم ، وإتمام حكمته ، وإنفاذ مشيئته ، وتركهم في ضلالهم يعمهون : يعتقدون أنهم قد ظفروا بمطلبهم ، وحققوا مأربهم.

وقال أبو حيان : معناه : أي المجازين أهل الخير بالفضل وأهل الجور بالعدل ؛ لأنه فاعل حق في ذلك ، والماكر من البشر فاعل باطل في الأغلب [1].

ثم ذكر الله رفع عيسى إلى السماء مخاطبا نبيه محمدا ﷺ وقائلا : اذكر يا محمد حين قال الله لعيسى : إني موفيك أجلك كاملا ، ورافعك إلي ، وهذه بشارة له بنجاته من كيدهم وتدبيرهم.

وللمفسرين رأيان في تأويل هذه الآية :

١ ـ إن في الآية تقديما وتأخيرا : والتقدير : إني رافعك إلي ومطهرك من

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٤٧٢

الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء ، أي أنه رفعه إلى السماء حيا بجسمه وروحه ، وسينزل في آخر الزمان ، فيحكم بشريعة الإسلام ، ثم يميته الله. وهذا ما دلت عليه الأحاديث النبوية الصحيحة ، قال رسول الله ﷺ : «إن عيسى لم يمت ، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة».

٢ ـ التوفي : الإماتة العادية ، والرفع : رفع الروح والمكانة ، لا المكان ، كما قال تعالى في شأن إدريس عليه‌السلام : ﴿وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا﴾ [مريم ١٩ / ٥٧] وقال في شأن المؤمنين : ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر ٥٤ / ٥٥] ويكون المعنى : إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان علي رفيع.

ويؤيد التأويل الأول أكثر العلماء ، وقال بعضهم وهو الربيع بن أنس : المراد بالوفاة هاهنا : النوم ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام ٦ / ٦٠] وقال : ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها ، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها﴾ [الزمر ٣٩ / ٤٢] وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم : «الحمد لله الذي أحيانا ، بعد ما أماتنا». وقال القرطبي : والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم ، وهو اختيار الطبري ، وهو الصحيح عن ابن عباس.

وذكر الله تعالى قصة صلب عيسى ورفعه في آيات أخرى هي : ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ ، وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ ، وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ ، وَما قَتَلُوهُ يَقِيناً. بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ، وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً. وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ [النساء ٤ / ١٥٦ ـ ١٥٩]. والضمير في قوله ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ عائد على عيسى عليه‌السلام ، أي : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن

بعيسى ، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم ؛ لأنه يضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام.

ثم أبان الله تعالى بعض وجوه أخرى من إكرام عيسى عليه السلام ، فقال : وجاعل الذين آمنوا بأنه عبد الله ورسوله ، وصدقوه في قوله ، واتبعوا دينه فوق الذين كفروا أي أعلى منهم ، وهي إما فوقية روحانية : وهي فضلهم عليهم في حسن الأخلاق ، وكمال الآداب ، والقرب من الحق ، والبعد عن الباطل ، وإما فوقية دنيوية وهي كونهم أصحاب السيادة عليهم ، وليس ذلك أمرا مطردا دائما في كل وقت ، مما يرجح كون الفوقية روحانية ومعنوية وأدبية.

هذه الفوقية في صحة العقيدة وسمو الآداب والأخلاق وقوة الحجة وعلو القدر تدوم لأهل الإيمان إلى يوم القيامة.

ثم مصيركم جميعا إلى يوم البعث ، فأحكم بينكم فيما اختلفتم فيه من أمور الدين.

ثم بيّن الله جزاء المحق والمبطل : فأما الذين كفروا بعيسى وكذبوه وهم اليهود فلهم عذاب في الدنيا بذنوبهم بالإذلال والقتل والأسر وتسليط الأمم عليهم ، وعذاب في الآخرة بنار جهنم ، وما لهم في الآخرة من نصير ولا معين.

وأما الذين آمنوا بعيسى وصدقوا بنبوته وبما جاء به من عند الله ، وعملوا صالحا بتنفيذ الأوامر وترك النواهي ، فيعطيهم الله أجورهم كاملة غير منقوصة.

ثم أكد تعالى جزاء الكافرين فقال : والله لا يحب الظالمين أي يعاقبهم ويجازيهم بما يستحقون ، أو لا يريد ظلم الظالمين.

هذه الأخبار عن عيسى نتلوها عليك يا محمد ، وهي من الأدلة الواضحة الدالة على صدق نبوتك ، وهي من القرآن الحكيم الذي يبين وجوه العبرة والحكمة

والعظة في الأخبار والأحكام ، فيهتدي المؤمنون بها إلى الحق ومعرفة سر الشريعة وجوهر الدين. وشبيه ذلك قوله تعالى : ﴿ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ ، إِذا قَضى أَمْراً ، فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم ١٩ / ٣٤ ـ ٣٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

أصحاب الدعوات الإصلاحية وعلى رأسهم الأنبياء يتعرضون بسبب دعوتهم إلى مختلف أنواع الأذى والطرد ومحاولة الاغتيال. ولكن اقتضت الحكمة الإلهية ألا ينضب الخير والفلاح بين الناس ، فيهيّئ أناسا يؤازرون المصلحين ، ويحتاج القائد إلى أن يتعرف على أتباعه وأنصاره المخلصين ، كما فعل عيسى عليه‌السلام بالتعرف على الحواريين ، ليعتمد عليهم وقت الشدة والأزمة ، ويساعدونه في تحمل عبء الدعوة إلى الله ، وهذا هو المراد بقوله : ﴿مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ﴾.

ولما أخرج بنو إسرائيل عيسى وأمه من بين أظهرهم ، عاد إليهم مع الحواريين ، وصاح فيهم بالدعوة ، فهموا بقتله ، وتواطؤوا على الفتك به ، فذلك مكرهم. ومكر الله في رأي الفراء : استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون ، وفي رأي الزجاج : مكر الله : مجازاتهم على مكرهم ، فسمى الجزاء باسم الابتداء ، كقوله : ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَهُوَ خادِعُهُمْ﴾ وهذا على طريق المشاكلة ، وهو الرأي المشهور بين العلماء : رأي الجمهور.

والصحيح لدى المحققين من العلماء أن الله رفع عيسى عليه‌السلام إلى السماء من غير وفاة ولا نوم. وسينزل في آخر الزمان. جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : «والله لينزلن ابن مريم حكما عادلا ، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركنّ القلاص [1] ،

(١) القلاص : جمع قلوص وهي الناقة الشابة.

فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعونّ إلى المال ، فلا يقبله أحد».

وأما تطهيره من الذين كفروا : فهو إنجاؤه مما كانوا يرمونه به ، أو يرومونه منه ، ويريدونه به من الشر.

وأما قوله ﴿وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ ففيه رأيان : قال الضحاك ومحمد بن أبان : المراد الحواريون. وقال آخرون : الخطاب لمحمد ﷺ ، والفوقية : بالحجة وإقامة البرهان ، وقيل : بالعز والغلبة. والتفوق بالحجة على صحة دين الإسلام بالمعنى العام الذي يتفق عليه جميع الأنبياء وأتباع عيسى وموسى وغيرهم من أتباع محمد صلوات الله وسلامه عليهم : هو الأولى ، مثل آية : ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ..﴾ [النور ٢٤ / ٥٥].

وجزاء الكافرين : النار في الآخرة ، والقتل والصلب والسبي والإذلال في الدنيا. وجزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات : السعادة والاطمئنان في الدنيا ، والجنة في الآخرة ، فهي سعادة في الدارين.

الرّدّ على من زعم ألوهية عيسى والمباهلة

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)﴾

الإعراب :

﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ﴾ جملة مفسّرة للمثل ، وهي موضع رفع خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قيل: ما المثل؟ فقال : خلقه من تراب ، أي المثل خلقه من تراب. ولا يجوز أن يكون وصفا لآدم ؛ لأن آدم معرفة ، والجملة لا تكون إلا نكرة ، والمعرفة لا توصف بالنكرة. ولا يجوز أيضا أن يكون حالا ؛ لأن ﴿خَلَقَهُ﴾ فعل ماض ، والفعل الماضي لا يكون حالا.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الحق : خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذا الحقّ من ربّك ، أو هو الحقّ ، أي أمر عيسى.

﴿وَما مِنْ إِلهٍ﴾ من : زائدة للتوكيد.

البلاغة :

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أتى بوصف الربوبية وأضافه إلى الرّسول عليه الصلاة والسلام لتشريفه.

﴿فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ هذا من باب الإثارة والإلهاب ، لزيادة التّثبيت.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى﴾ المثل : الشأن الغريب والحال المدهشة. ﴿عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ أي كشأنه في خلقه من غير أم ولا أب ، وهو من تشبيه الغريب بالأغرب ، ليكون أوقع في النفس وأقطع لقول الخصم.

والمراد أنّ شبه عيسى وصفته في خلق الله إياه على غير مثال سبق ، كشأن آدم في ذلك ، ثم فسّر هذا المثل بقوله : ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ﴾ أي خلق قالبه وقدر أوضاعه وكون جسمه من تراب ميّت أصابه الماء ، فكان طينا لازبا لزجا. ثم قال له : كن بشرا ، فكان ، وكذلك عيسى قال له : كن من غير أب فكان.

﴿فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين فيه ، الامتراء : الشّك. ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ جادلك من النصارى. ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ نتضرّع في الدّعاء ، وابتهل القوم : تلاعنوا ، والبهلة : اللعنة. ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ﴾ بأن نقول : اللهمّ العن الكاذب في شأن عيسى. وقد دعا ﷺ وفد نجران لذلك ، لما حاجوه به ، فقالوا : حتى ننظر في أمرنا ، ثم نأتيك ، فقال ذو رأيهم ـ مستشارهم ، واسمه «العاقب» : «لقد عرفتم نبوّته ، وأنه ما باهل قوم نبيّا إلا هلكوا» ، فودّعوا الرجل وانصرفوا ، فأتوا الرّسول ﷺ ، وقد خرج ، ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلي ، وقال لهم : إذا دعوت ، فأمّنوا ، فأبوا أن يلاعنوا وصالحوه على الجزية. رواه نعيم.

﴿الْقَصَصُ﴾ الخبر. ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا شكّ فيه. ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي ذو العزّة الذي لا يغالبه أحد في ملكه. ﴿الْحَكِيمُ﴾ ذو الحكمة الذي لا يساميه أحد في صنعه.

سبب النزول :

قال المفسّرون : إن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ : مالك تشتم صاحبنا؟ قال : وما أقول؟ قالوا : تقول : إنه عبد ، قال : أجل ، إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنسانا قط من غير أب؟ فإن كنت صادقا فأرنا مثله ، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية (١).

المناسبة :

ذكر الله تعالى سابقا قصة عيسى وأمه ، وإيمان بعض قومه به ، وكفر بعض آخر ، وهنا ذكر حال فريق ثالث لم يكفر به ، ولم يؤمن به إيمانا صحيحا ، بل افتتن به افتتانا ، لكونه ولد من غير أب ، فزعم أن معنى كونه «كلمة الله وروح الله» : أنّ الله حلّ في أمه ، وأن كلمة الله تجسّدت فيه ، فصار إنسانا وإلها ذا طبيعة مزدوجة ، فردّ الله عليهم بأن خلق آدم أعجب من خلق عيسى.

التفسير والبيان :

إن صفة عيسى في قدرة الله حيث خلقه من غير أب كمثل آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم ، بل خلقه من تراب ، وقدره جسدا من طين ، ثم قال له : كن فيكون أي أنشأه بشرا بنفخ الروح فيه. شبّه الغريب بالأغرب منه ، والتشبيه واقع على أن عيسى خلق من غير أب كآدم ، لا على أنه خلق من تراب ، والشيء قد يشبّه بالشيء لاتّفاقهما في وصف واحد ، وإن اختلفا في أمور أخرى. فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى ،

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٤٧٧

وإن جاز ادّعاء النبوّة في عيسى ، لكونه مخلوقا من غير أب ، فجواز ادعائها في آدم بالطريق الأولى ، ومعلوم بالاتّفاق أن ذلك باطل ، فدعوى النبوّة في عيسى أشدّ بطلانا.

ولكن الله تعالى أراد أن يظهر قدرته للناس حين خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية البشر من ذكر وأنثى. ولهذا قال تعالى في سورة مريم : ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [٢١] ، وقال هنا : ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

هذا الذي أخبرتك به من شأن عيسى ومريم هو القول الحق ، لا ما اعتقده النصاري في المسيح من أنه إله ، ولا ما زعمه اليهود من رمي مريم بيوسف النّجار. فلا تشكنّ في أمرهما بعد أن جاءك العلم اليقيني به. وهذا النهي يثير في النّبي وأمّته ضرورة الاعتصام باليقين واطمئنان النفس إلى الخبر الإلهي. أي واظب على يقينك وطمأنينة نفسك إلى الحقّ والبعد عن الشّك فيه ، أو أن الخطاب للنّبي ﷺ والمراد أمته ، لأنه ﷺ لم يكن شاكّا في أمر عيسى عليه‌السلام .

فمن جادلك في شأن عيسى عليه‌السلام بعد معرفة الحقّ واليقين فادعهم إلى المباهلة أي الملاعنة: بأن نتباهل وندعو الله أن يلعن الكاذب ويطرده من رحمته. وهذه الآية تسمى آية المباهلة.

وقد ثبت أنّ النّبي ﷺ دعا نصارى نجران للمباهلة ، فأبوا. جاء في سيرة ابن إسحاق : أنه قدم سنة تسع على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكبا : فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم ، منهم : «العاقب» واسمه عبد المسيح ، وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه. ومنهم السيّد وهو الأيهم ، وكان عالمهم ، ومنهم أبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل ، وكان أسقفهم. فدخلوا بعد العصر

مسجد رسول الله ﷺ ، فصلوا صلاتهم إلى المشرق ، ثمّ كلّموا رسول الله ﷺ وقالوا عن عيسى : هو الله ، هو ولد الله ، هو ثالث ثلاثة ، فنزل القرآن للرّدّ عليهم.

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه : أنه جاء العاقب والسيّد صاحب نجران إلى رسول الله ﷺ يريد أن يلاعناه ، فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن كان نبيّا ، فلاعناه ، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. فقال : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلا أمينا ، ولا تبعث معنا إلا أمينا ، فقال : لأبعثنّ معكم رجلا أمينا حق أمين ، قم يا أبا عبيدة بن الجرّاح ، فلما قام قال رسول الله ﷺ : هذا أمين هذه الأمّة.

وروي أنّ النّبي ﷺ اختار للمباهلة عليّا وفاطمة وولديهما : الحسن والحسين ، وخرج بهم وقال : إن أنا دعوت ، فأمّنوا أنتم.

وبعد أن رفضوا المباهلة صالحوا النّبي ﷺ على الجزية : وهي دفع ألف حلّة في صفر ، وألف في رجب ودراهم.

وهذا يدلّ على قوة اليقين والثّقة بما يقول ، وعلى أن امتناعهم عن المباهلة فيه تقرير للخطر وكونهم على غير بيّنة فيما يعلنون ، فما أمكنهم الإقدام على المباهلة.

إن هذا الذي قصصته عليك في شأن عيسى هو القصص الحق الذي لا مرية فيه ولا جدال ، لا ما يدّعيه النصارى من كونه إلها أو ابن الله ، ولا ما يدّعيه اليهود من كونه ابن زنا. وسمّيت قصصا ؛ لأن المعاني تتابع فيها.

وليس هناك إله إلا الله العزيز الذي لا يغلبه أحد ، الحكيم : ذو الحكمة الذي يضع كل شيء في موضعه الصحيح المناسب له.

فإن أعرضوا بعد هذا عن اتّباعك وتصديقك ، ولم يعلنوا وحدانية الله ، ولم يجيبوا

إلى المباهلة ، فإن الله عليم (واسع العلم) بحال المفسدين ، وسيجازيهم على أعمالهم شرّ الجزاء. وكلّ من عدل عن الحقّ إلى الباطل فهو المفسد ، والله قادر عليه لا يفوته شيء.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن عجائب الخلق وخلق الكائنات وأمر الخليقة تدلّ على وجود الخالق وهو الله تعالى ، كما قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَيَوْمَ يَقُولُ : كُنْ فَيَكُونُ ، قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام ٦ / ٧٣]. ومن خلقه تعالى : خلق الناس على وفق قوانين عادية ، أو على غير العادة ، مثل خلق آدم ، وحواء ، وعيسى. وعقد الشّبه بين آدم وعيسى هو في أنهما خلقا من غير أب ، وذلك للرّدّ على وفد نجران الذين أنكروا على النّبي ﷺ قوله : إن عيسى عبد الله وكلمته ، فقالوا : أرنا عبدا خلق من غير أب؟! فقال لهم النّبي ﷺ : آدم ، من كان أبوه؟ أعجبتم من عيسى ليس له أب؟ فآدم عليه‌السلام ليس له أب ولا أم.

وآية المباهلة حدّ فاصل في الجدال ؛ لأن اللعنة محقّقة فيها على الكاذب. وهذه الآية من أعلام نبوّة محمد ﷺ ؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة ، فأبوا ورضوا بالجزية ، بعد أن أعلمهم كبيرهم : العاقب أنهم إن باهلوه اضطرم عليهم الوادي نارا ، فإن محمدا نبيّ مرسل ، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل في أمر عيسى ؛ فتركوا المباهلة ، وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدوا في كل عام ألف حلّة في صفر ، وألف حلّة في رجب ، فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك بدلا من الإسلام.

ودلّ قوله تعالى : ﴿نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ﴾ ، وقوله ﷺ في الحسن : «إنّ ابني هذا سيّد» (١) على خصوصية تسمية الحسن والحسين : ابني النّبي ﷺ دون غيرهما ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي» (٢).

---

(١) رواه أحمد والبخاري وأصحاب السنن إلا ابن ماجه عن أبي بكرة.

(٢) رواه الطبراني والحاكم والبيهقي عن عمر.

الدّعوة إلى توحيد الله وعبادته وملّة إبراهيم

﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾

الإعراب :

﴿سَواءٍ﴾ صفة لكلمة ، أي كلمة مستوية. ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ بدل مجرور من كلمة. ويجوز رفعه خبرا لمبتدأ محذوف وتقديره : هي ألا نعبد إلا الله ، أو جعله مبتدأ ، أي بيننا وبينكم ترك عبادة غير الله. ﴿ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ﴾ ها للتنبيه ، وأنتم : مبتدأ ، وهؤلاء : خبره. ﴿حاجَجْتُمْ﴾ جملة مستأنفة مبيّنة للجملة الأولى أي أنتم هؤلاء أنكم جادلتم ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ : خبر إن. ﴿وَهذَا﴾ عطف عليه. ﴿النَّبِيُّ﴾ صفة لهذا أو بدل منه أو عطف بيان.

البلاغة :

﴿كَلِمَةٍ﴾ مجاز إذ أطلق الواحد على الجمع. ﴿أَرْباباً﴾ فيه تشبيه طاعتهم لرؤساء الدّين في أمر التحليل بالرّب المستحق وحده للعبادة. ﴿أَوْلَى﴾ و ﴿أَوْلَى﴾ فيه جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ﴾ هم اليهود والنصارى. ﴿تَعالَوْا﴾ أقبلوا. ﴿سَواءٍ﴾ مستو أمرها بين الفريقين ، والسّواء : العدل والوسط الذي لا تختلف فيه الشرائع. ﴿أَرْباباً﴾ جمع ربّ : وهو السّيّد المربي المطاع فيما يأمر وينهى ، ويراد به هنا : ما له حق التشريع من تحريم وتحليل. أما الإله: فهو المعبود الذي يدعى حين الشدائد ويقصد عند الحاجة ؛ لأنه مصدر الفرج.

﴿مُسْلِمُونَ﴾ منقادون لله مخلصون له موحدون.

﴿تُحاجُّونَ﴾ تخاصمون وتجادلون. ﴿حَنِيفاً﴾ مائلا عن العقائد الزائفة الباطلة إلى الدّين الحق القيّم. ﴿مُسْلِماً﴾ موحّدا مخلصا مطيعا له.

﴿إِنَّ أَوْلَى﴾ أحق. ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ناصرهم وحافظهم.

سبب النزول :

نزول الآيات (٦٥ ـ ٦٧):

أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان إلا نصرانيا ، فأنزل الله : ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ﴾ الآية».

نزول الآية (٦٨):

سأل اليهود قائلين : والله يا محمد ، لقد علمت أنّا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، وإنه كان يهوديا ، وما بك إلا الحسد ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إنّ لكلّ نبيّ ولاة من النّبيين ، وإن وليي أبي وخليل ربي ، ثم قرأ : ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ، وَهذَا النَّبِيُّ﴾ الآية.

المناسبة :

أقام القرآن الحجة على النصارى في ادّعائهم ألوهية المسيح ، ثم دعا هنا اليهود والنصارى إلى أصل الدّين وروحه الذي اتّفقت عليه دعوة الأنبياء جميعا وهو توحيد الله وعبادته ، والاقتداء بإبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام ؛ إذ أن ملّته ملّة الإسلام ، ولم يكن يهوديا ولا نصرانيا.

التفسير والبيان :

قل يا محمد : يا أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى جميعا ، أقبلوا وهلمّوا إلى كلمة عادلة وسطى سواء بين الفريقين اتّفقت عليها جميع الشرائع والرّسل والكتب التي أنزلت إليهم ، فأمرت بها الصّحف والكتب الأربعة : التّوراة والزّبور والإنجيل والقرآن ، وهي كلمة التّوحيد : ﴿لا إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾ وعبادة الله وتفويض سلطة التشريع والتحليل والتحريم إليه ، وعدم الشرك به شيئا ، وعدم اتّخاذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، كالوثن والصليب والصنم والطاغوت والنار.

هذه الآية حوت وحدانية الألوهية في قوله : ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ﴾ ، ووحدانية الرّبوبية في قوله : ﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾.

وهذه دعوة جميع الرسل إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ، قال الله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ : لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٥] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل ١٦ / ٣٦].

وكان اليهود موحدين ، ولكن مفهوم الإله فيهم أصبح ليس هو الإله الحق ، واتبعوا رؤساء الدين فيما يخترعون من أحكام ، وكذلك كان النصارى موحدين وما زالوا يدعون الوحدانية ، لكنهم انتقلوا من ادعاء نبوة عيسى لله والتثليث إلى

ادعاء ألوهيته وأن الثلاثة واحد ، وهو عيسى ، ورفضت فرقة الإصلاح «البروتستانت» فكرة ألوهية عيسى.

روى عدي بن حاتم قال : «أتيت رسول الله ﷺ ، وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال : يا عدي ، اطرح عنك هذا الوثن ، وسمعته يقرأ في سورة براءة : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [٣١] فقلت له : يا رسول الله ، لم يكونوا يعبدونهم ، فقال : ما كانوا يحللون لكم ويحرّمون ، فتأخذون بأقوالهم؟ قال : نعم ، فقال عليه الصّلاة والسّلام : هو ذاك» ، وعلى هذا خوطب أهل الكتاب بهذا الخطاب ؛ لأنهم جعلوا أحبارهم في الطاعة لهم كالأرباب.

فإن أعرضوا عن هذه الدعوة أو التحكيم ، وأبوا إلا أن يعبدوا غير الله ، فقولوا لهم : إنا مسلمون حقا ، منقادون لله ، مخلصون له الدّين ، لا نعبد أحدا سواه ، ولا نطلب النّفع أو دفع الضّرر من غيره ، ولا نحلّ إلا ما أحلّه الله ، ولا نحرّم إلا ما حرّمه الله.

وهذه الآية هي جوهر رسائل النّبي ﷺ وكتبه إلى ملوك وأمراء العالم من أهل الكتاب وغيرهم ، مثل كسرى ملك الفرس الوثنيين ، وهرقل ملك الرّوم النصارى ، والنّجاشي النّصراني والمقوقس عظيم أقباط مصر وغيرهم. واشتملت كل تلك الكتب على هذه الآية ، وهنا أذكر كتابه إلى هرقل ، جاء في صحيح مسلم :

«بسم الله الرّحمن الرّحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الرّوم. سلام على من اتّبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فإن عليك إثم الأريسيين ـ أي الشعب من فلاحين وخدم وأتباع وغيرهم ، و ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾».

المحاجّة في انتماء إبراهيم :

أيها اليهود والنصارى ، لم تتنازعون في إبراهيم الخليل عليه السلام ويدّعي كل منكم أنه كان منكم على دينه؟ كيف تدّعون أيها اليهود أنه كان يهوديا ، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى؟ وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانيا ، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟

فما أنزلت التوراة على موسى ، ولا الإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم بأزمان طويلة ، قيل : كان بين إبراهيم وموسى سبعمائة سنة ، وبين موسى وعيسى حوالي ألف سنة.

لهذا قال تعالى : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ؟﴾ أن المتقدم على الشيء لا يكون تابعا له؟ وألا تعقلون ضعف حجّتكم وانهيارها وبطلان قولكم؟

ثم أشار الله تعالى إلى جهلهم وحماقتهم في دعواهم هذه ، فقال : ها أنتم هؤلاء تجادلون وتحاجّون فيما لكم به علم ومعرفة من أمر عيسى [1] عليه السلام مما نطق به التّوراة والإنجيل ، وقد قامت عليكم الحجّة وظهر الغلط ، فكيف تحاجّون ، وعلى أي أساس تجادلون في شأن إبراهيم عليه السلام أنه كان يهوديا أو نصرانيا ، وليس لكم به علم ولا نزل في شأنه شيء في دينكم وكتبكم ، فمن أين أتاكم أنه كان يهوديا أو نصرانيا؟ والله يعلم ما غاب عنكم ولم تشاهدوه ، وأنتم لا تعلمون إلا ما عرفتم وعاينتم وشاهدتم أو سمعتم؟

فهذا إنكار من الله عليهم مثل تلك الدّعاوى والمحاجّة في إبراهيم والمحاجّة فيما لا علم لهم به ، وأمرهم بردّ ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقيقتها.

---

(١) وقال القرطبي : يعني في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم كانوا يعلمونه من نعته في كتابهم.

ثم جاء القرار الإلهي الحاسم في شأن إبراهيم ، وهو أنه ما كان يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مائلا عن الشرك بالله والوثنية ، مسلما منقادا لله مطيعا لأوامره ، مجتنبا نواهيه ، فأهل دينه الذين هم على منهاجه وشريعته هم أهل الإسلام ، فهم الصادقون ، وأما اليهود والنصارى فهم الكاذبون.

وما كان أيضا من المشركين الذين يسمون أنفسهم الحنفاء ، ويدّعون أنهم على ملّة إبراهيم ، وهم قريش ومن تبعهم من العرب.

ثم أكّد تعالى ما سبق بقوله : إن أحقّ الناس بإبراهيم ونصرته هم المؤمنون بالله وحده لا شريك له ، المخلصون له الدّين ، وهذا النّبي محمد والذين آمنوا معه ، فهم أهل التوحيد المتفقون على وحدانية الله وألوهيته وربوبيته ، وهذا هو روح الإسلام ، والله ناصر المؤمنين ومؤيدهم ، وموفقهم ومتولي أمورهم ومصلح شؤونهم ، بإرسال الرّسل إليهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن إطاعة غير الله تعالى من الأحبار وعلماء الدّين في الأحكام الشرعية بالتحليل والتحريم يجعل الأحبار كالأرباب ، وهذا يقتضي تخصيص الطاعة لله تعالى.

وإن ملتقى الأديان هو الانصياع تحت راية التوحيد وهي كلمة «لا إله إلا الله» وعبادته وحده ، والاعتماد في التشريع على الله تعالى فهو مصدر الشرائع الحقّ. لذا خاطبهم القرآن بقوله : أجيبوا إلى ما دعيتم إليه ، وهو الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميل عن الحق ، وهي قوله تعالى : ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ﴾.

ودلّ قوله تعالى : ﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ على أنه لا يجوز اتّباع من سوى الله في تحليل شيء أو تحريمه ، إلا فيما حلله الله تعالى ،

وهو نظير قوله تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [التوبة ٩ / ٣١] ، معناه : أنهم أنزلوهم منزلة ربّهم في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرّمه الله ولم يحلّه الله.

وفي هذا حجّة على أنّ مسائل الدّين كالعبادات والتّحريم والتّحليل لا يؤخذ فيها إلا بقول النّبي المعصوم ، لا بقول إمام ولا فقيه ، وإلا كان إشراكا في الرّبوبية ، وهذا ما ندّد به القرآن في آيات مثل قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ [الشورى ٤٢ / ٢١] ، وقوله : ﴿وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ : هذا حَلالٌ ، وَهذا حَرامٌ﴾ [النحل ١٦ / ١١٦].

أما المسائل الدّنيوية كالقضاء والسياسة فهذه فوّض أمرها إلى أهل الحلّ والعقد وهم أهل الشورى ، فما أمروا به وجب تنفيذه وقبوله.

وإن أعرض أهل الكتاب عما دعوا إليه وهي الكلمة السواء نقول : نحن مسلمون أي متّصفون بدين الإسلام ، منقادون لأحكامه ، معترفون بما لله علينا في ذلك من النّعم ، غير متّخذين أحدا ربّا ، لا عيسى ولا عزيرا ولا الملائكة ؛ لأنهم بشر مثلنا ، ولا نقبل من الرّهبان شيئا بتحريمهم علينا ما لم يحرّمه الله علينا ، فنكون قد اتّخذناهم أربابا.

وأبين آية وحجّة على اليهود والنصارى الذين ادّعوا أن إبراهيم كان على دين كل منهم آية: ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ ...﴾ فهي تكذبهم بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعده ، وذلك قوله : ﴿وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ فكيف يكون إبراهيم منسوبا إلى ملّة حادثة بعده؟ هذا فضلا عن أن اليهودية ملّة محرّفة عن ملّة موسى عليه‌السلام ، والنّصرانية ملّة محرّفة عن شريعة عيسى عليه‌السلام .

ودلّت آية : ﴿ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ ...﴾ على المنع من الجدال لمن لا علم

له. أما الجدال لمن علم وأيقن ، والاحتجاج للحقّ فهو جائز ، لقوله تعالى : ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل ١٦ / ١٢٥] ، ومثاله : ما روي عن النّبي ﷺ أنه أتاه رجل أنكر ولده فقال: يا رسول الله ، إن امرأتي ولدت غلاما أسود. فقال رسول الله ﷺ : هل لك من إبل؟ قال: نعم ، قال : ما ألوانها؟ قال : حمر ، قال : هل فيها من أورق [1]؟ قال : نعم. قال : «فمن أين ذلك؟» قال : لعل عرقا نزعه ، فقال رسول الله ﷺ : «وهذا الغلام لعل عرقا نزعه» ودلّت هذه الآية على وجوب المحاجّة في الدّين وإقامة الحجّة على المبطلين ، كما احتجّ الله تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في أمر المسيح عليه‌السلام ، وأبطل بها شبهتهم.

وإبراهيم كان على الحنيفية الإسلامية ، ولم يكن مشركا ولا يهوديا ولا نصرانيا ، وأحقّ الناس بإبراهيم ونصرته : هم الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره وبعده ، وكانوا حنفاء مسلمين مثله غير مشركين ، وأيضا هذا النّبي محمد ﷺ والذين آمنوا معه ، فإنهم أهل التوحيد. والله ولي المؤمنين ، أي ناصرهم. أخرج الترمذي عن ابن مسعود أن النّبي ﷺ قال : «إن لكل نبيّ ولاة من النّبيين ، وإن وليي أبي وخليل ربّي ، ثم قرأ : ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُ﴾».

محاولة بعض أهل الكتاب إضلال المسلمين

والتلاعب بالدين والعصبية الدينية

﴿وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (٦٩)

---

(١) الأورق : الذي لونه بين السواد والغبرة.

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾

الإعراب :

﴿أَنْ يُؤْتى﴾ مفعول به لتؤمنوا ، وتقدير الكلام : ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم ، فتكون لام ﴿لِمَنْ﴾ على هذا زائدة وهو اختيار السيوطي ، ومن في موضع نصب لأنه استثناء منقطع. ويجوز أن تكون اللام غير زائدة ، ومتعلّقة بفعل مقدّر دلّ عليه الكلام ؛ لأن معناه : لا تقرّوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم ، فتتعلّق الباء واللام (بتقروا). والتأويل عند الزمخشري : ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم ، أي أسرّوا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم. وجملة ﴿قُلْ : إِنَّ الْهُدى ..﴾ اعتراضية. وقوله : ﴿أَوْ يُحاجُّوكُمْ﴾ عطف على ﴿أَنْ يُؤْتى﴾. والضمير في ﴿يُحاجُّوكُمْ﴾ عائد لكلمة ﴿أَحَدٌ﴾ لأنه في معنى الجمع.

البلاغة :

﴿الْحَقَ﴾ و ﴿بِالْباطِلِ﴾ بينهما طباق.

﴿يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ﴾ فيهما جناس تام.

المفردات اللغوية :

﴿وَدَّتْ﴾ أحبّت ورغبت. ﴿طائِفَةٌ﴾ جماعة وهم الأحبار والرؤساء. ﴿يُضِلُّونَكُمْ﴾

يوقعونكم في الضلال بالرّجوع عن دين الإسلام والمخالفة له ، والضلال : نوع من الهلاك.

﴿وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن إثم إضلالهم عليهم ، والمؤمنون لا يطيعونهم فيه.

﴿بِآياتِ اللهِ﴾ ما يدلّ على صدق نبوّة محمد ﷺ ، وهو القرآن المشتمل على نعته عليه الصلاة والسلام.

﴿تَلْبِسُونَ﴾ تخلطون الحقّ بالباطل ، بالتّحريف والتّزوير. ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَ﴾ أي نعت النّبي ﷺ.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق.

﴿وَجْهَ النَّهارِ﴾ أوله. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي المؤمنين. ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عن دينهم. ﴿وَلا تُؤْمِنُوا﴾ تصدقوا.

﴿قُلْ : إِنَّ الْهُدى هُدَى اللهِ﴾ الذي هو الإسلام ، والخطاب لمحمد ﷺ ، والجملة اعتراضية.

﴿إِنَ﴾ أي بأن ، وأن : مفعول تؤمنوا. ﴿مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ﴾ من الكتاب والحكمة والفضائل.

﴿أَوْ يُحاجُّوكُمْ﴾ أي بأن يحاجّوكم وهم المؤمنون ، أي يغلبوكم بالحجّة.

﴿الْفَضْلَ﴾ الزيادة ، والمراد به هنا النّبوة.

سبب النزول :

نزول الآية (٦٩):

نزلت في معاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان حين دعاهم اليهود إلى دينهم.

نزول الآية (٧٢):

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن الصيف ، وعدي بن زيد ، والحارث بن عوف بعضهم لبعض : تعالوا نؤمن بما أنزل الله على محمد وأصحابه غدوة ، ونكفر به عشية ، حتى نلبس عليهم دينهم ، لعلهم يصنعون كما نصنع ، فيرجعوا عن دينهم ، فأنزل الله فيهم : ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ﴾ إلى قوله : ﴿واسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السّدّي عن أبي مالك قال : كانت اليهود تقول أحبارهم للذين من دونهم : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم فأنزل الله : ﴿قُلْ : إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ﴾.

المناسبة :

ذكر الله تعالى سابقا موقفا لأهل الكتاب وهو الإعراض عن الحق ، وذكر هنا موقفا آخر وهو شدّة حرصهم على إضلال المؤمنين.

التفسير والبيان :

أحبّت طائفة من الأحبار والرؤساء إيقاع الضلال بين المسلمين ، بزرع الشّبهات ومحاولة كسب بعض المسلمين بإدخالهم في دينهم ، ولكنهم خائبون ، فهم لا يضلون إلا أنفسهم وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم ، إذ شغلوها بما لا يجدي ، بل بما يضرّ ، ويوقعهم في الإثم والمعصية ، وما يشعرون بذلك وما يفطنون إلى سوء حالهم ، وفي هذا نهاية الذّم والاحتقار لهم. والآية نظير قوله تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً ..﴾ [البقرة ٢ / ١٠٩].

يا أهل الكتاب (اليهود والنصارى) : لأي سبب تكفرون بالآيات الدّالة على صدق نبوّة محمد ﷺ ، وأنتم تشهدون بصحّتها ، بما جاء في كتبكم من نعته والبشارة به.

يا أهل الكتاب لم تخلطون الحقّ الذي جاء به الأنبياء بالباطل الكذب الذي لقّنه أحباركم ورؤساؤكم بتأويلاتهم الفاسدة ، وبإلقاء الشّبه ، والتّحريف والتّبديل ، وأنتم تكتمون شأن محمد ﷺ ، وهو مكتوب عندكم في التّوراة والإنجيل وهو البشارة بنبيّ من بني إسماعيل يعلّم الناس الكتاب والحكمة ، وأنتم تعلمون أنكم مخطئون مبطلون ، وتفعلون ذلك حسدا وعنادا.

ثمّ ذكر نوعا آخر من مكرهم وكيدهم : وهو أن طائفة منهم كما بان في سبب النزول المتقدم أظهروا الإسلام في أول النّهار فصلّوا مع المسلمين صلاة الصّبح ، ثم ارتدّوا عنه في آخره ، ليلبسوا على الضعفاء والجهلة من الناس أمر دينهم ، فيقولوا : إنما ردّهم إلى دينهم اطّلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ، ولهذا قالوا : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عنه. ولم يدروا أن من عرف الحقّ لم يرجع عنه ، سأل هرقل أبا سفيان عن شؤون محمد ﷺ : هل يرجع عنه من دخل في دينه؟ فقال أبو سفيان : لا.

ومن تتمة كلام اليهود أن قالوا لبعضهم زعما منهم أنّ النّبوة لا تكون إلا فيهم (١) : أسرّوا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم ، دون المسلمين ، لئلا يزيدهم ثباتا على دينهم ، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام ، أي أن المعنى كتم التصديق بأن للمسلمين من كتاب الله مثل أهل الكتاب. وقال ابن كثير : لا تطمئنوا أو تظهروا سرّكم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم ، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين ، فيؤمنوا به ويحتجّوا به عليكم ، فالمعنى حجب أسرارهم عن المسلمين.

ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أن المسلمين يحاجّونكم يوم القيامة بالحق ، ويغالبونكم عند الله تعالى بالحجّة. وقال ابن كثير في تفسير ذلك : لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلّموه منكم ، ويساووكم فيه ، ويمتازوا به عليكم لشدّة الإيمان به ، أو يتّخذوه حجّة عليكم بما في أيديكم ، فتقوم به عليكم الدّلالة ، وتترتب الحجة في الدّنيا والآخرة.

وتخلل ذلك جملة اعتراضية : وهي أن الهدى هدى الله ، فمن شاء الله هدايته

---

(١) قوله : وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ : من جملة قول اليهود ؛ لأنه معطوف على كلامهم ، وهو الظاهر ، قال ابن عطية : ولا خلاف في ذلك.

إلى الإيمان آمن بما أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البيّنات والدّلائل القاطعات والحجج الواضحات ، ولا يؤثر كيدكم وخبثكم وحيلكم وكتمكم شيئا ، فسواء أظهرتم الحق ، أم كتمتم أيها اليهود ما عندكم من صفة محمد النّبي الأميّ في كتبكم ، فلن يغيّر ذلك شيئا من نعمة الهداية الإلهية على أحد من الناس.

ثم ردّ الله على اليهود ردّا قاطعا لزعمهم أنّ النّبوة لا تكون إلّا فيهم فقال : إن الأمور كلها ومنها أمر النّبوة تحت تصرفه ، وليس إليكم ، وإنما بيد الله وحده ، فهو المعطي المانع ، يمنّ على من يشاء بالإيمان والعلم ، ويضلّ من يشاء فيعمي بصيرته وبصره ويختم على قلبه وسمعه ، وهو صاحب الفضل المطلق ، والخير كله بيده ، يؤتيه من يشاء من عباده ، يختصّ برحمته أي بالنّبوة من شاء ، ويختصّ المؤمنين بالفضل بما لا يحدّ ولا يوصف ، وفضله واسع عظيم ، ورحمته وسعت كل شيء ، فلا حدّ لها ، ولا حصر لآثارها ، ولا قصر للنّبوة على بني إسرائيل على حدّ زعمهم ، ولا لنسب أو شرف معين.

فقه الحياة أو الأحكام :

يحسد اليهود المؤمنين ويبغون إضلالهم ، ولكن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم ، وهم لا يشعرون. وهكذا يحلم الكفار قديما وحديثا بردّ المسلمين عن دينهم ، إلى دين اليهودية أو النصرانية ، أو أن يصبحوا من غير دين ، ولكنهم خابوا وخسروا ، وأثبتوا أنهم ضعاف العقول ، سفهاء الأحلام ؛ فإن العقيدة الإسلامية في قلب المسلم أثبت من رواسخ الجبال ، وهم لا يعلمون بصحّة الإسلام ، وواجب عليهم أن يعلموا ؛ لأن البراهين ظاهرة والحجج باهرة على وحدانية الله ، وعلى صحّة الشريعة ونضارتها وأصالتها ووفائها بالحاجات وسمّوها وتفضيلها على كلّ شرائع العالم قاطبة ؛ لأنها شرع الله ودينه.

ومن المستنكر عقلا وعادة أن يخلط أهل الكتاب الحقّ بالباطل ، أو يكتموا

الحقّ الأبلج ، وهم به عالمون.

ومحاولة التّدليس والخداع في إظهار أناس إيمانهم فترة ما ، للتضليل والتشكيك ، ثم العودة إلى الكفر هي محاولة صبيانية طائشة ، لا يغترّ بها إلا السّذّج أمثالهم ؛ لأن التلاعب بالدّين والإيمان ليس من سمة المخلصين ، ولأن الإيمان إذا وقر في القلب عن دليل وبرهان ، استحال نزعه وسلخه من صاحبه إلا بالموت أو القتل.

والنّبوات ليست قصرا على أمة من الأمم أو شعب من الشعوب ، وإنما يختص الله برحمته من يشاء ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو صاحب السلطان المطلق والأمر المبرم ، ينزّل الوحي أو الملائكة على من يشاء من عباده ، فليس لليهود أن يقولوا : إن النّبوات محصورة فيهم ، أو أن تفوق الحجة عند الله لهم ، فهم لا حجّة لهم ، والإسلام أصح من معتقداتهم ، والمسلمون أصحّ منهم دينا.

وإن الهدى إلى الخير والدلالة إلى الله عزّ وجلّ بيد الله جلّ ثناؤه ، يؤتيه أنبياءه ، فليس لأهل الكتاب أن ينكروا أن يؤتى أحد مثلما أوتوا ، فإن أنكروا يقال لهم : ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ﴾ فالأمور كلها تحت تصرف الله ، وهو المعطي المانع ، يمنّ على من يشاء بالإيمان والعلم والتّصرف التامّ ، ويضلّ من يشاء ، فيعمي بصره وبصيرته ، ويختم على قلبه وسمعه ، ويجعل على بصره غشاوة ، وله الحجّة التّامة والحكمة البالغة.

أداء الأمانة والوفاء بالعهد عند بعض أهل الكتاب

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ

إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾

الإعراب :

﴿بَلى﴾ إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين ، أي بلى عليهم سبيل فيهم. ﴿مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ﴾ جملة مستأنفة مقررة للجملة التي سدّت مسدها. والضمير في ﴿بِعَهْدِهِ﴾ راجع إلى ﴿مَنْ أَوْفى﴾. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى.

البلاغة :

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا﴾ أشار إليهم بالبعيد لازدياد غلوهم في الشّر والفساد.

﴿لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ مجاز بالحذف أي ليس علينا في أكل الأموال سبيل.

﴿يَشْتَرُونَ﴾ فيه استعارة ، استعار لفظ الشراء للاستبدال أي يستبدلون.

﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ مجاز عن شدّة الغضب والسخط الإلهي.

﴿وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم ، تقول : «فلان لا ينظر إلى فلان» أي لا يعتدّ به.

﴿وَلا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يحسن إليهم ولا يثني عليهم ، فهو مجاز عن معنى الإحسان.

يوجد جناس اشتقاق بين ﴿اتَّقى﴾ و ﴿الْمُتَّقِينَ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿تَأْمَنْهُ﴾ أي تأتمنه ، وهو من فعل أمنته. ﴿بِقِنْطارٍ﴾ المراد العدد الكثير ، وقيل : هو المعيار الذي يوزن به ، ومقداره عند أهل الشام مائة رطل ، والرطل كيلوان ونصف. ﴿بِدِينارٍ﴾ المراد العدد القليل. ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ أي العرب. ﴿سَبِيلٌ﴾ مؤاخذة وذنب أو تبعة. ﴿بَلى﴾

كلمة تقع جوابا عن نفي سابق ، لإثباته ، أي عليهم فيه سبيل. ﴿بِعَهْدِهِ﴾ العهد : ما تلتزم الوفاء به لغيرك ، وإذا كان الالتزام من جانبين يقال : عاهد فلان غيره عهدا. و ﴿يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون. ﴿بِعَهْدِ اللهِ﴾ ما أنزله في كتابه من الإيمان بالنّبي وأداء الأمانة. ﴿وَأَيْمانِهِمْ﴾ جمع يمين : وهي الحلف بالله ، والمراد هنا : أيمانهم الكاذبة أو حلفهم بالله تعالى كاذبين. ﴿ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي عوضا يأخذونه من الدّنيا ، أو رشوة ، وهو قليل ؛ لأن المال الذي يكون سببا في العقاب قليل مهما كثر.

﴿لا خَلاقَ لَهُمْ﴾ لا نصيب لهم. ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ أي يغضب عليهم. ﴿وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ أي يسخط عليهم ولا يرحمهم. ﴿وَلا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يثني عليهم ولا يطهرهم. ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

سبب النزول :

نزول الآية (٧٧):

روى الشيخان وغيرهما أن الأشعث قال : كان بيني وبين رجل من اليهود أرض ، فجحدني ، فقدمته إلى النّبي ﷺ ، فقال : ألك بيّنة؟ قلت : لا ، فقال لليهودي : احلف ، فقلت : يا رسول الله ، إذن يحلف ، فيذهب مالي ، فأنزل الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً﴾.

وأخرج البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى : أن رجلا أقام سلعة له في السوق ، فحلف بالله ، لقد أعطي بها ما لم يعطه ، ليوقع فيها رجلا من المسلمين ، فنزلت هذه الآية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ ..﴾ الآية.

قال الحافظ ابن حجر في (شرح البخاري) : لا منافاة بين الحديثين ، بل يحمل على أن النزول كان لسببين معا.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة : أن الآية نزلت في حييّ بن الأخطب وكعب بن الأشرف وغيرهما من اليهود الذين كتموا ما أنزل الله في التوراة وبدلوه ، وحلفوا أنه من عند الله. وقيل : نزلت في أبي رافع ولبابة بن أبي الحقيق

وحيي بن أخطب : حرّفوا التّوراة ، وبدّلوا صفة رسول الله ﷺ ، وأخذوا الرّشوة على ذلك [(١)].

قال الحافظ ابن حجر : والآية محتملة ، لكن العمدة في ذلك ما ثبت في الصحيح.

المناسبة :

تتابع الآيات في تبيان أوصاف أهل الكتاب ، فمنهم الأمين ، ومنهم الخائن ، ومنهم المستحل أموال غير اليهود بالباطل بتأويلات واهية ، لذا فإن القرآن يحذر المؤمنين من الاغترار بهم.

التفسير والبيان :

لقد أنصف القرآن في وصف أهل الكتاب ، فمنهم طائفة تؤتمن على الأموال القليلة والكثيرة ، والودائع أو الأمانات ، مثل عبد الله بن سلام استودعه رجل من قريش ألفا ومائتي أوقية ذهبا ، فأدّاها إليه ، ومثل السموءل بن عاديا اليهودي المشهور بالوفاء.

ومنهم طائفة أخرى تخون الأمانة ، وإن كانت قليلة ، ويتعذر استردادها منهم إلا بمتابعة المطالبة والتحصيل ، أو باللجوء إلى التقاضي والمحاكمة وإقامة البيّنة عليهم ، مثل كعب بن الأشرف أو فنحاص بن عازوراء ، استودعه رجل قرشي دينارا ، فجحده وخانه.

والذي حمل هذه الطائفة من اليهود على الخيانة : زعمهم أن التوراة تبيح لهم أكل أموال الأميين وهم العرب ، قائلين : إنه لا تبعة ولا إثم عليهم في أكل أموال العرب بل وكل ما عدا اليهود ، إذ هم شعب الله المختار ، فلهم السمو والتفوق

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٥٠١

العنصري على غيرهم ، وأما من سواهم فلا حرمة له عند الله ، فهو مبغوض عنده ، محتقر لديه ، ولا حق له ولا حرمة ، روي أن بني إسرائيل كانوا يعتقدون استحلال أموال العرب لكونهم أهل أوثان ، فلما جاء الإسلام ، وأسلم من أسلم من العرب ، بقي اليهود فيهم على ذلك المعتقد ، فنزلت الآية مانعة من ذلك (١).

وهذا أمر مرفوض في شرعة الله التي لا تفرق في أداء الحقوق بين المؤمن والكافر ، ولكنهم اليهود الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه ، ويتأوّلون النصوص على وفق أهوائهم. ومن أمثلة ذلك أيضا : ما رواه ابن جرير الطبري : أن جماعة من المسلمين باعوا لليهود بعض سلع لهم في الجاهلية ، فلما أسلموا تقاضوهم الثمن ، فقالوا : ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا ؛ لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه ، وادّعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم.

فليحذر أتباع شرع مثل فعل اليهود ، روى عبد الرزاق وأبو إسحاق أنّ رجلا سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة : الدجاجة والشاة ، قال ابن عباس : فما ذا تقولون؟ قال : نقول : ليس علينا بذلك بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب : ﴿لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ إنهم إذا أدّوا الجزية ، لم تحلّ لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.

وروى ابن أبي حاتم وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : لما قال أهل الكتاب : ليس علينا في الأميين سبيل ، قال نبيّ الله ﷺ : «كذب أعداء الله ، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين ، إلا الأمانة ، فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر» هذا ردّ عليهم.

وردّ الله عليهم أيضا بأنهم يكذبون على الله بادعائهم أن ذلك في كتابهم ، وهم يعلمون كذبهم الصريح فيه ؛ لأن التوراة خالية من هذا الحكم الجائر وهو خيانة الأميين.

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٥٠٠

بل إن حكم التوراة عكس ذلك ، فإنها توجب الوفاء بالعقود ، وتأمر بوفاء الأمانات ، وقال الله لهم : بلى عليهم في الأميين سبيل العذاب بكذبهم ، واستحلالهم أموال العرب ، فمن اقترض إلى أجل ، أو باع بثمن مؤجل ، أو اؤتمن على شيء مثلا ، وجب عليه الوفاء به ، وأداء الحق لصاحبه في حينه ، دون حاجة إلى إلحاح في الطلب أو تقاض ، وهكذا فإن كل من أوفى بما عاهد عليه ، واتقى الله في ترك الخيانة والغدر ، فإن الله يحبه ويرضى عنه ؛ لأن الله عهد إلى الناس في كتبه أن يلتزموا الصدق والوفاء بالعهود والعقود.

وليس العهد مقصورا على الوفاء بالعقود والالتزامات وأداء الأمانات وإنما يشمل أيضا عهد الله تعالى : وهو الوفاء بما التزم به المؤمن من تكاليف وأوامر وواجبات شرعية. ولو وفي اليهود بعهودهم لآمنوا بالنبي ﷺ ، ولو أنصفوا لما فرقوا في وفاء العهد بين اليهودي وغيره.

ثم بيّن الله تعالى جزاء الذين يخونون العهد ، ويكتمون ما أنزل الله ، ويبدلون بالحق الباطل ، ويستبدلون بكلام الله وأوامره عوضا حقيرا ، وثمنا قليلا : وهو متاع الدنيا من الترؤس والارتشاء ونحو ذلك ، ذلك الجزاء هو خسارة نعيم الآخرة ، واستحقاق غضب الله وسخطه ، وعدم الثناء عليهم ، وانعدام الإحسان إليهم والرحمة بهم ، والاستهانة بأحوالهم وأوضاعهم ، ولهم عذاب مؤلم شديد في نار جهنم.

وقد عبر الله تعالى عن كل ذلك بطريق المجاز ، فجعل نكث العهد وأخذ شيء مقابله بمثابة الشراء والمعاوضة ، ولكنها صفقة خاسرة ؛ لأن المقابل أو الثمن مهما كان كثيرا ، فهو في الواقع قليل إذا قيس بعظم الجرم والذنب وشدة العقاب الذي يلقاه في الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

أخبر الله تعالى أن في أهل الكتاب الخائن والأمين ، والمؤمنون لا يستطيعون التمييز بينهم ، فعليهم اجتناب جميعهم. وخصّ أهل الكتاب بالذكر ، وإن كان المؤمنون كذلك ؛ لأن الخيانة فيهم أكثر ، فخرج الكلام على الغالب. والأمين لا فرق عنده بين الكثير والقليل ، فمن حفظ الكثير وأداه فالقليل أولى ، ومن خان في اليسير أو منعه فذلك في الكثير أكثر.

واستدل أبو حنيفة على مذهبه في ملازمة الغريم (المدين) بقوله تعالى : ﴿إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً﴾ وأباه سائر العلماء.

والأمانة عظيمة القدر في الدّين ، ومن عظم قدرها أنها تقوم هي والرّحم على جنبتي الصراط ، كما في صحيح مسلم ، فلا يمكّن من العبور بسلام إلا من حفظهما.

وليس في هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم ، في رأي المالكية ، خلافا لمن ذهب إلى ذلك ؛ لأن فسّاق المسلمين يوجد فيهم من يؤدّي الأمانة ، ويؤمن على المال الكثير ، ولا يكونون بذلك عدولا ، فطريق العدالة وقبول الشهادة لا يدل عليه أداء الأمانة في المال في التعامل والوديعة.

ولا يوجد في شرع الله مطلقا التفريق في أداء الحقوق والأمانات بين المؤمن وغيره ؛ لأن الحق مقدس ، لا تتأثر صفته بشخص مستحقه ، أما اليهود فلم يجعلوا الوفاء بالعهد حقا واجبا لذاته.

ودلّ قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ على أن الكافر ليس أهلا لقبول شهادته ؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه كذّاب. وفيه ردّ على الكفرة الذين يحرّمون ويحللون غير تحريم الله وتحليله ، ويجعلون ذلك من الشرع.

وإن الوفاء بالعهد : عهد الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وعهد الناس في المعاملات والعقود والأمانات من الإيمان ، بل من أجل خصال الإيمان ، وهو الذي يقرب العبد من ربه ، ويجعله أهلا لمحبته ورضوانه. أما الانتساب إلى أمة أو عنصر أو شعب بعينه فلا أثر له عند الله. وإن خائن العهد ليس من التقوى في شيء ، بل هو في زمرة المنافقين ، وإن آكل المال بالباطل يستحق غضب الله وسخطه ، روى أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق ، لقي الله وهو عليه غضبان» وقال أيضا فيما رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة : «آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان» وروى الطبراني في الأوسط عن أنس حديثا هو : «لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له».

وجزاء ناكثي العهد وخائني الأمانات أشدّ عند الله من مرتكبي بقية الكبائر كالزنا والسرقة وشرب الخمر ولعب الميسر وعقوق الوالدين ؛ لأن مفسدة نقض العهد عامة شاملة ، وضررها أعظم وأخطر.

ودلت هذه الآية وأحاديث النبي ﷺ المتقدمة على أن حكم الحاكم لا يحلّ المال في الحقيقة والباطن بقضاء الظاهر إذا علم المحكوم له بطلانه ، روى الأئمة عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : «إنكم تختصمون إليّ ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع منكم ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا ، فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها يوم القيامة».

ورأى أبو حنيفة أن قضاء القاضي ينفذ في الظاهر والباطن إذا حكم بعقد أو فسخ أو طلاق ؛ لأن مهمته القضاء بالحق ، وأما الحديث السابق فهو في قضية لا بينة فيها ، فإذا ادّعى رجل على امرأة أنه تزوجها ، فأنكرت ، فأقام على زواجها شاهدي زور ، فقضى القاضي ـ دون أن يعلم بزور الشهود ـ بالنكاح

بينهما ، وهما يعلمان أنه لا نكاح بينهما ، حلّ للرجل ووطؤها ، وحلّ لها التمكين. ومثله لو قضى بالطلاق فرق بينهما عنده ، وإن كان الرجل منكرا. ويقاس عليه البيع ونحوه.

من أكاذيب اليهود :

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)﴾

المفردات اللغوية :

﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ﴾ من اللّي وهو الفتل والعطف ، أي يفتلون ألسنتهم ويميلونها ويعطفونها عن الكلام المنزل إلى المحرّف والمبدل كإثبات النبوة الحقيقية لعيسى عليه‌السلام ، بدلا من المعنى المجازي الوارد على لسان عيسى ، وكتحريف صفة نبي آخر الزمان. ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أي المحرف ﴿مِنَ الْكِتابِ﴾ الذي أنزله الله. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

سبب النزول :

عن ابن عباس : قال عن هذه الفئة الثالثة من أهل الكتاب الذين افتروا على الله ما لم يقله: هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف. وكان من ألدّ أعداء النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم. غيّروا التوراة ، وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم ، ثم أخذت قريظة ما كتبوه ، فخلطوه بالكتاب الذي عندهم [١].

---

(١) الكشاف : ١ / ٣٣١

التفسير والبيان :

إن من أهل الكتاب جماعة من أحبارهم وعلمائهم وزعمائهم ، وهم كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، وحييّ بن أخطب وغيرهم ، يفتلون ألسنتهم بقراءة كتابهم المنزل عن الصحيح إلى المحرّف ، بالزيادة في كلام الله أو النقص أو تغيير المعنى ، أو قراءته بنغمة توهم الناس أنه من التوراة ، وتجعلهم يظنون أن ذلك المحرّف من كلام الله ، وما هو من عند الله ، فهم كاذبون فيما يقولون ، فإنهم يدعون أنه من عند الله ، وهذا تأكيد لقوله : ﴿هُوَ مِنَ الْكِتابِ﴾.

فهم لم يكتفوا بالتعريض ولكنهم يصرحون بنسبة الكلام إلى الله كذبا ، لفرط جرأتهم على الله وقساوة قلوبهم ، ويأسهم من الآخرة. وبناء عليه سجّل الله تعالى عليهم صفة الكذب الدائمة الملازمة لهم وهي افتراء الكذب على الله عمدا ، لا خطأ ؛ لأنهم يعلمون تمام العلم أنه كذب وافتراء محض ، فهذه الجملة تنعى عليهم قبيح ما يرتكبون من الكذب.

من أمثلة ليّ لسانهم : أنهم كانوا إذا سلّموا على النبي ﷺ أخفوا لام «السلام» وقالوا : «السام عليكم» والسام هو الموت. ومن الأمثلة قولهم : ﴿راعِنا﴾ من الرعونة والحمق ، لا من الرعاية ، كما جاء في آية : ﴿مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَيَقُولُونَ : سَمِعْنا وَعَصَيْنا ، وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ، وَراعِنا ، لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَطَعْناً فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا : سَمِعْنا وَأَطَعْنا ، وَاسْمَعْ وَانْظُرْنا ، لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [النساء ٤ / ٤٦].

التحريف والتبديل : هذا وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة في تحريف التوراة والإنجيل ، منها هذه الآية ، وآية النساء المتقدمة ، وآية البقرة : ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢ / ٧٥] وآية المائدة : ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ

{الْكِتابِ} [المائدة ٥ / ١٥] والآية الأخرى في المائدة : {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ} [المائدة ٥ / ١٣] وآيات الإسراء : {وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ} إلى قوله: {وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً} [الإسراء ١٧ / ٤ ـ ٧] وآية إبراهيم : {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ... فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ} [إبراهيم ١٤ / ٩] وآية الأنعام : {قُلْ : مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها ، وَتُخْفُونَ كَثِيراً} [الأنعام ٦ / ٩١].

فقه الحياة أو الأحكام :

أثبتت الآية صفتين شنيعتين لليهود والنصارى وهما تحريف التوراة والإنجيل ، وتأويلهما ، ووضع كتب يكتبونها من عند أنفسهم ، والكذب والافتراء على الله. وهاتان الصفتان يصدر عنهما عادة أسوأ الأفعال وأخس المؤامرات ، وأخطر أنواع التضليل والتدليس والخداع الذي يمارسونه في حق البشرية.

افتراء أهل الكتاب على الأنبياء

{ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)}

الإعراب :

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ على قراءة النصب معطوف على ﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ﴾ أو على ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ وضميره وهو «كم» للبشر. وعلى قراءة الرفع على الاستئناف والاقتطاع مما قبله ، وتكون ﴿لَا﴾ بمعنى «ليس» والضمير المرفوع في ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ لله تعالى.

البلاغة :

يوجد طباق بين لفظ ﴿بِالْكُفْرِ﴾ و ﴿مُسْلِمُونَ﴾.

﴿لَا يَأْمُرُكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري أي لا ينبغي له.

المفردات اللغوية :

﴿لِبَشَرٍ﴾ إنسان ذكرا أو أنثى ، واحدا أو جمعا. ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة وهي فقه الشريعة وفهم القرآن ، وذلك يوجب العمل به. ﴿عِبَاداً﴾ مفرده عبد بمعنى عابد. ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾ واحده رباني : منسوب إلى الرب ؛ لأنه عالم به مواظب على طاعته ، مثل : رجل إلهي. فالمراد بالربانيين : هم العلماء الفقهاء العاملون المنسوبون إلى الرب. قال محمد بن الحنفية حين مات ابن عباس : «اليوم مات ربانيّ هذه الأمة». ﴿تَدْرُسُونَ﴾ تقرؤون الكتاب.

سبب النزول :

أخرج ابن إسحاق والبيهقي عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ، ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى؟ قال : معاذ الله ، فأنزل الله في ذلك : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ إلى قوله : ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

وأخرج عبد الرزاق في تفسيره عن الحسن البصري قال : بلغني أن رجلا قال : يا رسول الله ، نسلّم عليك ، كما يسلم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك؟ قال : لا ، ولكن أكرموا نبيكم ، واعرفوا الحق لأهله ، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ، فأنزل الله : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ إلى قوله : ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

والغرض من الآية تكذيب أهل الكتاب الذين يعظمون عيسى والعزير تعظيم عبادة.

التفسير والبيان :

لا ينبغي لبشر ينزل الله عليه الكتاب ، ويعلمه الحكمة : فقه الدين ومعرفة أسرار الشرع ، ويؤتيه النبوة والرسالة ، ثم يقول بعد هذا للناس : اعبدوني من دون الله أي متجاوزين ما يجب من إفراد العبادة لله تعالى ، فهذا هو الشرك بعينه ، وإنما يجب إخلاص العبادة لله وحده ، كما قال : ﴿قُلِ : اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ [الزمر ٣٩ / ١٤].

وروى مسلم وغيره حديثا قدسيا عن النبي ﷺ قال : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيري ، تركته وشركه» وفي رواية : «فأنا منه بريء ، هو للذي عمله». وروى أحمد عنه ﷺ : «إذا جمع الله الناس يوم القيامة نادى مناد : من أشرك في عمل عمله لله أحدا ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك».

ولكن يقول الرسول للناس : كونوا ربانيين أي علماء فقهاء عاملين بما أمر الله ، مطيعين له طاعة تامة ؛ لأن العلم الصحيح هو الذي يبعث على العمل ، وإن تعلم الكتاب الإلهي ودراسته يوجب الطاعة ، ويحقق وصف الرباني. ولا يعقل أن يأمر الرسول باتخاذ إله أو رب غير الله ، أو بعبادة أحد غير الله ، لا نبي مرسل ولا ملك مقرّب. وقد كان مشركو العرب يعبدون الملائكة ، وحكى القرآن : ﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ : عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، وَقالَتِ النَّصارى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة ٩ / ٣٠]. وهذا كله مخالف لرسالات الأنبياء التي تأمر بعبادة الله وحده.

أيأمركم هذا النبي بالكفر بعد الإسلام ، وهذه شهادة لهم بأنهم مسلمون ، أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله ، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا

إلى الكفر ، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿وما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٥] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل ١٦ / ٣٦] وقال : ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا ، أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٤٥] وقال إخبارا عن الملائكة : ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ : إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ ، فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٩].

فقه الحياة أو الأحكام :

من المستبعد أن يأتمن الله تعالى رسولا أو نبيا على وحيه ، ثم يدعو الناس إلى عبادة نفسه ، فإن الأمين يقوم عادة بما كلفه به المؤتمن له. وإنما تكون دعوة الأنبياء موجّهة نحو عبادة الله وحده لا شريك له ، والعبادة تتطلب الإخلاص ، قال تعالى : ﴿قُلِ : اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ [الزمر ٣٩ / ١٤] وقال : ﴿وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ﴾ [البينة ٩٨ / ٥].

ودلّت الآية على أن العلم الصحيح والفقه وفهم أسرار الشريعة يستدعي العمل والطاعة والتزام التكاليف الشرعية ؛ لأن من عرف الله هابه ، ومن هابه امتثل أمره ، ومن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة يكون أعلم الناس بالله.

فمن تعلم علوم الشريعة وترك العمل بها فهو ساقط الاعتبار أمام الله ، وكان علمه وبالا عليه ، وحجة على ضلاله وهلاكه وفساده.

والتقرب إلى الله لا يكون إلا بالعمل بالعلم ، والعلم الذي لا يبعث على العمل لا يعدّ علما صحيحا. والكفر يتنافى مع الإسلام ، والإسلام دين الفطرة ، وهو في عرف القرآن : دين جميع الأنبياء.

ميثاق الأنبياء بتصديق بعضهم بعضا وأمرهم بالإيمان

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾

الإعراب :

﴿لَما﴾ : من قرأ بكسر اللام علقها بأخذ ، وما بمعنى الذي. ومن فتح اللام جعلها لام الابتداء ، وهي جواب لما دل عليه الكلام من معنى القسم ؛ لأن أخذ الميثاق إنما يكون بالأيمان والعهود ، ويجوز حينئذ أن تكون «ما» بمعنى الذي أو شرطيه ، فإذا كانت بمعنى «الذي» كانت مرفوعة مبتدأ ، و ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ : صلته ، والعائد محذوف تقديره : آتيتكموه ، وخبر المبتدأ : ﴿مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ ، و ﴿مِنْ﴾ : زائدة ، وقوله : ﴿ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ معطوف على الصلة ، وعائده محذوف تقديره : ثم جاءكم رسول به.

وإذا كانت شرطية فهي في موضع نصب بآتيتكم ، و ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ في موضع جزم بما ، وكذا ﴿ثُمَّ جاءَكُمْ﴾. وقوله : ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ جواب قسم مقدر ينوب عن جواب الشرط ، وحينئذ لا تحتاج الجملة إلى عائد ، ولهذا كان هذا الوجه أوجه عند كثير من المحققين ، لعدم العائد في الجملة المعطوفة إذا كانت شرطية.

﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ منصوبان على المصدر في موضع الحال ، أي طائعين ومكرهين.

البلاغة :

﴿لَما آتَيْتُكُمْ﴾ التفات من الغيبة في قوله : ﴿النَّبِيِّينَ﴾ إلى الحاضر.

ويوجد جناس اشتقاق بين لفظ ﴿فَاشْهَدُوا﴾ و ﴿الشَّاهِدِينَ﴾.

ويوجد طباق بين ﴿طَوْعاً﴾ و ﴿كَرْهاً﴾.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ﴾ اذكر حين قبل الله ﴿مِيثاقَ﴾ الميثاق : العهد المؤكد الموثّق : وهو أن يلتزم المعاهد شيئا ويؤكد ذلك بيمين أو بمؤكدات أخرى من ألفاظ العهود. ﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾ أقرّ بالشيء : أخبر بما يلزمه أو بما يدل على ثبوته ، مأخوذ من : قرّ الشيء : إذا ثبت في مكانه. ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ قبلتم. ﴿إِصْرِي﴾ عهدي ، الإصر : العهد المؤكد الذي يحمل صاحبه على الوفاء بما التزمه.

﴿تَوَلَّى﴾ أعرض. ﴿بَعْدَ ذلِكَ﴾ الميثاق. ﴿الْفاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الطاعة وحدود الله.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾ الهمزة للإنكار أي : أيتولون غير دين الله؟ وقدم المفعول الذي هو ﴿فَغَيْرَ دِينِ اللهِ﴾ على فعله ؛ لأنه أهم من حيث إن الإنكار متجه إلى المعبود بالباطل. ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ انقاد. ﴿طَوْعاً﴾ اختيارا بلا إباء. ﴿وَكَرْهاً﴾ بالسيف بمعاينة ما يلجئ إليه.

المناسبة :

الآيات السابقة من أول السورة إلى هنا ، وعلى التخصيص المتضمنة خيانة أهل الكتاب بتحريفهم كلام الله ، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم ، قصد بها حملهم على الإيمان برسالة النبي محمد ﷺ وإثبات نبوته ، وتؤكد هذه الآية القصد المذكور من طريق إقامة الحجة عليهم : وهو أن الله تعالى أخذ الميثاق على جميع الأنبياء من لدن آدم إلى عيسى عليه‌السلام أن يؤمن كل واحد بمن يأتي بعده ، ويصدق برسالته ، وينصره في مهمته ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع المبعوث بعده ونصرته.

فإذا كان هذا هو ميثاق الأنبياء ، فالواجب على أتباعهم الإيمان بكل المرسلين والتصديق بما معهم ؛ لأن رسالتهم واحدة ، وهي رسالة الإسلام بالمعنى العام وبالمعنى الخاص الذي هو رسالة محمد ﷺ : وهو الخضوع والانقياد لأوامر الله ،

وإعلان مبدأ التوحيد ، والتمسك بأصول الفضائل والأخلاق ، وهو الدين الحق الذي لا يقبل الله سواه.

التفسير والبيان :

اذكر يا محمد لهم وقت أن قبل الله الميثاق المأخوذ على جميع الأنبياء أنهم مهما آتيناهم من كتاب وحكم ونبوة ، ثم جاءهم رسول مصدق وموافق لما معهم ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين : محمد ﷺ ، لتؤمنن به ولتنصرنه ؛ لأن رسالات الأنبياء يكمل بعضها بعضا ، والقصد من إرسالهم واحد ، فهم متفقون في الأصول ، وأما اختلافهم في الفروع فهو لخير الإنسان ومصلحته ، ولمناسبته مع تقدم وتطور الحياة الإنسانية.

فإن تعاصر نبيان مثلا في أمة واحدة مثل موسى وهرون عليهما السلام ، كانا متفقين في كل شيء ؛ وإن اختلفت أقوامهما فالمتأخر يؤمن بدعوة المتقدم وبالعكس ، كما آمن لوط بما جاء به إبراهيم عليهما السلام وأيده في دعوته ، وإن تعاقبا مثل موسى وعيسى عليهما السلام صدق كل منهما بدعوة الآخر. وهكذا بعثة خاتم النبيين يجب على أتباع الأنبياء السابقين الإيمان بها وتأييدها. فليس الدين مصدر شقاق واختلاف ، وسبب عداوة وبغضاء ، كما فعل أهل الكتاب حين عادوا النبي ﷺ ، وإنما هو سبب تجمع واتحاد ، وسبيل حب ووداد ، وطريق إنقاذ وإسعاد.

ثم قال الله تعالى لمن أخذ عليهم الميثاق من النبيين : أأقررتم وقبلتم ذلك الإيمان والعهد بالرسول المصدق لما معكم ، ونصرته وتأييده ، أقبلتم عهدي وميثاقي المؤكد؟!

قالوا : أقررنا واعترفنا بذلك ، فقال تعالى : فليشهد بعضكم على بعض ، وأنا معكم شاهد عليكم وعلى إقراركم ، أعلم بكل شيء عنكم ، لا يفوتني شيء. روى

الشيخان عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به؟ قال : فيقول : نعم ، فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك».

هذه المحاورة على طريق التمثيل توكيد عليهم وتحذير من الرجوع عن الإقرار إذا عملوا بشهادة الله ، وشهادة بعضهم على بعض.

فمن تولى بعد ذلك الميثاق والتوكيد ، واتخذ الدين أداة للتفريق والعداء ، ولم يؤمن بالنبي المبعوث في آخر الزمان ، المصدّق لمن تقدمه ، المهيمن على الرسالات والكتب السابقة ، كما حصل من أهل الكتاب المعاصرين للنبي ﷺ ، فأولئك هم المتمردون من الكفار ، الخارجون عن عهد الله وميثاقه ، الناقضون العهد.

وإذا كان الدين واحدا ، وأن الرسل متفقون في الأصول العامة لوحدة الدين الحق ، كما بيّن تعالى ، فلما ذا ينكر أهل الكتاب نبوة محمد ﷺ ؟!

أيتولون غير دين الله ، وغير الحق بعد ما تبين ، ويريدون غير الإسلام دينا؟ وقد أسلم وخضع لله تعالى وانقاد لحكمه ومراده أهل السموات والأرض ، إما طوعا واختيارا من أنفسهم بالإنصاف والنظر في الأدلة ، أو كرها بالسيف أو بمعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل على بني إسرائيل ، وإدراك الغرق فرعون والإشراف على الموت ، فلما رأوا بأس الله وتصرفه بالكون والتكوين والإيجاد قالوا : آمنا بالله وحده ، وإلى الله المرجع والمآب يوم المعاد ، يرجع إليه سائر الخلق ، فيجازي كلّا بعمله ، سواء من أسلم وخضع وانقاد لله ، ومن اتخذ غير الإسلام دينا من اليهود والنصارى ، وهذا تهديد ووعيد لهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

أخذ الله تعالى ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضا ، ويأمر بعضهم بعضا ، فذلك معنى النصرة بالتصديق ، ومن بنود الميثاق : أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام وينصروه إن أدركوه ، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم.

ثم جاءهم الرسول محمد ﷺ ، فما عليهم إلا أن يؤمنوا برسالته ويؤيدوا دعوته ، تنفيذا للميثاق العظيم على الأنبياء ، إن كانوا من أتباعهم ، ووفاء بالعهد المؤكد ، ولأنه مصدّق لرسالات الأنبياء السابقين ؛ لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف ، وهم قد شهدوا على بعضهم بموجب الميثاق وشهد الله عليهم جميعا به.

ومن لم يؤت الكتاب فهو في حكم من أوتي الكتاب.

ومن أعرض عن اتباع رسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ ، وتولى من أمم الأنبياء أو من غير أممهم عن الإيمان بوحدانية الله وبصدق رسالة خاتم الأنبياء ، بعد أخذ الميثاق ، فأولئك هم الخارجون عن دائرة الإيمان ، المصنّفون مع الكفار المتمردين عن طاعة الله.

أهم يطلبون غير دين الله؟! وقد خضع لحكمه أهل السموات والأرض ، وكل مخلوق هو منقاد مستسلم ؛ لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج عنه.

قال الكلبي : إن كعب بن الأشرف وأصحابه اختصموا مع النصارى إلى النبي ﷺ فقالوا : أيّنا أحق بدين إبراهيم؟ فقال النبي ﷺ : «كلا الفريقين بريء من دينه» فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك ، فنزل : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾ يعني : يطلبون.

وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ، لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٨٧] وقوله : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٥].

عن مجاهد عن ابن عباس قال : إذا استصعبت دابّة أحدكم أو كانت شموسا (١) ، فليقرأ في أذنها هذه الآية : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

والخلاصة : إن الدين الحق هو الانقياد لله والإخلاص له ، وإن دين الله واحد ، وإن رسالات الأنبياء ومللهم واحدة في أصولها العامة ، وإن الأنبياء يكمل بعضهم بعضا وينصر بعضهم بعضا ويؤيد دعوته ، وهم جميعا عبيد لله مؤمنون بوحدانيته ، مذعنون لوجهه الكريم ، مخلصون له الدين حنفاء ، وقد أدّوا رسالتهم على الوجه الأكمل ، وما على البشرية إلا التزام منهجهم ، والسير على سنتهم ، دون اختلاف ولا نزاع ولا معاداة ، ولا تمسك بالموروثات ، وبما عندهم من كتاب وحكمة ، فقد انصبّت كل الأديان في الإسلام في صورته الأخيرة ، وانصهرت كل الأحكام في حكم رسالة محمد ﷺ ، وكان القرآن مصدّقا لما بين يديه وما تقدمه من الكتب السماوية ومهيمنا عليها ، ودين الله الواحد : هو عبادة الله وحده لا شريك له الذي أسلم له من في السموات والأرض ، أي استسلم له من فيهما طائعين أو كارهين ، كما قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ [الرعد ١٣ / ١٥] وقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ ، عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ ، سُجَّداً لِلَّهِ ، وَهُمْ داخِرُونَ ، وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ ، وَالْمَلائِكَةُ ، وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ، يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٤٨ ـ ٥٠] فالمؤمن مستسلم بقلبه

---

(١) الشموس : الدابة النفور التي لا تخضع لأمر صاحبها.

وقالبه لله ، والكافر مستسلم لله كرها ، بالقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع.

الإيمان بكل الأنبياء وقبول دين الإسلام

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (٨٥)﴾

الإعراب :

﴿قُلْ : آمَنَّا بِاللهِ﴾ فيه وجهان : أحدهما ـ على تقدير محذوف : قل : قولوا : آمنا بالله ، وحذف القول كثير في القرآن وكلام العرب. الثاني ـ أن يكون المقصود من خطاب النبي عليه الصلاة والسلام خطاب أمته ، مثل : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ﴾ ومثل : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمراد به الأمة.

﴿دِيناً﴾ منصوب إما لأنه مفعول ﴿يَبْتَغِ﴾ ، ويكون ﴿غَيْرَ﴾ حالا منصوبا ، تقديره: ومن يبتغ دينا غير الإسلام ، فلما قدم صفة النكرة عليها انتصبت على الحال ، أو لأنه منصوب على التمييز.

﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ ..﴾ متعلق بفعل مقدر تقديره : وهو خاسر في الآخرة ، من الخاسرين ، ولا يجوز أن يتعلق بالخاسرين لأن الألف واللام فيه بمنزلة الاسم الموصول ، فلو تعلّق به لأدى إلى أن يتقدم معمول الصلة على الموصول ، وهو لا يجوز.

البلاغة :

﴿وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ﴾ هو من عطف العام على الخاص.

المفردات اللغوية :

﴿وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا﴾ يعني القرآن. ﴿وَالْأَسْباطِ﴾ الأحفاد وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وأبناؤهم ، وخصهم بالذكر ؛ لأن أهل الكتاب يقرّون بنبوتهم. ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بالتصديق والتكذيب. ﴿مُسْلِمُونَ﴾ موحدون مخلصون له عبادتنا ، ومستسلمون مطيعون له.

﴿غَيْرَ الْإِسْلامِ﴾ يعني التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى ، ويمكن أن يراد به شريعة نبيناﷺ . ﴿مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ أريد به تضييع رصيد الفطرة وهو الانقياد لله وطاعته.

سبب النزول ، نزول الآية (٨٥):

قال مجاهد والسدّي : نزلت هذه الآية في الحارث بن سويد أخو الحلاس بن سويد ، وكان من الأنصار ، ارتد عن الإسلام هو واثنا عشر معه ، ولحقوا بمكة كفارا ، فنزلت هذه الآية ، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة. قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات.

المناسبة :

ذكر فيما سبق ميثاق النبيين أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وينصروه ، وهنا أمر لمحمد وأمته أن يؤمنوا بجميع الأنبياء المتقدمين وبكتبهم وبالإسلام الذي هو دين الأنبياء قاطبة.

التفسير والبيان :

قل يا محمد : آمنت وأمتي بوجود الله ووحدانيته وسلطانه. فهذا أمر لرسول اللهﷺ بأن يخبر عن نفسه وعن أمته بالإيمان ، فلذلك وحّد الضمير في ﴿قُلْ﴾ وجمع في ﴿آمَنَّا﴾ ، ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالا من الله لقدر نبيه ، كما ذكر الزمخشري.

وآمنا بما أنزل علينا وهو القرآن ، وصدقنا بما أنزل الله من وحي على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وذريته الأسباط ، فجوهر المنزّل واحد ، كما قال

تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء ٤ / ١٦٣].

وصدّقنا بما أوتي موسى من التوراة وعيسى من الإنجيل وسائر المعجزات. وخص هذان النبيان بالذكر ، تبيانا لأتباعهم وهم اليهود والنصارى بأن الإيمان عام في منهج القرآن.

وكذلك صدقنا بما أوتي بقية النبيين من رسالات كداود وسليمان وصالح وهود وأيوب وغيرهم ممن لم نعلم قصصهم.

وقدم الإيمان بالله على الإيمان بالكتب ؛ لأنه المصدر والأساس ، وقدم المنزل علينا وهو القرآن ، مع أنه متأخر عن نزول الكتب الأخرى ؛ لأنه طريق المعرفة بما سبق ، ولأنه المهيمن على سائر الكتب السماوية ، ولأنه الكتاب الإلهي إلى الأبد ، وأما غيره فاندثر وضاع ، ثم بدّل وغيّر.

والأمر بالإيمان بالله وبأنبيائه أمر شامل عام ، لا يختلف فيه أهل ملة عن غيرهم ، ولا تفرقة فيه بين الأنبياء تصديقا وكفرا ، فلسنا في ذلك كاليهود والنصارى نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، بل نؤمن بالكل على أن كل نبي مرسل من قبل الله تعالى ، ونحن له مستسلمون منقادون له بالطاعة.

وبعد الأمر بالإيمان جاء الأمر بالإسلام ؛ لأن الإيمان بوجود الله وهو التصديق به هو الأصل ، وعنه يصدر العمل الصالح ، وأما الإسلام فهو توحيد الله وإخلاص العبادة له والانقياد لشرعه ومنهجه ، وهو يأتي تبعا لأصل الاعتقاد.

ومن يطلب غير الإسلام (وهو التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى) دينا ، فلن يقبل منه قطعا ، وهو من الذين وقعوا في الخسران مطلقا ؛ لأنه سلك طريقا سوى ما شرعه الله ، وأضاع ما جبلت عليه الفطرة السليمة من توحيد الله

والانقياد لأوامره ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ : إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر ٣٩ / ١٥] ، وقال ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد ومسلم عن عائشة : «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ» وقال أيضا فيما رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن الأسود بن سريع : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجّسانه».

فقه الحياة أو الأحكام :

إن خلود شريعة الإسلام نابع من شيئين : أولهما ـ الإيمان الشامل المطلق بكل الأنبياء وبكتبهم ورسالاتهم ، دون تفرقة بين أحد منهم ، فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل ، وبكل كتاب أنزل ، لا يكفرون بشيء من ذلك ، بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله ، وبكل نبي بعثه الله.

وثانيهما ـ الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، والانقياد لطاعته ، والتزام منهجه وشرعه ، وهو شرع الأنبياء ، ودين الرسل الذي ارتضاه لعباده ، وجعله أساس الاحتكام إليه ، وطريق النجاة به يوم المعاد ، فمن سلك طريقا آخر سوى ما شرعه الله ، فلن يقبل منه قطعا في الآخرة ، وكان من الذين خسروا أنفسهم ، وأضاعوا حياتهم في غير المفيد لهم.

أنواع الكفار من حيث التوبة

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ

ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٩١)﴾

الإعراب :

﴿أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ﴾ : ﴿أُولئِكَ﴾ : مبتدأ ، و ﴿جَزاؤُهُمْ﴾ : مبتدأ ثان ، و ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ : خبر المبتدأ الثاني ، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول. ويجوز أن يكون ﴿جَزاؤُهُمْ﴾ بدلا من ﴿أُولئِكَ﴾ بدل اشتمال ، و ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ خبر ﴿أُولئِكَ﴾. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تابُوا﴾ استثناء متصل.

﴿خالِدِينَ فِيها﴾ حال من ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و ﴿لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ﴾ حال أخرى ، ويجوز أن يكون مستأنفا منقطعا عن الأول.

﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ جملة اسمية في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿ماتُوا﴾. ﴿ذَهَباً﴾ تمييز. ﴿وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ ما﴾ : نافية ، و ﴿مِنْ﴾ : زائدة ، و ﴿ناصِرِينَ﴾ : مبتدأ ، و ﴿لَهُمْ﴾ : خبره ، والجملة الاسمية حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾ الأول. ودخلت الفاء في خبر إن ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ﴾ لشبه الذين بالشرط ، وإيذانا بتسبب الكفر لعدم القبول.

البلاغة :

﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم ، وهو صيغة فعيل للمبالغة.

المفردات اللغوية :

﴿كَيْفَ يَهْدِي﴾ أي لا يهدي. ﴿الْبَيِّناتُ﴾ الحجج الظاهرات على صدق النبي. ﴿الظَّالِمِينَ﴾ أي الكافرين ، والظلم : الانحراف عن سبيل الحق والعدل. ﴿لَعْنَةَ اللهِ﴾ اللعن : الطرد والإبعاد من رحمة الله. ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ أي اللعنة أو النار المدلول بها عليها. ﴿يُنْظَرُونَ﴾ يمهلون ويؤخرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعيسى ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ بموسى ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً﴾ بمحمد ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا غرغروا أو ماتوا كفارا. ﴿مِلْءُ الْأَرْضِ﴾ مقدار ما يملؤها. ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم. ﴿ناصِرِينَ﴾ مانعين منه.

سبب النزول : نزول الآية (٨٦):

روى النسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ، ثم ارتد ، ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله : هل لي من توبة؟ فنزلت : ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا﴾ إلى قوله : ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأرسل إليه قومه ، فأسلم.

وأخرج مسدّد في مسنده وعبد الرزاق عن مجاهد قال : جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي ﷺ ، ثم كفر ، فرجع إلى قومه ، فأنزل الله فيه القرآن : ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا﴾ إلى قوله : ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فحملها إليه رجل من قومه ، فقرأها عليها ، فقال الحارث : «إنك والله ما علمت لصدوق ، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة» فرجع وأسلم وحسن إسلامه.

وقال الحسن البصري وقتادة : نزلت في اليهود ؛ لأنهم كانوا يبشّرون بالنبي ﷺ ، ويستفتحون على الذين كفروا ، فلما بعث عاندوا وكفروا ، فأنزل الله عزوجل : ﴿أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ ، وَالْمَلائِكَةِ ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أخرجه عبد بن حميد وغيره [١].

أي أن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، رأوا نعت النبي ﷺ في كتابهم ، وأقروا بذلك ، وشهدوا أنه حق ، ولذا كانوا يستفتحون به

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٥١٩

على المشركين ، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك ، وأنكروه ، وكفروا به بعد إيمان سابق.

وأرى أنه لا مانع من تعدد أسباب النزول ، وإن كانت القرائن ترجح أن الآية نزلت في أهل الكتاب ـ ومثلهم المشركون ـ ؛ لأن الآيات السابقة تدور حول محاورتهم ومناقشتهم واستئصال جذور الشرك من نفوسهم.

وهذا ما رجحه أيضا ابن جرير الطبري ، وأيده في (تفسير المنار).

مجمل بيان الآيات : هذه الآيات جعلت الكفار أصنافا ثلاثة :

١ ـ الذين تابوا توبة صادقة ، وهم الذين أشارت إليهم الآية : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تابُوا﴾.

٢ ـ الذين تابوا توبة غير صحيحة ، وهم المذكورون في قوله : ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.

٣ ـ الذين لم يتوبوا أصلا وماتوا على الكفر ، وهم الموصوفون بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

التفسير والبيان :

كيف يهدي الله قوما كاليهود والنصارى الذين كفروا بعد إيمانهم وشهادتهم أن الرسول حق ، وأرشدتهم الآيات الواضحات من القرآن والكتب السابقة وسائر المعجزات الدالة على صدق نبوته وصحة رسالته؟!

هذا استبعاد لهداية هؤلاء وتيئيس للنبي ﷺ منهم ، كما قال البيضاوي. فمن سنن الله تعالى في هداية البشر إلى الحق أن يقيم لهم الدلائل والبينات ، مع إزالة الموانع من النظر فيها على النحو المؤدي إلى المطلوب ، وقد مكنهم الله من هذا كله ، وآمنوا به ثم كفروا.

والله لا يهدي أولئك الظالمين لأنفسهم ؛ لأنهم عرفوا الحق وحادوا عنه ، وتركوا دلائل النبوة ، وهداية العقل.

فجزاؤهم استحقاق غضب الله وسخطه والطرد من رحمته ، وسخط الملائكة والناس ، وصبّ اللعنات عليهم ، والدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله في الدنيا ، وكذا في الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿وَقالَ : إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٢٥].

وهم خالدون أبدا في اللعنة أو في النار ؛ لأن مستحق اللعنة جزاؤه النار ، ولا يخفف عنهم العذاب ساعة واحدة ، ولا يؤجلون لعذر يعتذرون به.

ثم استثنى الله تعالى التائبين ، فمن تاب من هؤلاء عن ذنبه ، وترك الكفر ، ورجع إلى الله ، وأصلح قلبه وعمله ، وندم على ما فعل ، فإن الله غفور لما تقدّم منه ، رحيم بعباده كما قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ، وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ ، وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى ٤٢ / ٢٥]. هذا هو الصنف الأول من الكفار وهم التائبون.

وأما الصنف الثاني فهم أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي ﷺ ، وشهدوا قبل بعثته أنه حق ، ثم كفروا به بعد البعث ، ثم ازدادوا كفرا بالإصرار والعناد ، ومقاومة الرسول ﷺ ، ومحاربة المؤمنين ، فهؤلاء لن تقبل توبتهم ما داموا على الكفر ، ثم ماتوا وهم كفار ، وأولئك هم الواقعون في الضلال ، المخطئون سبيل الحق والنجاة ، الذين تمكن الكفر في قلوبهم.

والآية تشير إلى أن الكفر يزداد قوة واستقرارا ، وتمكنا في القلب بعمل ما يقتضيه ويقويه وينميه ، من طريق القيام بأعمال تنافي الإيمان ، وتدعم الكفر وأهله. وكذلك الإيمان يزداد وينقص بعمل الصالحات أو بالإنقاص منها ، كما

قال تعالى في الحالين : ﴿وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ، وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ﴾ [التوبة ٩ / ١٢٤ ـ ١٢٥].

والتوبة سبيل التزكية والتطهير والإصلاح ، كما قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ [الشمس ٩١ / ٩ ـ ١٠] فمن أهمل إصلاح نفسه خسر ، ومن حاول الإصلاح نجح ، فإذا تراكمت المساوئ ، وأهملت تزكية النفس ، وتدنست بالمعاصي الكثيرة ، صعب في العادة الرجوع إلى جادة الاستقامة. وهذا ما أشارت إليه آيات التوبة : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ، ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً. وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ ، حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ، قالَ : إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ [النساء ٤ / ١٧ ـ ١٨].

وأما الصنف الثالث فهم الذين يموتون وهم كفار ، فهؤلاء لن يقبل منهم الفداء ، ولو كان ملء الأرض ذهبا ، ولو افتدى به في الآخرة ، لا يقبل منه ، على افتراض أنه يملكه ، ويريد استخدامه وسيلة النجاة ، ولهم عذاب أليم أي عقاب مؤلم ، وليس لهم ناصر ولا شفيع يمنع عنهم العذاب ، أو يخففه ، كما قال تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ، وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَأْواكُمُ النَّارُ ، هِيَ مَوْلاكُمْ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد ٥٧ / ١٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

صنفت الآيات الكفار إلى أصناف ثلاثة بحسب بقائهم على الكفر وقبولهم الإيمان ، وهو تصنيف صريح واقعي.

فمن كفر بعد إسلامه ، وكان ظالما مقيما على الظلم لا يهديه الله ما دام مقيما

على كفره وظلمه ، ولا يقبل على الإسلام ، وله جزاء شديد هو استحقاق غضب الله وسخطه ، والخلود في نار جهنم ، دون تخفيف لشيء من العذاب ، ولا تأجيل له لمعذرة ما. فأما إذا أسلم هؤلاء وتابوا ، وأصلحوا ما أفسدوا ، فباب المغفرة والرحمة مفتوح لهم. وهذا الباب مفتوح أيضا بالأولى لمن كان مسلما عاصيا ثم تاب وأصلح وأخلص عمله لله.

ولن تقبل التوبة من الكفار الذين كفروا بعد إيمانهم ، وبقوا مقيمين على الكفر ، وسماها الله تعالى توبة غير مقبولة ؛ لأنه لم يصح منهم عزم عليها ، والله عزّ وجلّ يقبل التوبة كلها إذا صح العزم وصدقت الإرادة.

كما لا تقبل توبتهم إذا عزموا عليها عند الموت ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ ، حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ : إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء ٤ / ١٨] ويؤيده قوله ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن ابن عمر : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

ومن مات كافرا فلن يقبل منه خير أبدا ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قربة ، ولن ينفعه بعد موته بديل ولا فداء مهما كثر ، كما قال تعالى : ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ﴾ [البقرة ٢ / ١٢٣] وقال : ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٤] وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة ٥ / ٣٦].

وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : «يجاء بالكافر يوم القيامة ، فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا ، أكنت تفتدي به؟ فيقول : نعم ، فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك» (١).

---

(١) هذا لفظ البخاري ، وقال مسلم بدل «قد كنت» : «كذبت ، قد سئلت» وقد تقدم الحديث قريبا في تفسير الآية (٨١).

وأما عدم جدوى فعل الخير الذي صدر منه في الدنيا ، ففيه حديث آخر وهو أن عبد الله جدعان سئل عنه النبي ﷺ ، وكان يقري الضيف ، ويفك العاني (١) ، ويطعم الطعام : هل ينفعه ذلك؟ فقال : «لا ، إنه لم يقل يوما من الدهر : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

نوع النفقة المبرورة وجزاء الإنفاق

﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)﴾

المفردات اللغوية :

﴿لَنْ تَنالُوا﴾ لن تصيبوا وتجدوا. ﴿الْبِرَّ﴾ كلمة جامعة لوجوه الخير ، والمراد بها هنا : لن تنالوا ثواب البر وهو الجنة. ﴿تُنْفِقُوا﴾ تصدّقوا. ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ من أموالكم. ﴿فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازي عليه.

المناسبة :

ادعى أهل الكتاب في الآيات السابقة الإيمان ، وأن النبوة محصورة فيهم ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات ، وناسب هنا أن يذكّرهم بأن آية الإيمان هو الإنفاق في سبيل الله من أحب الأموال ، مع الإخلاص.

التفسير والبيان :

لن تصلوا إلى ثواب البر وهو الجنة ، ولن تكونوا بررة تستحقون رضوان الله وفضله ورحمته ، وصرف عذابه عنكم ، حتى تنفقوا من أحب الأموال إليكم من

---

(١) العاني : الأسير.

كرائم الأموال. وما تنفقون من شيء ، سواء أكان كريما أم رديئا ، فإن الله به عليم فيجازي عليه ، ولا يخفى عليه أمر الإخلاص والرياء.

ومما يدل على سمو رتبة الصحابة أنهم كانوا يتصدقون بأحب الأموال لديهم ، روى الأئمة الستة عن أنس بن مالك ﷺ قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار نخلا بالمدينة ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء [١] (بستان في المدينة) وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها ، فلما نزلت : ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله ، إن أحب أموالي إليّ بيرحاء ، وإنها صدقة لله تعالى ، أرجو برّها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى ، فقال عليه الصلاة والسلام : بخ بخ (كلمة استحسان تدل على الرضا والإعجاب) ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين ، فقال : أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. وفي رواية لمسلم : فجعلها بين حسان بن ثابت وأبيّ بن كعب.

قال العلماء : إنما تصدّق به النبي ﷺ على قرابة المصدّق لوجهين : أحدهما ـ أن الصدقة في القرابة أفضل ، الثاني ـ أن نفس المتصدق تكون بذلك أطيب وأبعد عن الندم.

وكذلك فعل زيد بن حارثة ، أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن المنكدر قال : لما نزلت هذه الآية ، جاء زيد بن حارثة بفرس يقال لها (سبل) لم يكن له مال أحب إليه منها فقال : هي صدقة ، فقبلها رسول الله ﷺ وحمل عليها ابنه أسامة ـ أي أعطاها له ـ ، فكأن زيدا وجد من ذلك في نفسه (أي حزن) ، فقال رسول الله ﷺ : «إن الله قد قبلها منك».

---

(١) وضبطها ابن العربي «بيرحاء» وفي الموطإ : «وكانت أحب أمواله إليه بئرحاء».

وفي الصحيحين : أن عمر قال : يا رسول الله ، لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر ، فما تأمرني به؟ قال : «حبّس الأصل ، وسبّل الثمرة».

وأعتق ابن عمر نافعا مولاه ، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار ، قالت صفية بنت أبي عبيد : أظنه تأوّل قول الله عزّ وجلّ : ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. وأخرج عبد بن حميد والبزار عن ابن عمر قال : حضرتني هذه الآية : ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ﴾ ، فذكرت ما أعطاني الله تعالى فلم أجد أحبّ إليّ من مرجانة (جارية رومية) فقلت : هي حرة لوجه الله ، فلو أني أعود في شيء جعلته لله تعالى لنكحتها ، فأنكحتها نافعا (مولاه الذي كان يحبه). ولم يمت ابن عمر إلا وأعتق ألف رقبة.

أما معنى البر فاختلفوا في تأويله على أقوال ثلاث : الجنة ، أو العمل الصالح ، أو الطاعة ، والتقدير على المعنى الأول : لن تنالوا ثواب البر حتى تنفقوا مما تحبون أي لن تصلوا إلى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون ، وعلى المعنى الثاني : لن تصلوا إلى العمل الصالح ... وعلى المعنى الثالث وهو معنى جامع : لن تصلوا إلى الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات حتى تنفقوا مما تحبون. وقال الحسن البصري : ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا﴾ : هي الزكاة المفروضة. والأولى أن يكون المراد كما قال الزمخشري : لن تبلغوا حقيقة البر حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها ، كقوله: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة ٢ / ٢٦٧]. وكان السلف رضي الله عنهم إذا أحبوا شيئا جعلوه لله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على أمرين :

الأول ـ أن يكون الإنفاق في سبيل الله للوصول إلى حقيقة البر من أحب

الأموال وأفضلها عند مالكها ، وبمقدار طيبها وحسنها يكون الثواب عليها.

الثاني ـ الترغيب والحث على إخفاء الصدقة ، بعدا عن الرياء ، وإخلاصا في العمل لوجه الله ، وترفعا عن نفاذ الشيطان إلى قلب المؤمن الصالح.

انتهى الجزء الثالث ولله الحمد

فهرس

الجزء الثالث

الموضوع الصفحة

درجات الرسل وأحوال الناس في اتباعهم ٥
الأمر بالإنفاق في سبيل الخير ١٠
آية الكرسي... ١٣
منع الإكراه على الذين والله هو الهادي إلى الإيمان ١٨
قصة المروذ الملك ودلالتها على وجود الله تعالى...................................... ٢٦
قصة العزيز وحماره ودلالتها على إمكان البعث....................................... ٣٦
حب الاستطلاع عند إبراهيم عليه السلام.. ٣٦
ثواب الإنفاق في سبيل الله وآدابه.. ٤٠
الإنفاق لمرضاة الله والإنفاق لغير وجه الله.. ٥١
إنفاق الطيب من الأموال لا الخبيث... ٥٧
تخويف الشيطان من الفقر والفهم الصحيح للقرآن ٦٢
صدقة السر وصدقة العلن.. ٦٦
مستحقو الصدقات.. ٧١
الربا وأضراره على الفرد والجماعة ٨٢
مراحل تحريم الربا.. ٩١
سبب تحرين الربا... ٩٨
نظرية الميسرة ١٠٠

آية الدين وآية الرهن (توثيق المؤجل بالكتابة أو الشهادة أو الرهن) ١٠٢
مقبول الشهادة ومرفوضها ١٠٩
انطباعات عامة مستفادى من آية الدين.................................. ٢٤
لله ملك السموات والأرض وإحاطة علمه بكل شيء ومحاسبة العباد على أفعالهم ونواياهم
.... ١٢٦
الإيمان برسالات الرسل والتكليف بالطاقة ١٣٠
فضل آيتي آخر سورة البقرة ١٣٢
تفسير سورة آل عمران.. ١٤٠
مدى صلتها بسورة البقرة.. ١٤٠
ما اشتملت عليه السور... ١٤١
سبب التسمية... ١٤١
فضل سورة آل عمران.. ١٤٢
إثبات التوحيد وإنزال الكتاب.. ١٤٣
الحكم والمتشابه في القرآن.. ١٤٩
متبعو المتشابه ١٥٧
عاقبة الكفار المغرورين بالمال والولد ومثال ذلك....................... ١٥٨
محبة الشهوات في الدنيا ١٦٣
الجنات التي هي خير من الدنيا ومقاتنها................................ ١٧٠
الشهادة بوحدانية الله وقيامه بالعدل ونوع الدين للقبول عندالله ١٧٦
جزاء قتل الأنبياء... ١٨٣
إعراض أهل الكتاب عن حكم الله ١٨٧
دلائل قدرة الله وعظمته وتصرفه في خلقه والتفويض إليه........................ ١٩١

موالاة الكافرين والتحذير من الآخرة.. ١٩٧
محبة الله باتباع الرسول وطاعته.. ٢٠٥
اصطفاه الأنبياء وقصة نذر امراة عمران ما في بطنها لعبادة الله......... ٢٠٩
قصة زكريا ويحيى (دعاء زكريا وطلبه الولد الصالح وانجاب يحيي) ٢١٦
قصة مريم.. ٢٢٢
قصة عيسى عليه السلام ٢٢٨
عيسى مع قومه المؤمنين والكفار ٢٣٦
الرد على من زعم الوهية عيسى والمباهلة...................................... ٢٤٤
الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وملة إبراهيم.................................. ٢٥٠
محاولة بعض أهل الكتاب إضلال المسلمين والتلاعب بالدين والعصبية الدينية ٢٥٧
أداء الأمانة والوفاء بالعهد عند بعض أهل الكتاب ٢٦٣
من أكاذيب اليهود.. ٢٧١
افتراء أهل الكتاب على الأنبياء ٢٧٣
ميثاق الأنبياء بتصديق بعضهم بعضا وأمرهم بالإيمان ٢٧٧
الإيمان بكل الأنبياء وقبول دين الإسلام....................................... ٢٨٣
أنواع الكفار من حيث التوبة ٢٨٦
نوع النفقة المبرورة وجزاء الإنفاق.. ٢٩٣